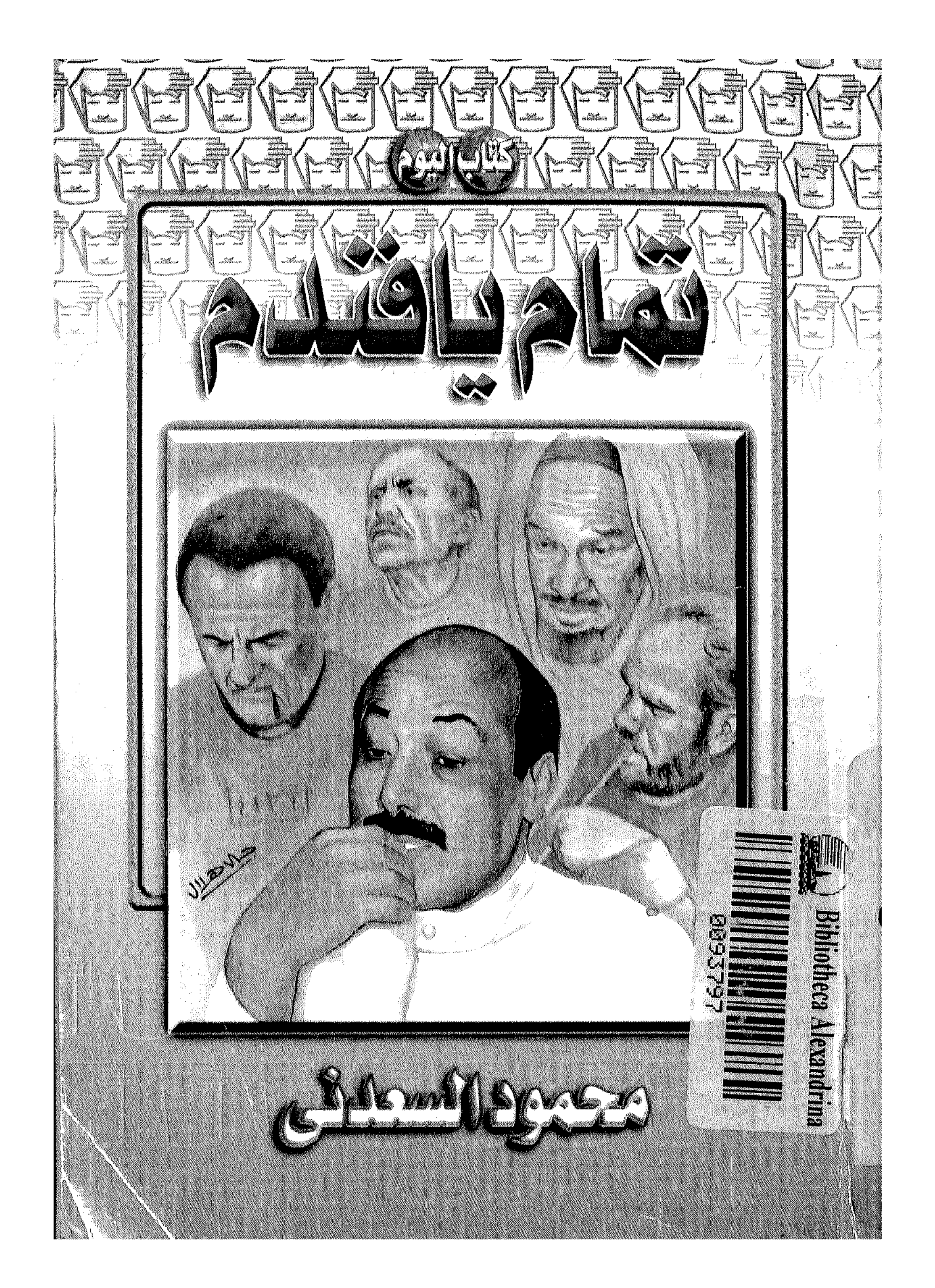

كتاب اليوم
تمام يافندم
محمود السعدنى
Bibliotheca Alexandrina
0093797



دار
أخبار اليوم

قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

□ عدد أغسطس ١٩٩٧ □

الطبعة الثانية

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده

رئيس التحرير :
نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الأردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٥	دينار
السعودية	١٢	ريال
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢,٥٠	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٢	دراهم
قطر	١٢	ريالات
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٤٨ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٥ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٠ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٥ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٥ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

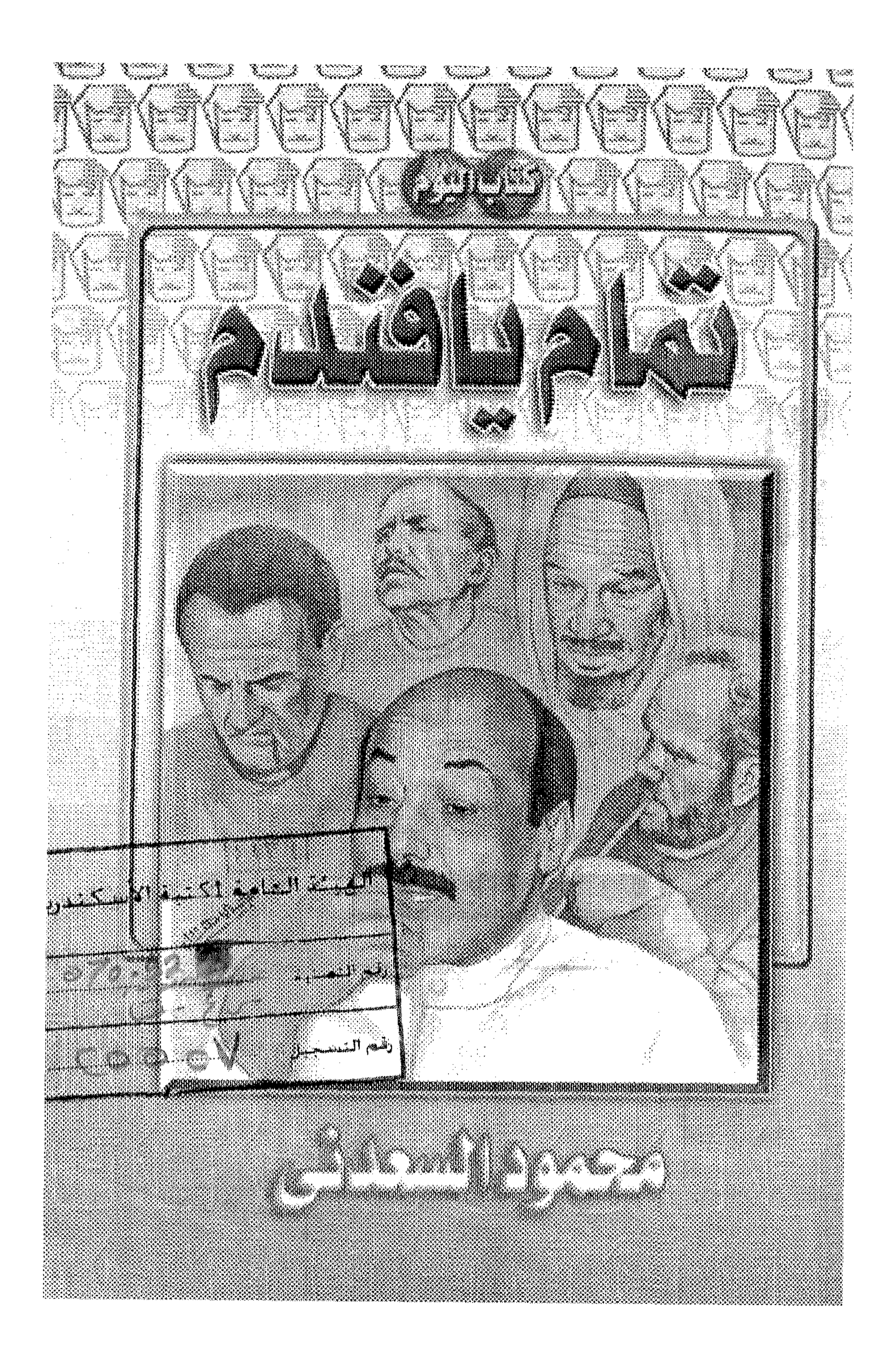
٣ (أ) ش الصحافة

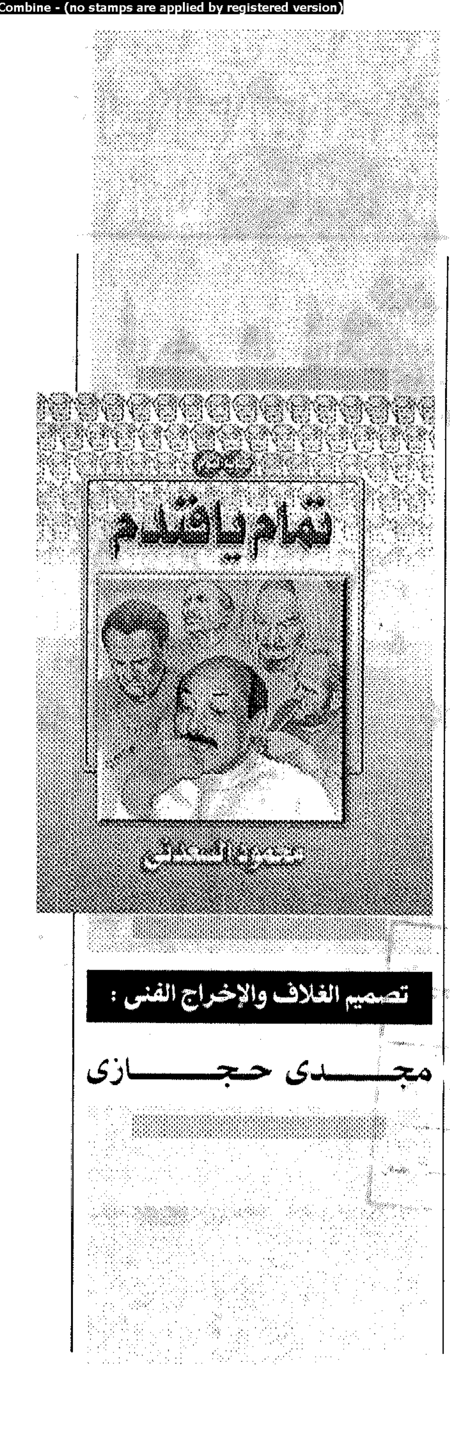
القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس ٥٧٨٢٥٤٠٠

● تلكس دولى : ٣٠٣٢١٠

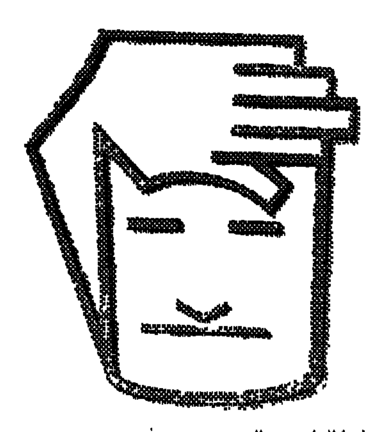
● تلكس محلى ٢٨٢٠


كتاب اليوم
تمام يافندم
محمود السعدني



تصميم الغلاف والإخراج الفنى :

مجـــدى حجـــازى



تمام يا فندم

المقدمة

تمام .. مليون تمام !

التمام هـو أهم شيء فى السجن ، أهم من النـزلاء ومن الإدارة نفسها .. يـالها من لحظة متوترة ومشحونـة بـالقلق .. لحظة وقوف شاويش العنبر أمام حضرة الصـول ، ويضرب كعبه بـالأرض ويصرخ كعنتر بن شداد .. تمام يـافنـدم ، ثم تتوالى اللحظات .. الصـول أمام ضابط العنبر ، وضابط العنبر أمـام البيه الوكيل، والبيه الوكيل أمـام البيه المأمور ، والبيه المأمور أمام البيـه المدير .. والكل يصرخ واحد وراء الآخر.. تمام يا فندم !

وتمام يا فندم تعنى أن كل شىء على ما يرام ، الجدران لم يصبها الانهيار ، والسقوف ليس بها شقوق ، والأبواب فى أحسن حال ، والأسوار متينة وعال العال ، وعدد المساجين لم يطرأ عليه أى تغيير .. أقول عدد المساجين وليس حال المساجين ، لأن حال المساجين لا يهم أحدا على الإطلاق .. مسجون جوعان ، مسجون مرضان ، مسجون عريان ، هذه كلها أشياء تافهة وليس لها قيمة فى عملية التمام .. وبعد وصول التمام إلى البيه المدير ، تضاء الأنوار ، وتبدأ ضجة النزلاء تتردد داخل العنابر المغلقة بالضبة والمفتاح .

هنا تبدأ صرخات الحراس المرابطين فوق الأسوار تتصاعد فى الجو .. واحد تمام واتنين تمام وثلاثة تمام وأربعة تمام تصل أحيانا إلى عشرين تمام فى السجون المتوسطة وتصل إلى أربعين تمام فى السجون الكبيرة . ولكن .. وبالرغم من كل هذه التمامات إلا أن الواقع يقول إن كل شىء داخل السجن لا علاقة له بالتمام.. فليس فى العالم كله فساد كالفساد الموجود فى السجن .. أغلب الحراس بلا ضمير ، والسجن بالنسبة لهم هو مكان للتربح ، والنزلاء آخر غلب وآخر ضياع . والسجن نفسه

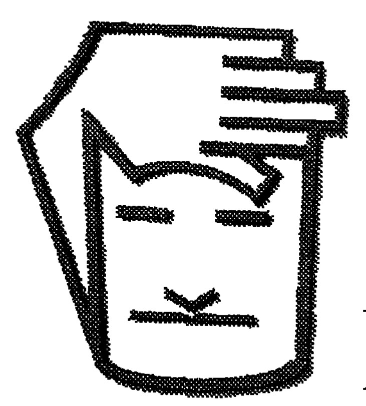
ليس مـؤسسـة عقابيـة فى الحقيقـة ، ولكنـه هيئة عـامـة لارتكـاب أخطر أنـواع الجريمـة وأحقـر ألوان التعـذيب .. ولكن لا شئ يهم ـ على رأى إحسان عبدالقدوس ـ فواحد تمــام واتنين تمام ، وكله فى النهـاية تمام يـافندم .. آخـر تمام .

وسياسة تمام يـافندم ليست قاصرة على السجن فقط ، ولكنها سيـاسة عـامة فى كل المجـالات .. أى مسئول كبير يسأل عن الأحـوال سيأتيـه الجواب على الفور .. تمام يـا فندم !

ولعل سر كثـرة التوجيهات التى تصـدر من أكبر رأس فى البــلاد إلى الـوزراء والتنفيــذيين هى سيـاســة تمام يـافنـدم .. يسأل الرئيـس كل مسئول فى مجالـه فيكـون الجواب تمام يـا فندم ، بينما التقـارير التى أمـامه تقـول عكس ذلك . ولن تنهض مصر النهضـة المطلوبـة إلا إذا تم القضـاء على سياســة تمام يافنـدم .. لأن تمام يافنـدم لا تعنى أن النـاطق بها كـذاب فحسب ، ولكنهـا تعنى شيئـا آخر أخطـر ، وهو أن صاحب العبـارة لن يتحرك من أجل التحسين أو التغيير أو التطـوير، ولماذا التطـويـر والتغيير مادام كل شىء .. تمام يافندم ؟

والآن أترككـــم لتقـرأوا الكتاب نفســه ، وستجـدون فى صفحـاتـه كل شىء .. تمام يـافندم ، فـأنا أيضـا كـذاب وراضى بما هـو كائن ، ولا أرغب فى المزيد ، ومحســوبكم من أنصـــار حـزب تمام يـافنـــدم .. كل شىء تمام وعلى ما يرام .. والحمد لله على الخيبة والتمام !

محمود السعدنى

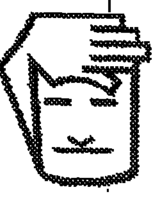


تخاريف المساجين

١

البيه المأمور !

●● أدهشني هذا المنظر الذى لم أكن أتوقع رؤيته في هذا المكان الكئيب ، عندما اجتزت الباب الضيق المرفوع أعلاه يافطة مكتوبة بخط جميل (المدرسة) فوجدت بحوش يمثل مساحة لا بأس بها ، وفي ركن منعزل من الحوش يجلس بعض المساجين ، بعضهم على دكة وبعضهم على كراسى قش ، والجميع يرتدون بدل (متايفة) ومعهم شيخان معممان ، والجميع منهمكون في مص القصب ، قصب داخل السجن؟!! يا للهول .. على رأى يوسف بك وهبى ! واكتشفت أن هؤلاء هم هيئة تدريس المدرسة ، أربعة مدرسين مساجين ، أحدهم بتهمة الرشوة ، والثاني تحرير شيكات بدون رصيد ، والثالث ضرب أفضى إلى موت ، والرابع ضرب أفضى إلى عاهة مستديمة . والغريب أن هذا الأخير كان يرتدى زى المشايخ قبل سجنه ، وكان يعمل في أرشيف إحدى المصالح نهارا ويحترف تلاوة القرآن الكريم في مآتم الفقراء ليلا ، أما الشيخان المعممان فهما موظفان من مصلحة السجون أحدهما يتولى منصب ناظر مدرسة السجن ويقوم بالتدريس في نفس الوقت ، أما الآخر فهو مدرس فقط ويطمع في أن يصبح ناظرا في يوم من الأيام ●●







وعلى مدى أسابيع طويلة حرصت على حضور هذه الجلسة تحت شمس القناطر الدافئة ، وأصبحت جزءا من طاقم المدرسة ، أشترك معهم فى مص القصب وأساهم معهم فى ثمنه ، وتصورت أن المدرسة فى أجازة طويلة للتحسينات ، ولكنى فوجئت ذات صباح بأن الهيئة كلها مشغولة بإعداد مواد الامتحان ، وعلمت أن الامتحان سيجرى فى أسبوع بالتمام والكمال ، طيب .. أين التلاميذ ؟ أجابنى الأستاذ حمد الله بأن التلاميذ موجودون فى العنابر .

— يعنى همة فى إجازة دلوقت ؟

— همة فى إجازة على طول .

— من أول السنة ؟

— من أول ما فتحت المدرسة .

— أمال هيمتحنوا إزاى ؟

— ما حدش بيمتحن فى حاجة ، احنا اللى بنكتب الأسئلة واحنا برضه اللى بنجاوب ، واحنا اللى بنصحح والنجاح عندنا مية فى المية كل سنة والمشايخ الاثنين بياخدوا حوافز .

— غريبة ، ومفيش أى نوع من التفتيش ؟

— فيه تفتيش مرة كل شهر ، بيجى الشيخ عبد الله من المصلحة يقعد معانا يمص قصب ، وياخدوا شيخ من الاثنين دول على البيت ويكون دابح له دكر بط مزغط م اللى قلبك يحبه ، وهو

راجع مصر المغربيـة بياخد معـاه شروة سمك حلوة وعلبة سجـاير عشرين وخمسة جنيه يشترك فيها المشايخ الاثنين الغلابة دول .

— مفيش حد م السجن بيفتش ؟

— ويفتش ليه يا عم ، المدير يهمه ما يحصلش دوشة والنتيجة تكون مية فى المية وخلاص !

الأستـاذ حمد الله المرتشى والـذى صـدر ضـده الحكم بثـلاث سنوات سجن ، كان شديد الثورة على الفساد الذى ينهش فى جسم مصر ، ذات صباح ونحن جلوس على الدكة نمص القصب كالعادة ، قال بحماس شديد :

— مش المدرسة بتـاع السجن بس اللى ماشية كده ، يـا أستاذ دى البلـد كلها ، المهم النتيجـة الرسميـة اللى هتتعرض على المديـر يبص فيها وينشكـح لاحد بيشتغل ولا حد بيتعلـم ، والمهم النتيجة مية فى المية .

وصمت الأستاذ حمد الله وانهمك فى مص القصـب بعض الوقت ثم نظـر نحوى نظرة طـويلة قبل أن يقـول : يعنى أنا عملـت إيه ؟ خـدت ألف جنيـه من المحل ده وخمسميت جنيه مـن الدكـان ده ، وفيها إيه دى ؟ بذمتك دى رشوة ؟ دى حسنة . الدور والباقى على اللى بياخدوه الـوحوش التانية بتوع المصلحـة وبتوع الوزارة ، لكن تقول إيه بقى ، ما يجوش إلا ع الغلابة اللى زينا .

عاد الأستاذ حمد الله إلى مص القصـب ، وسرح بعيدا عن المكان والزمان ، ثم عاد منها إلى جلستنا وقال لى بحماس :

— المهم أنت عملت كام ؟

— عملت كام فى إيه ؟

— يعنى هبرت هبرة نضيفة ؟

— اهبر منين ؟

— منين ازاى ؟ م الحكـومـة ، ما أنت ممسـوك مع الحكـومـة وكنت بتشتغل مع الحكومة .

— وهو اللى بيشتغل مع الحكومة لازم يسرق ؟

— امال هو بيشتغل ليه ؟

ضحك الأستاذ حمد الله ضحكة عريضة قبل أن يقول :

تصدق بـالله ، أنا عمرى مـا شفت حد بيشتغل لوجـه الله ، كله بيهبر، بس الخايب اللى زى محسـوبـك هـو اللى بيقع ، وبصراحـة بقى مافيش حد غريب معانا ، قوللى إنت عملت قد إيه ؟ .. مليون ؟

كان شـديد الثقة بأن العبد لله الجالس أمـامه هبر هبرة كبيرة ، وكيف لا ؟ وأنـا لا ينقصنى الذكاء ولا الحيلـة وأعمل مع الحكـومة فى نفس الوقت .. وعندما امتنعت عن الإجابة عاد يسـأل :

— نص مليون كده ؟ إذا قلت لا هزعل منك قوى ، مش معقول واحد زيك يهبر أقل من كده .

ولم أجد مبررا لمنـاقشته ، فغمـزت له بعينى غمـزة ذات معنى ، وقلت له :

— يعنى .. الحمد لله

صاح متهللا : ـ

— أيوه كده .. خلاص فرحتنى

ثم ضربنى بيده على كتفى وقال :

— لو قلتلى لأ ، كنت زعلت منك قـوى ، مش معقول واحد زيك حدق وعينـه مفتوحـة ويطلع م المولد بـلا حمص ، دا مولـد يا عم وصاحبه غايب ، دنا أعـرف ناس أقل منك بكتير وعملوا ملايين ، دا احنا عندنـا واحد م المصلحة معفن ، ـ واللى خلقك أنت ـــ عاوز له مصلحة بحالها عشان تعد الفلوس اللى معاه .

وتركنـى حمد الله وانصرف ، وتوطدت الصلـة بينى وبينـه بعد

ذلك ، كـان ذكيـا وخفيف الـدم وخفيف الحركـة وخفيف العقل ، وكـان مذعـورا على نحو مـا يتـوقع الشر فى كل لحظة ، ويتـوجس خيفـة من كل النـاس ، ولم يكن يشغله داخل السجـن إلا الوجبـة القادمـة ، وكان يعمل المستحيل من أجل مـائدة تليق بكرشـه الذى يشبه كـرش امرأة حامل فى تـوأم .. وذات يوم عـزمنى على أكلة لا تعـوض على حسب تعبيره ، أكلـة لحمـة راس وكـرشـة وممبـار وطرشى بلـدى .وقبل العزومة اكتشفـت أنه تلقى زيارة منـزلية فى ذلك اليوم عبارة عن طشت غسيل من بتـوع زمان ممتلىء بكل هذه الألوان من الطعام .. وعندما انتهيت من غدائى ، قال محتجا :

لا .. دا مش أكلك .. أمـال بتكتب وتقـول إنك بتاكل زى الغول!

قلت له معلقا :

— دا كلام !

قال فى حسرة :

لا .. أنت مش عـاجبنى ، انس السجن يـا راجل وعيش حيـاتك الشوية اللى انت قاعدشم .

واستأذنت وخـرجت إلى الفنـاء ، وبعد نصف سـاعـة لحق بى هناك ومعه الطشت خاليا ، واستأذن منى دقائق لغسيله ، وعلشـان مـا يلمش الطير علينـا !وبعـد عـدة أسـابيع كـان قـد اطمأن إلى صحبتى، فـراح يحكى لى عن حيـاتـه التى بـدأت بـالغم ، وانتهت بالغم .. وبـالرغم من ذلك فهو سعيد ، لأنـه استطاع أن يخرج من المولـد بشىء من الحمص .. صحيح أنـه ليس الحمص الذى كـان يريـده ، ولكن شىء خير من لا شىء ! وعلى مدى أيام طـويلة راح يحكى لى قصة حياته الرهيبة ، عائلة فقيرة وبيت مزدحم بالأطفال. وحـاضر مظلم ومستقبل أكثـر إظـلامـا ، ولكن ربك كبير وفـرجـه قـريـب ، ومشيت وبقت عـال العـال لـولا ولاد الحرام الله يخرب

بيـــوتهم الدنيا بقت حلوة والخير بقى كتير والعيال انبسطت وكل شيء بقى عـال . هُبّ كل شـيء راح فى لحظة ، قـال إيه سجلـوا لنا بالصـوت والصورة والتهمـة رشوة ، رشـوة إيه يـا أولاد الهرمة ، ماتمسكوا اللى بيهبروا بالملايين مـا بيتشطروش الا ع الغلابة وهى ألف جنيه والـلا ألفين تبقى رشـوة ؟! دى تبقى حـلاوة ، تبقى إكرامية ، تبقى أى كلام والسلام ، حاجة كده تمشى المركب . المهم عكمونا وهزأونا وهات يـا سين وجيم ، وبعدين افرجوا عنى بكفالة، وبعـدين طخونـا ٣ سنين ، وأنا طلعت هنـدى ، لو هـربت وسلمت نفسى فى شـهر ينـاير كنت خدت ١٨ شـهـر ، لكن أنا سلمت نفسى على طول ، هاخد ٢٧ شـهر .. مش مشكلة ، وكل اللى عملته ٨٠ألف جنيه عمى ، لكن زى بعضه . المهم اخرج من هنا بس ، وكل شـيء هيبقى عـال العال ع العمـوم أنا لســه صغير وبكره اعمل اللى انـا عاوزه . كان يحكى لى بين الحين والآخر جزءا من قصة حياته ..

وفى ذات صبـاح دخلت السجـن فـرقـة مسرحيـــة مشهـورة ، ونصبوا المسرح فى حـوش السـجن الضيق وتركوا الـذين اعتذروا فى الحوش الكبير ، وكان العبد لله والأستاذ حمد الله فى الحوش الكبير ، وكانت فرصة للأستاذ حمد الله ليحكى لى قصة حياته بالتفاصيل .

— تصدق بالله يا أستـاذ ، أنا عاوز احكيلك عشان أنت صحفى وممكن تكتب قصتى دى فى يوم مـن الأيام ، أنا لـو اغتنيت فى يوم من الأيام هاعملها فى السينما .

— والله فكرة يا أستاذ حمد الله

— إلا تتكلف كام عملية زى كده ؟

— مش مهم التكاليف ، أنت ممكن تاخذ فلوس كمان .

ـ بذمتك ، يا سلام ، يعنى اخد كام ؟

— حسب الظروف ، على كل حال اكتب أنت القصة والباقى على الله .

— أنا مش هكتب حاجة ، أنت اللى هتكتب .

— ماشى يا أستـاذ حمد الله ، بس احكى على مهلك كده ، واللى فيه الخير ربنا هيعمله .

وانطلق حمد الله كالمدفع الرشاش يحكى بلا انقطاع .

يـا قوة الله ، أخيرا جـاء فـرج الله ونـال حمد الله بكالـوريـوس التجارة منذ ثلاثين عاما وهو يحلم بهذا اليوم ، وهو لم يدخل كلية التجارة قسرا ولا عن طريق مكتب التنسيق ، ولكنـه هو الذى اختار الكليـة وعينـه على مصلحـة الضرائب ، أعظـم نـاس فى العـالم هم مأمـورو الضرائب ، سلطاتهم لا تقـاومها أى سلطـة فى العالم ، فى امكان المأمور الجدع المفتوح العين أن يصبح فى زمن وجيز سلطان العالم ، إنه يتقاضى عـدة ألوف من الجنيهات مقابل إغماض العين عن عشرات الألـوف من حق الدولـة .. وما يأخذه مـأمور الضرائب ليس رشوة إنها عملية توزيع للثروة بشكل عادل !

ثم ما هى مهمـة الدولة على وجه التحـديد ؟ أليست هى تحقيق السعـادة والطمأنينـة للمـواطنين ؟ طيب .. إذا كـان فى وسع بعض المواطنين تحقيق السعادة لأنفسهم بالحلول الذاتية ، فما المانع ؟ يا لها من أحـلام جميلة لو تحققـت يا حمد الله لقد تقـدم بطلب إلى مصلحة الضرائب ليصبح مأمـورا يشار إليه بالبـواكى والأساتك ! ولكن هل يتحقق الحلم ؟ لـو تحقـق حلمك يـابن الشربينى لـوضع حدا لعمليـة التعذيب التى استمرت منـذ سقطت راسك فى حارة من حـارات شبرا الضيقة وحتى يـوم جـاء الفرج ونـال بكـالوريـوس التجارة ، ويـا ضيعة سنوات الشقـاء ، وما أرخص البكالـوريوس لو رفضت المصلحة طلبه .. وما جدوى اشتغاله موظف بالأرشيف أو حتى محاسبـا فى مكتب محاسبة ؟ ليست هـذه أهدافـه على كل حال .. لابد مـن منصب المأمور والهيمنة على مساحـة فى العاصمة

تفوق مساحة إمارة من إمارات الخليج .. يا له من انقلاب رهيب فى حياته .. حمد الله ستنقلب حياته رأسا على عقب ولا الـزلزال الذى ضرب سان فرانسيسكـو وجعل سافلها عاليها . وداعـا لأيام الفقر الحيسى والغم الأزلى والجوع الـذى يفرى البطـون .. كان حمد الله واحدا من بين تسعــة أطفال للحاج حسن الشربينى عامل الـدريسة بالسكة الحديـد .. ولا يذكر حمد الله شيئا عن أيامـه الأولى ، عندما كـانت العائلـة كلهـا تتكدس فى حجـرة بـائسة على شريط السكـة الحديد.

ولكن حتى هـذه الحجرة لم يستطع الحاج الشربينى الاحتفـاظ بها طويلا .. فقد أكل القطار مشط رجله ، فأعطوه بعض الجنيهات تعويضـا وعدة جنيهـات أخرى مكـافأة وسرحـوه بمعروف ، وداخ عمك الشربينى حتى عثـر على حجـرة فى حارة من حـارات شبرا .. واشتغل بعـد ذلك فى عـدة مهن ، مناد سيـارات ، منـاد يبحث عن الأطفـال الذيـن تاهـوا فى المدينـة ومسحراتـى فى شـهر رمضـان ، وهكـذا اشتهـر الشربينى فى الحى الذى يسكنـه ، وأنعم عليـه أهل الحى بلقب الحاج ، مع أنه لم يغادر القاهرة منذ جاء إليها من كفر أبـو محمـود ، وبالـرغم من العيشـة الضنك والقـرش اللى بطلـوع الـروح ، استطاع حمد الله دون إخـوته جميعـا أن يدخل المدرسـة الابتدائيـة ، وكان يـرغب فى دخول المدرسـة الثانـوية ، ولكن العين بصيرة واليـد قصيرة ، واضطـر إلى دخـول مـدرسـة التجـارة المتوسطة .

كانت المدرسة بعيدة عن شبرا بعـدة أميال .. وكان يذهب إليها فى الترام ، ليس فى تـرام معين ، ولكن كـان يقطع الـرحلـة فى عشر ترومايات على الأقل . فلم يكن هنـاك بد من الشعبطة ولكن ليس فى كل مـرة تسلم الجرة .. فقد كـان يخرج أحيـانا من الـرحلة بعـدة

كدمـات وعدة جـروح ، أحيانـا بفعل الكمساريـة ، وأحيانـا بفعل الأرصفة التى يضطر إلى القفز عليها هربا من مطاردات الكمسارية الجشعين الذين لا يؤمنون بحـرية المواطن فى استخدام المواصلات بدون حاجـة إلى دفع المعلوم .. وبالرغم من بشاعـة البيت ومرمطة المواصلات ، كـان على حمد الله أن يبحث لنفسه عن مـورد ليتمكن من الحصول على بعض الفلوس ، اشتغل فى محل بقالة ، وفى مكتب محام ، وأعطى دروسا لبعض أولاد الجيران . واضطـر فى وقت من الأوقات أن يسرح بأمشاط وفلايات ومحافظ فى ميدان العتبة .

وعنـدمـا حصل على دبلـوم التجـارة ، وجـد لنفسـه مكـانـا فى مصلحة حكومية يتقاضى منها ٦ جنيهات شهريا .

وفى الليل يكتب على الآلة الكاتبة فى مكتب محام بستة جنيهات . ودخل بذلك فى عـداد الأعيان ولكن هذه الجنيهات لم تكن خـالصة له وحده ، كان يعطى نصفها للأم ويحتفظ لنفسه بالنصف الآخر .

ولكنـه بالـرغم من كل شىء استطاع الحصـول على التوجيهيـة والانتساب لكليـة التجارة . ويالها من أيام كئيبـة ، عمل من طلعة النهار وحتى منتصف الليل ، والتهام للكتب حتى الفجر . ولكن كل شىء يهون فى سبيل الهدف الأسمى .. بكـالـوريـوس التجـارة ومنصب مأمور الضرائب .. كاد حمد الله أن يفقد عقلـه عندما جاءه خطـاب التعيين من مصلحـة الضرائب .. واضطـر لأول مـرة إلى اقتراض مبلغ بالفوائد للحصول على بدلـة جديدة قبل أن يذهب إلى المصلحة لاستلام خطاب التعيين .

وذهب حمد الله مبكـرا فى البـدلـة الجديـدة واستلم الخطـاب ووضعه فى جيبـه بعنايـة وقلبه يكاد يقفـز من بين ضلوعـه .. فقد أصبح أخيرا مأمورا للضرائب .

ومنذ لحظة خـروجه من المصلحة وإلى لحظة وصولـه إلى منزله بشبرا على بعد عدة أميال ، سار حمد الله على قدميه متوقفا أمام كل

دكان يقدم نفسه لصاحبه .

— أنــا حمد الله الشربينــى مأمــور الضرائب الجديــد . فلـوس يقبض ، قماش يقطع . عصير قصب يشرب ، لب وفــول ســودانى مفيش مــانع ، خضار وقــوطة لا بأس ، لحمــة بتلو ولحمة ضــانى كله ماشـى ، وعندما وصل إلى البيت كـان يبدو كأنه عائد من سفر طويل ، أكياس ورق وقراطيس ورق من النـوع الفاخر الذى يلفون فيــه القماش ، وصناديق أحـذيــة وجـوارب شغل المحلة وقمصــان إنتاج الشوربجى .

وهكذا تكررت رحــلات حمد الله من المصلحة إلى شبرا مرة ومن المصلحــة إلى الجيزة مــرة ، ومرة مـن المصلحة إلى بــاب الشعريــة ومرة من المصلحة إلى السكــاكينى .. المهم إنه يدخل البيت فى كل مــرة محملا بــالبضــائع ، والمأكولات وأحيــانــا يخرج من الرحلــة وجيوبه محشوة بالنقود .

ولكن ، وبالرغم من الـرحلات المتكررة والجهد المرهق ، لم تكن الحصيلة كما كــان حمد الله يتمنى ، أغرب شىء فى هــذه الحياة أن بعض الناس تطفح الدم وتكسب قليــلا ، وبعض الناس تربح مئات الألوف وهـم فى راحــة ولا راحة أمير تــركى فى أجازة .. عنـدك مثلا وكيل المصلحة يحقق مائة ضعف ما يحققه حمد الله دون أى تعب. تأتيــه البـواكى حتى بــاب مكتبــه فى المصلحة .. ورئيســه المباشر يا ميت حلاوة على النعمة التى هبطت عليــه أقام عمارة فى العباسية بــاسم شقيق زوجتــه ويملــك سيــارتين نقل ، وعنــده صرة فلـوس ولا الصرة التى كان يمنحهــا هارون الرشيــد لرجال حاشيتــه.. أما حمد الله فيا ميت حسرة عليــه ، كل ما خرج به ٨٠ ألف جنيــه بعد أن أبلى مائة جــوز جزمة فى المشــاوير التى قام بها خـلال عمله فى المصلحة .. وأغرب شىء أنهم يمنحون من يقطع عدة كيلومترات فى

السباق حفنة فلوس وميدالية ذهـب ، ولو كان هناك عدل فى ميدان الرياضة لمنحوا حمد الله الميداليات والكئوس .

ولكن الرياضة شأنها شأن كل شىء فى الحياة طبيخ فى طبيخ.. والنـاس يـا حمد الله فيما يبدو صنفـان ، صنف يبيع بـالجملـة ، وصنف يبيع بالقطاعـى ، والجميع تجار .. وقرر حمد الله ذات يوم أن يهجر البيع بالقطاعى ويشتغل فى الجملة ، اختار شركة صابون محترمة يملكها رجل من أصل شامـى ، وهو يعلم أنها تربح بالهبل وصاحبها أغنى من شيخ فـزارة وهجم حمد الله على مكتب صاحب الشركة هجومـا خاطفا ولا هجوم روميـل فى الصحراء . وحدد حمد الله مطالبه بصراحة ووضوح ، ١٢ ألف جنيه فى السنة على دفعتين، ٦ آلاف الآن، و ٦ آلاف بعد ٦ شهور .

هـذا وإلا سيكـون مصير الشركة أسـود من قـرون الخروب .. وحاول الـرجل صاحـب الشركة زحـزحة حمد الله عن مـوقفه دون جدوى . كان حمد الله قد اتخذ قـرارا لا رجعة فيه ، وهو أن يقصر عمله على ١٠ ممولين فقط ، ولو صحـت اللعبة سيكون عنده ١٢٠ ألف جنيـه سنويـا وهو دخل يجعـل منه ملكـا من ملوك الهنـد فى الزمن القديم .

١٠ آلاف جنيـه لأسرتـه و ١٠ آلاف جنيـه لنـزواتـه التى أخـذ يمارسها منـذ أن عرفت الفلـوس طريقها إليـه .. والحقيقة أن حمد الله ليس له نـزوات سوى شغفه بـالبنات المراهقات فى البدايـة كان يتصور أنها مسألـة صعبة ، ولكنه بـالتجربـة اكتشف أنها مسألة سهلـة وبسيطـة ولا تكلف إلا حفنـة جنيهـات ، يخرب بيت الفقـر وبيت أهله ، إذا حل بقوم بـاعوا كل شىء حتى الشرف .. ذات مرة وقعت فى طـريقـه بنت فى الإعـداديـة لا تتعـدى الخامسـة عشرة ، صغيرة ورقيقة ، ولكنهـا مدربـة وبنت سوق .. واستطـاعت البنت

اللهلــويــة أن تحرك رجـولــة حمد الله الــذى يقف على أعتــاب الشيخـوخة، وكـانت ترقص فـرحا لـرؤية الـورقة ذات الجنيهـات العشرة ، ولكنها كشفت عن حقيقتها بعـد شهرين بالتمام والكمال، فإذا بها محترفة تخطط لضربة تغنيها عن سؤال اللئيم ، ادعت أنها حامل فى البـداية ، ثم جاءت معهـا بشاب يحمل وجهـه القبيح آثار معارك بالمطـاوى قرن الغزال ، ادعت أنه شقيقهـا ، وبالطبع هدده الشقيق وتوعد حمد الله بأن الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم !

وعـاش حمد الله أيامـا مـريرة ورهيبـة ، ولم يتخلص من هـذه الـورطـة إلا بعـد أن انفق ٣ آلاف جنيـه ، حـار ونـار فى دم البنت المراهقة وشقيقها المزعوم .

المهم .. اذعن صاحب مصنع الصابون لطلب الأستاذ حمد الله ، ووافق على كل شروطـه كما وافـق الألمان على شروط الحلفـاء بعـد الحرب العـالمية الثـانيـة ، ودفع الـ ٦ آلاف جنيـه صـاغرا ووعـد بـالدفعـة الثـانيـة فى الميعاد المحـدد .. ولم يضيع حمد الله وقتـه ، اشترى بـالمبلـغ بيتـا صغيرا فى قليـوب ودفع الثمـن ورقـا أخضر مقرقش ، وأعطتـه هذه البـداية ثقة كبيرة فى نفســه فضرب ضربته الثانية والثالثة ، ونجح حمد الله نجـاحا ساحقا ولا نجاح روميل فى اجتياح خط مـاجينو .كان حمد الله يحكى وكأنـه يحكى قصة فيلم لا عـلاقة لـه بأحـداثه من قـريب أو بعيـد .. وخطر للعبـد لله ذات جلسة هادئة فى مكتبة السجن أن أسأله سؤالا كان يلح على العبدلله بشـدة : لكن أنت عملت كل الحاجـات دى كلهـا ببسـاطـة زى مـا بتحكيها دلوقت ؟

سكت حمد الله فترة وعض بأسنـانـه على شفته العليـا وقـال : بينى وبينك كنت بامـوت فى جلدى م الخوف والسجن والفضيحة ،

واللى اكتر من السجن والفضيحة هم العيال .

أنـا ماليش فى الـدنيـا دى حد غير العيـال ، كـان نفسى أغنتى عشـان أمتعهم وأعلمهم لحد مـا يـاخدوا الـدكتـوراه ، مش عـاوز يحصل لهم اللى حصل لى .

— وأنت حصل لك إيـه يا عـم حمد الله ؟ ما أنت الحمـد لله فت منها .

— أيوه فت منها بعد إيه ؟ تصدق بـالله ، أنا مرة ناظر مدرسة التجـارة طردنى من المدرســة وطلب منى أجيب ولى أمرى ، خـدت ولى أمرى ورحت المدرســة ، ساعة الناظـر ما شافه شتمـه وضربه بالشلوت قدام التلامذة .

— وأبوك عمل أيه ؟

— نـزل ع الأرض وباس جـزمتـه عشان يقبلنى تـانى صمت حمد الله قليلا ولمحت فى عينيه لمعة غـريبة وشرود لم أعهده فيه من قبل ، وتوقف عن الكلام ، واستأذن من العبد لله وخرج .

فى سـاحة المدرسـة ذات صباح قال للعبد لله !

— تعرف كنت مبســوط م المكاسب اللى زى الـرز والبنات اللى زى الزغاليل ، ولكن كان كل ما عينى تقع على العيال ينقبض قلبى، هايعملوا ايه لو اتمسكت أو مت ؟

قاطعته ضاحكا :

— يمكن يتربوا أحسن بعد موتك

— بقى دا اسمه كلام يا أستاذ

— هـو الكلام الصح يـا أخ حمد الله ، سيـدك وسيدى وسيـد الناس كلها محمد بن عبد الله أتربى يتيم .

— زمنه كان حاجة والزمن بتاعنا حاجة تانية .

— طيب ما عمك عبد الناصر من الـزمن بتاعنا وكان يتيم راخر

ثم ضحكت ضحكة خفيفة قبل أن أقول :

— موت أنت بس وما لكش دعوة

وكانت المفاجأة الشديـدة عندما انفجـر حمد الله فى نوبـة بكاء عنيفة وتملكته رعشة شديدة فـراح جسده كله يهتز كأنه واقف على سطح خشب ابلكـاش ، ولم يتوقف عن البكـاء إلا بعد فترة طـويلة حاولت التخفيف عن حمد الله :

— يا راجل أنا بهزر معاك ، أنت خدت المسائل جد ؟

مسح آثار الدموع من عينيه وقال :

— أنـا مستعـد أمـوت نفسى بس اضمن مستقبل عيـالى مش عـاوز حـــد منهم يعيش عيشتى المهببـــة ، مش عـــاوز يلمـولهم مصاريف المدرسة من التلامذة زى ما حصل معايا .

مش عـاوز حد من عيالى يقـف فى حوش المدرسة يبـص للعيال اللى جايبين معاهم سندوتشـات من بيوتهم زى ما كنت بابص لهم ومصارينى بتتقطع م الجوع . وقلت له وأنا على أهبة الانصراف .

— إن شـاء الله هتعيـش يا أخ حمد الله ويتربـوا فى عزك ، نهض حمد الله على الفور وجذب رأسى بشدة وطبع عليها قبلة :

— يـــا رب مـــا يحرم عيـــالك منك ، بـس بشرط ، تبقى غنى ومبسوط .. آخر مرة رأيت حمد الله كانت فى صباح يوم جمعة بارد ومطير كـــان السجن فى إجـــازة والخروج إلى الحوش ممنـــوع ، خطفت رجلى من الـدور الثانى إلى الـدور الأرضى ، كـانت زنزانـة حمد الله مفتوحة ، وكان منهمكـا فى لصق صور أبنائه على الجدران البـاردة ، صـور ياسر وإسماعيل وإبـراهيم فـوق ، وصـور لبنى وجمالات تحت ، وأشار إلى صورة إسماعيل وقال:

لـو ربنا أكـرمنى هبعت الواد إسماعيل أمـريكا يتعلم هنـاك إن

شــاء الله لما نطلع هتشوفـه واد عبقرى بحق وحقيق ، الــواد الكبير ياسر ده حمار زى أبوه ، بيحب الأكل وبس أما إبراهيم بقى هيطلع بتاع كورة !

كان وجهه مكتسيا بهالة من النور وهو يحكى عن أبنائه .

وكان سعيــدا لدرجــة أنه أتــى بحركــة راقصة وهــز وسطه ولا كــاريوكــا أيــام زمــان وضـحكت من أعماقى وتــركته وصـعـدت إلى زنزانتى ، وواربت الباب وجلست أقرأ فى كتــاب ، وبعد ساعة زمان لا غير ، شعــرت بحــركــة غير عــاديـــة داخل السجن ، نهضت من مكانى وألقيت نظـرة على الطرقة الأرضيـــة ، فإذا بممرض وبعض المساجين يحملون نقالة والدكتور ميشيل يمشى خلف الجميع وقد برز كرشه الضـخم ، بينما هو يزمجر كالضبع الجريح .

— حتى فى يوم الاجازة لازم يتعبوا قلبنا .. ملعون أبوهم .

نزلت الدور الأرضى لأعرف تفاصيل الحكاية .

لقـد دخلــوا زنزانــة حمد الله أفنــدى وحملــوه معهم .. ليس إلى المستشفى ، ولكن إلى مشرحــة السجن .. لقــد مات حمد الله أفنــدى بالسكتة .

●●●

غادرت سجن القناطــر بعد موته بعــدة أشهر ، ومضت سنوات طويلــة ، عشرون عاما أو أكثر وأثنــاء زيارة خاطفــة إلى الدنمارك ، وفى ليلة وبدعوة من الجالية المصريــة فى كوبنهاجن لإلقاء محاضرة وبعد أن انتهت القعدة وخرجت بصحبة السفير ، وأثناء وقوفنا على الرصيف فى انتظار السيارة ، تقــدم منى شاب مصرى فى الخامسة والثلاثين من العمر ، وقدم نفسه للعبد لله .

— إبــــراهيم حمد الله .. دكتـــوراه فى الكيميــاء مــن جــامعـــة كوبنهاجن .

بدا على وجهى أننى لا أعرفه ، فاستطرد قائلا :

— حضرتك مـا تعرفنيش ، بس أنـا أعـرف سيادتك ، أنـا ابن المرحوم حمد الله زميلك فى القناطر . هتفت بدون وعى :

— يا سلام .. أهلا يا بنى .

وهجمت على الشاب الذى يقف أمامى واحتضنته وقلت :

— الله يــرحم أبـوك .. بـس أنت عـرفتنـى إزاى ؟ دا أنت كنت صغير لما مات .

قال وهو يبتسم :

— كان عمرى ١٠ سنوات .. بس لما كبرت قريت الجوابات اللى كـان بيبعتها لنـا من هناك ، مـا كـانش له سيرة فى ا لجوابـات إلا حضرتك

سألته متلهفا .

واخواتك فين ؟

— البنـــات اتجوزوا ، ويـــاسر بيشتغل محامــى ، وإسماعيل محاسب ، وأنـا هــاجـرت هنا وأنـا عنـدى عشرين سنـة واشتغلت ودخلت الجامعـة ، وخدت البكـالوريـوس ، واشتغلت فى الحكومـة الدنماركية ، وبعـدين سبتها واشتغلت فى الأعمال الحرة ، وشاركت واحــد مصرى مقيم هنــا ، وربنا أكـرمنـا وبنشتغل هنـا وفى مصر وعنــدنـا قــريـة سيــاحيـة فى شرم الشيخ ، وأرض زراعيـة فى الإسماعيلية.

— ووالدتك راحت فين ؟

— توفاها الله ودفناها جنب أبويا .

وصــافحت إبــراهيم حمد الله مـودعـا ، وركبـت السيـارة مع السفير وقـرأت الفـاتحة على روح البيـه مأمـور الضرائب حمد الله أفندى ، صديق ورفيق سجن القناطر .

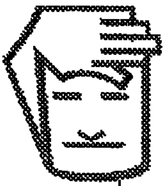




تنظيم يا نظام

٢ الدكتـــور

●● عندما رأيته أول مرة تصورت أنه نشال وسخ من إياهم الذين يمزقون جيوب الفلاحين في ميدان المحطة، لقد كان منظره يوحي بأنه واحد من هؤلاء كما أن معاملة الآخرين له كانت تؤكد أنه كان يمارس في حياته خارج السجن مهنة أوطى من ذلك بكثير، كان (الدكتور) وهذا اسمه، موضع اضطهاد من الجميع لايصادفه حارس من حراس السجن إلا ويلطشه على وجهه أو يلزقه على قفاه وكان النزلاء يتحرشون به بمناسبة وبدون مناسبة أحيانا يمزقون جلد وجهه بشفرات الحلاقة وأحيانا يكتفون بالسخرية منه وسبه بكل ألوان السباب، ولكن الجميع حراسا ومساجين كانوا حريصين على تلقيبه بالدكتور، وكانت دهشتي شديدة عندما اكتشفت أنه دكتور بالفعل وأنه مارس مهنة الطب سنوات طويلة، وبالذات في مستشفى سجن القناطر. صحيح أنه مارس الطب مدة طويلة من الزمان ولكنه لم يدرس الطب في أي مكان، ولم يحصل على أي شهادة طبية من أي مدرسة ولا حتى شهادة ممرض ! ●●





ولكنــه حصل على بكـالوريـوس الطب من جـامعـة عطـوة وهو مـزور شـهير زور شـهـادة البكـالوريـوس وتقـدم الـدكتور بطلـب وظيفة فى مصلحـة السجـون، فرحبـوا به على الفـور، ولم يختبره أحد، ولكنهـم اكتفوا بـالنظـر فى الشـهـادة ثـم أرسلـوه إلى مستشفى سجن القنـاطر ليمارس العمل هنـاك. وارتاح البيـه الدكتـور لعمله الجديد.. فقد ضمن لنفســه بيتا مستقلا فى حدائق القناطر. ولأنه صايع ووحيد وحريص على عدم الخروج من دائرة السجن. ولأن زميلـــه الـدكتـــور ميشيل كان رجلا مريضا ويقترب من سن المعاش، كان صاحبنا الدكتور يقوم بدور النوبتشى، سواء كان الدور عليه أم على الدكتور ميشيل. وفى السجن يستطيع أى إنســان أن يقــوم بــدور الطبيب فــالمرضــى من النـــزلاء أغلبهم متمارضـــون، أمــا فى الحــالات الحرجـة فيمكن تحويل أصحـابها إلى المستشفيـات الحكـوميـة، وأى طبيـب فى السجن يستطيع أن يكـون صاحب شعبية واسـعة داخل السجن لو وافق على طلبات الأجازة التى يسعى إليها المساجين المتعبين.

وكان صاحبنـا الدكتور إنسانا بحق. كـان يمنح الاجازات للفقراء بـدون حســاب. ولكنــه مع تجار المخـدرات والمختلسين كـان الأمـر يختلف. كـان يلبى طلبـاتهم أيضـا ولكـن بثمن بـاهظ. بعض هـؤلاء المســاجين السـوبر يطلبـون إدراج أسمائهم فى كشف المرضى بـداء السكر، وبعضـهم يطلب زنزانة انفـرادية لكى ينأى بنفسه عن سماجة

ورزالـة المسـاجين. وكـان الثمن فى هـذه الحالات يتراوح بين خمسين ومائة جنيه، أما عندما يطلب المسجون دخول المستشفى عندئذ يرتفع الثمن إلى ٥٠٠ جنيه مقـدما و ١٠٠ جنيه عـن كل شهر وكان الـدكتور واضحا وحاسما أيضا، ولذلك كان الجميـع يرتاحون فى التعامل معه. خصوصـا وزميله ميشيل كـان معقدا ومـزاجيا، وكـان على استعداد لنقض اتفاقه مع المسجون فى أى وقت. وجـرت الفلوس فى يد الدكتور فاشترى سيـارة، وقضـى إجازتـه مرة فى قبرص. واستطـاع أن يكون موضع ثقة مدير السجن والمأمور والضباط أيضا، وكان يتردد عليهم أحيـانا فى مقـار إقامـاتهم، ويقوم بتـوقيع الكشف الطبى عليهم وعلى أولادهم وعلى حريمهم أيضـا. ابتسمت الدنيا أخيرا للـدكتور والتأمت جـروحه وودع أيـام الفقر إلى غير رجعـة، ونسـى أو كاد المأزق الـذى وقع فيه عندما كان يعمل فى إحدى الدواير الحكومية بمركز من مراكز الـريف الصغيرة. كانت شهـادته المتـوسطـة لا تسمح له بأكثـر من وظيفـة صغيرة. وكان مـرتبـه لايكفيه أسبـوعا، وكـان يمـد يده بعـد الأسبوع الأول للأصدقـاء حتى ضاق به الجميع. ثم اكتشف أن معه عهـدة للحكومـة، وأن بها مبالغ لا بأس بها، وأنـه يستطيع أن يقتبس منهـا أحيانـا ما يفـرج به ضـائقتـه ومنذ أن اكتشف الـدكتور هـذه الحقيقة لم يعد يمد يده لأحـد، وأصبح مستورا لا يريق ماء وجهه للى يسوى واللى مـا يسواش، ولكن لأن الحجر الـداير لابد عن لطـه، فقد انكشف سر الـدكتـور وسين وجيم وشرطـة ونيـابـة وسجـون. أمـر الحكومـة عجيب ومحير أيضـا، تنتفض جميع الأجهزة وتنشط عنـدما يكون الحرامى صغيرا، ويأخـذ العدل مجراه سريعـا، ويذهب الجانى إلى محبسه قبل أن يـرتد إليـه طرفـه. وهكذا وجـد الدكتـور نفسه فى زنـزانـة فى سجن إقليمى ردىء ، الطعـام فيـه ردىء ، والنظـام فيـه ردىء، والنزلاء هم أردأ شىء فى السجن على الاطلاق! وخـرج الدكتور

من سجنه بعـد ٩ شـهور، مضت بطيئـة خاملـة، واضطر إلى العمل فى المركز موظـف استقبال فى عيادة طبيب. لكنه اكتشف بعـد عدة أشـهر أنه محاصر بالديون والهموم، وأرهقه العمل عند الطبيب الريفى الذى كـانت علاقتـه بـالطب لا تزيـد كثيراً عن عـلاقته هـو نفسـه باللغـة الصينية! ولكن الفرج جاء أخيرا، عنـدما استقبلت عيادة الطبيب زميلا للدكتور فى السجن كـانت تهمته التزوير. وكانت لـه أصابع من النوع الذي يستحق أن يلـف بالحرير. وعنـدما زاره الـدكتور فى مقـره وجد عنده جوازات سفـر تحت التزوير، وشـهادة جامعية خـاصة بشـاب فى طـريقـه إلى الهجـرة للخارج ولمعت فى ذهـن الدكتـور الفكـرة. فكـرة الحصول على شـهـادة تنقله من خـانة الشقيـانين إلى خانـة السعداء. وأبـدى المزور استعـداده لتأدية الخدمـة.. ولكن المسألـة تحتـاج إلى ١٠٠ جنيه، مائة جنيـه يا دكتور.. ونجوم السماء أقـرب إليه من هذا المبلغ الجسيم. وفكر طـويلا ثم قـرر. جمع بعض الأدوات الطبية من عيادة الطبيب الريفى وفص ملح وداب!

ولزم الطبيب الصمت، فلم يستطع إبلاغ الشرطة، فهو حريص على أن يكون بعيدا عن الشرطة، خصوصا والولد الحرامى يعرف أكثر مما ينبغى. يعـرف عمليات الاجهـاض التى يقـوم بها، ويعرف العمليـات الجراحيـة التى انتهت كلهـا بقتل المريض، ثم الإتاوة التـى يفرضـهـا الطبيب على أهل القتيل حتى لايقوم بتشريح الفقيد!

المهم أن الدكتـور حصل على المائة جنيه وسلمها للمـزيف، وسلمه المزيف بعدها بكـالوريوس الطب من جامعـة المنصورة وهكذا أصبح الدكتور طبيبا بمستشفى سجن القناطر. شىء واحد كان ينغص عليه حيـاتـه وسط هـذا النعيم اللى إنت فيـه يـاقلبى. خشيتـه من وقـوع المحظور، فيأتى إلى سجن القناطر صديقه المزيف الذى سلمه شهادة البكالـوريوس، أو يحل ضيفا على السجن أحـد الضباط الذين كـانوا

يعملون فى سجن المركز الذى سبق للدكتور قضاء عدة أشهر خلف أسواره. ولكن ربك ستار ورحمته واسعة. والأمور تسير من حسن إلى أحسن، لدرجة أنه بدأ يفكر فى إجراء عملية تجميل لتغيير ملامحه التى جلبت له الفقر منذ ولدته أمه على أرض قرية شرنوب !

ولكن ما حدث بعد ذلك كان أغرب من الخيال .

دخلت العيادة ذات صباح امرأة فى حوالى الاربعين من عمرها فى حراسة شاويش عجوز. ومنذ اللحظة الأولى انتابت الدكتور رعشة لم يحس بها من قبل، لم تكن امرأة عادية، ولكنها امرأة من النوعية التى جاءت إلى الحياة لتؤدى فيها دورا يختلف عن جميع الأدوار! جبهة عريضة وعينان واسعتان وفم مكتنز ومضموم وحاجبان مرسومان كقوسين يرسمان قوسا من السواد، وصدر بارز وجسم ملفوف، وخصر ممشوق، وحركات امرأة لعوب تجيد العزف على قلوب الرجال! استقبلها الدكتور فى اضطراب لم يستطع إخفاءه ودعاها إلى الجلوس، وأمر الشاويش بالانصراف. لقد جاءت تشكو من حالة اضطراب لاتعرف سره، لا يستقر طعام فى معدتها، ولا تنام أكثر من ثلاث ساعات فى اليوم، كثيرة العراك كثيرة النرفزة. وهى حالة يعرفها الدكتور جيدا، وهى تصيب المساجين من وقت لآخر نتيجة الحبسة والقهر والغيظ وعندما تمددت السجينة على دكة الكشف. تصبب العرق بشدة من جبهة الدكتور وتلاحقت أنفاسه، ولم يتمالك نفسه فانحنى على المرأة يقبلها، ولكنها صدته بعنف ونهضت على الفور، وألقت على الدكتور درسا فى السلوك والأخلاق. وجفف الدكتور عرقه ووقف يلهث أمامها كالكلب الجربان. ولكن ثورة السجينة هدأت بعد لحظة وعادت فتمددت على دكة الكشف.

لم يحفظ الدرس الذى لقنته إياه المرأة التفاحة فانحنى عليها يقبلها، فلم تصده ولم ترحب به، ولكنها كانت لحظات هى فى واقع

الأمر من أسعد لحظات العمر لقد كانت حياته جافة دائما، لم يعرف طبيعة العلاقة المستمرة مع امرأة. كانت علاقاته مجرد عمليات تجارية العلاقة الوحيدة التى استمرت عدة أسابيع كانت مع امرأة بدينة وأكبر منه سنا. كانت تنجز أعمالا فى المصلحة التى يعمل بها .

وكان فى يديه الحل، فتعمد التعطيل والتسويف، ورأت فى عينيه رغبة مشبوبة، وكانت عطشى، ووجدت فى الدكتور فرصة لتضرب عصفورين بحجر، وشعر بالسرور لأن المسائل تطورت كما كان يخطط لها. ولكن الذى جعله يفقد عقله هو انسحاب المرأة من حياته بعد انتهاء العلاقة الإدارية بينها وبينه!

منذ دخول المرأة المسجونة فى حياة الدكتور وأحواله كلها تغيرت. لم يعد حريصا على التواجد الدائم فى مستشفى السجن كما كان يفعل من قبل، وأصبح شاردا على الدوام، وارتكب خطأ فاحشا مع المأمور حين لجأ إليه الأخير يطلب دواء لابنه الطفل، فأعطاه دواء خطأ من أجزخانة المستشفى، ثم هرول على عجل إلى بيت المأمور ومعه الدواء الصحيح، ومن حسن الحظ أن المأمور لم يعط الدواء الخطأ لابنه الطفل لأنه كان نائما !

راحت المرأة المسجونة تتردد على المستشفى مرة كل أسبوع بأمر الدكتور، وتطورت العلاقة بينهما إلى الذروة. واستسلمت المرأة للدكتور بعد أن أقنعها بأن كل شىء يسير فى خطه المرسوم. ولاحظ المرضى والمرضون والعساكر أن الدكتور يقضى وقتا طويلا فى حجرته مع المسجونة واللمبة الحمراء مضاءة. وهمس الجميع بحكاية الدكتور والمسجونة، ووصل الهمس إلى الدكتور ميشيل فى وقت قاتل، فقد كانت هناك معركة ضارية تدور فى الكتمان بين ميشيل والدكتور. كانت المعركة حول المعلم قطقط تاجر المخدرات الكبير، وكان قطقط من نصيب ميشيل. وكان ميشيل من النوع

المنشـار نـازل واكل طـالع واكل. ولكن المعلم قطقط المدرب وجـد فى (الدكتـور) ثغرة ينفذ منهـا ويهرب من حصار ميشيل. وبـدأ التعامل بين قطقط والـدكتـور ولكن بنصف التكاليف التـى كان يتحملهـا فى تعاملـه مع ميشيل. وراح ميشيل يفتش عن أخطـاء (الدكتور) كـانت كل أمنياتـه تنحصر فى نقل (الدكتور) إلى سجن آخر. وعنـدما استمع إلى الهمس الذى يدور حول الدكتـور والمسجونة، طلب ميشيل أجازة لكى يخلـو الجو (للدكتور) لكـى يمضى. أبعد فى عـلاقته المشبـوهة. وأكل (الدكتـور) الطعم. فأمعن فى علاقتـه بالمسجـونة إلى أبعـد حد، وحدث تغيير (للدكتور) خصوصا فى عـلاقاته مع النزلاء. لم يعد يهتم بفقراء المساجين كما كان يفعل من قبـل، واشتد فى طلب الرشاوى من أثريـائهُم حتى تجاوز السقف الذى وصل إليه ميشيل. كـانت طلبات المرأة المسجـونـة من النوع غير المعقـول. كـان لها نصف دستـة من الأطفال يعيش ثـلاثة منهم عند أخـت لها والثلاثة الآخـرون مع أمها، وكانـوا فى سن الخطـر، خصوصا ابنتهـا الكبرى، وكانـت على عتبات السـابعة عشرة، وكـان على استعداد لتلبيـة كل الطلبـات، خصوصـا عنـدمـا وقع بصره على البنت الكبيرة. كـانت نسخـة طبق الأصل مَن أمها.. ولكنهـا لا تزال شابـة ومتفتحة. العينـان هما نفس العينين عند الأم، تطلق شرارا ورصـاصـا، والجسـد يفور بـالفتنـة، والعـود مثل شجرة الموز مكتنز وممشوق، والصـوت يرن كالجرس ويفح كصوت الحيـة. وأصر (الـدكتـور) أن يقـوم ليس بإطعـام العيـال فقط ولكن بتأمين طلباتهم فى الفسحة والترفيه. وفى الصيف استأجر للعيال كلهم وستهم العجوز شـاليها على شـاطىء البحر وحصل (الـدكتور) على أجـازة شهر، وقضـى الفترة كلهـا على رمـال الشاطىء مع العيـال. أو بمعنى أصح مع سعاد البنـت الكبيرة التى بهرت رواد الشاطىء ولأن الـدكتور كـان قـد مضى كل عمره الـذى يقترب الآن من الخمسين فى

الجوع والحرمـــان، فقـــد حـــاول مع البنت، ورش فى محاولتـــه كل ماحصل عليه من رشاوى، وكان لـدى البنت استعداد فطرى، فأبوها مـات قتيــلا، وأمهـا ستقضى العمــر كلـه فى السجن، فهـى يتيمـة ومحرومـة، ولا أمل لها فى تغيير الحال، و(الـدكتـور) فرصـة العمـر للنجـاة من هذا السجن الأبـدى الـذى فرضتـه الظروف على سعـاد. ولذلك استسلمت له ببساطة عندما همس فى أذنها بكلمة الزواج .



عندمـا عاد (الدكتور) من أجـازته الطويلـة إلى عمله فى مستشفى سجن القنـاطـر، اكتشف أن ميشيـل عـاد إلى عملـه واحتل الغـرفـة الرئيسية تاركا للدكتور الغرفة الصغيرة تحت سلم المستشفى، والتى تشبـه غرفـة بواب. ووجـد عند ميشيل إصرارا على مبـاشرة العمل فى المستشفى والـــوقـوف على كـل التفـاصيل. حتـى عنـدمـــا حضرت المسجـونة للفحص، أصر على الاشتراك فى عمليـة فحصهـا، ثم ضرب ضربته الكبيرة عندما كتب على التـذكرة الطبية (المريضة لا تحتاج إلى علاج) لم تهتز المرأة المدربة، فقد كانت تعلم أن عشيقها (الدكتور) لن يستسلم لتأشيرة ميشيل، ولكنها انتظرت طـويلا قبل أن تكتشف أنه لم يفعل شيئا لتعديل الأمر. لم تفطـن إلى أنه أعجز من أن يفعل شيئا. ولكنهـا تصورت أنـه شريك فى المؤامـرة، وأنه شرب من عشقهـا حتى ارتوى ولم يعد فى حـاجة إلى مزيد. وتـأكدتِ هذه الفكرة لـديها عندما جاءتها الأم فى زيارة وأخبرتها بما جرى بين (الـدكتور) والبنت سعاد، وأن ثمرة العلاقة بـدأت تظهر على بطن البنت التى انتفخت واستدارت وصارت ملفتـة للنظر. أكلها الغيظ واستبـد بها الإصرار على الانتقام، ومن يكون هـذا (الدكتور) الذى لا يســاوى قرشا فى سوق الـرجال؟ ولـولا السجن الطويل والحرمـان الشـديد مـا قبلت أن تمد لـه يدهـا لتصـــافح يده. وهـى تستطيع أن تنتقم إلى حـد قتله والشرب من دمـه.

ومن يكون هذا (الـدكتور) إلى جانب زوجها الذى كان وحشـا فى غابة الرجال؟ لقد ذبحته بدم بـارد وبأعصاب أكثر برودا. ووضعت قدمها على رقبته وهو يشخر ويحفر الأرض بقدميه كالثور السودانى عندما تفصل السكين رأسه عن جسده!

ستقتل (الدكتـور) ولن يغير قتله من وضعهـا فى السجن. ستكون قضية جديـدة وحكما آخر لن يزيد عن عشرة أعـوام تضاف إلى أعوام التأبيـدة، ولو طـال عمرهـا فستخـرج من السجن بعد ربع قـرن من اليـوم الأول من سجنهـا! لأنـــه فى قـوانين السجـون، لايجوز سجن انسان أكثر من هذه المدة مهما كـانت الجرائم التى ارتكبها!! وتقدمت السجينة بالتماس تطلب تـوقيع الكشف الطبى عليها لأنها تشعر بأن رأسها تكـاد تنفجر. ورفض الالتماس. والذى جعلها تتمـزق غيظا أن الرفـض هذه المرة من جـانب (الدكتـور) فى هذه اللحظة تـأكد لها أن (الـدكتور) كـان يلعب بها وبالبنـت سعاد. لم تعـرف المسجونـة أن (الدكتور) رفض الكشف عليها بسبـب محاصرة ميشيل له وإحراجه بكـلام كالسم. كما أن رفضــه الـذى لم يكن مخططا لـه تسبب لها فى توقيـع عقوبة الحبـس الانفرادى عليهـا، لأنها اعتبرت فى عرف الإدارة متمارضـة، وهـى تهمة رهيبـة فى السجن، مع أنها لا تقـوم بأى أعمال خلف الأسـوار. واتحد الغيظ مع الخوف فى قلب المسجونـة، فأسرعت بشكـوى للإدارة تتهم فيهـا (الدكتـور) بتهم مختلفة، مـراودتها عن نفسها، أثناء ترددها على العيـادة وتغريره ببنتها القاصر حتى حملت سفاحـا منه. لم تهتز الإدارة أمـام شكوى السجينة، فهى مـدربة على مثل هذه الأمـور، وما أكثـر شكاوى النـزلاء التى ثبت بالتجـربة أنها غالبـا كاذبـة. ولكن السجينة لم تسكت، أرسلت شكـوى إلى مصلحة السجـون عن غير طريق السجن. وجـاء مفتش لبحث الأمـر، وفى مثل هذه الحالات ينتهى الأمر بنقل السجينة إلى سجن آخر، أو نقل الطبيب

ولكن الذى حدث كان أغرب من الخيـال. عندما جلس (الدكتور) أمام هيئة التحقيـق، انهار بشكل كامل. نفى عـلاقته بـالمسجونـة وابنتها صحيح أنه زار بيت أمها فى بنـى سويف، ولكن تحت إلحاح السجينة، ولكى يقوم بتوصيل رسالـة إلى أولادها، ولكنه لم يمس شعرة فى رأس البنت، ولم يـراود السجينة عن نفسهـا، ولكنه فى نفس الـوقت اعترف بأنـه ليس دكتـورا ولا يحمل سـوى شهادة متـوسطـة، وأنـه التحق بالعمـل نتيجة أوراق مزورة. تم القبـض على (الدكتور) وحـل ضيفا على سجن الاستئناف، وفى المحكمـة استمع إلى الحكم ضده بـالسجن لمدة عشر سنوات، وبعد الحكم تم ترحيلـه إلى سجن القناطر. يالها من حفلة صاخبة استقبل بها المساجين (الدكتـور) وياله من منظر عندما جاء دور الدكتـور ميشيل للكشف على النزيل الجديد، قفـا (الدكتور) صافـح جميع أصابع العسـاكر والضبـاط والنزلاء، وصـار ملطشة للكل. وصار اسمه (الدكتور) عنـد الإدارة وبين النزلاء! وعندما التقيت به أول مرة كـان قد مضـى على سجنه عدة سنوات. كـان قد تعود على الذل والإهـانة وتلقى الضرب من الجميع. وعندما سـألتـه عن شعوره وهو مسجون فى ذات السجن الذى شهـد أيام مجده السابقة. ازدادت دهشتي عندما اكتشفـت أنه ليس نادما وليس حزينـا فى نفس الوقت، فكل شىء قسمـة ونصيب، وما هـو مكتوب على الجبين لازم تشـوفه العين! ولكن الذى يغيظـه فعلا أنه يفهم فى الطب أضعاف أضعـاف ما يعرفه الدكتور ميشيل عن هذه المهنة.

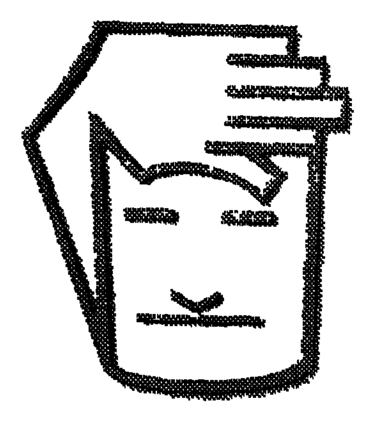
طيب اسـأل المساجين يا بيـه أنا أحسن واللا ميشيل غيرش ان دى بلد طبيخ.. صحيح بلد شهادات على رأى عادل إمام.

وسكت عدة لحظات ثم قال :

وانت فـاكر إيه ؟ أى حـد من المساجين دول حتى النشـالين ينفع دكتور فى السجن، هو الدكتـور بيعمل إيه؟ دا بيقعد على مكتبه الصبح

ويفتح الـدرج وهـو بيكشف ع المساجين، والمعلـوم يتحط فى الـدرج. الاجازة بثمن ، والزنزانة الانفرادى بثمن ، والتحويل على المستشفيات الحكـوميـة بثمن، واللى مـامعهـوش نهار أبـوه أزرق، هيـاكل ضرب مـاكلوش حـرامى فى مـولد. على الأقـل أنا كنت بـاكشف وأصرف دوا وأرحم الغلبان واهبر من بتوع الحشيش. ثـم ميشيل بقى ما يرحمش أمه، دا بقى عنده عزبة فى أسيوط من دم المساجين. طيب إيه رأيك بقى أنا طلبت اشتغل نوبتشى فى المستشفى، يعنى خـدام للدكتور ميشيل، ورفضوا ووضعـونى فى المجارى ليه؟ علشـان المعلم قطقط طلب كده من ميشيل. بينتقم منى، علشـان أنـا هريـت بدنـه فى الفترة الأخيرة، ماهـو شارى السجن كله يـابيه.. إدارة وحراسة ومسـاجين. تصدق باللـه ياسعـادة البيه، دى بلـد المعلم قطقط لكن تقول إيـه.. ربك مع المنكسرين !

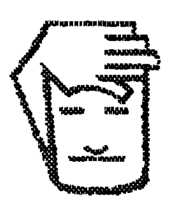
ولكن .. بـالرغم من كل شىء بـالرغم من شماتـة النزلاء وانتقـام الحراس، وضيعـة الـدكتـور وراء الأسـوار، إلا أن الجميع كـانـوا فى لحظات صفوهم يتحسرون على أيـام الدكتور، الذى كـان مع الغلابة والمنكسرين، وخنجر مسموم مع تجار الحشيش !



[illegible]

٣ المعلم جمل

●● لفتت نظرى فى البداية الضجة الهائلة التى سبقت وصوله إلى سجن القناطر.. وهى الضجة التى تسبق وصول أو خروج أحد نجوم مجتمع السجون ولكن الضجة هذه المرة كان مبالغ فيها إلى حد كبير استمرت الاحتفالات بقرب وصول الضيف الجديد أسبوعا كاملا فى المساء وبعد التمام وانصراف الادارة : يأخذ المساجين فى تحية الضيف القادم ، وخلع صفات الشهامة والكرم والجدعنة عليه . أسبوع كامل من الاحتفالات اشتركت فيها جميع الزنازين بدون استثناء . ماعدا زنازين السياسيين والموظفين الكبار المتهمين بالرشوة والاختلاس وفى الأحوال العادية يكون الاحتفال فى الليلة السابقة لوصول الضيف ، وغالبا يشترك فيه عدد من الزنازين لايزيد على أصابع اليد الواحدة ولم تكن الأوصاف التى خلعوها عليه هى نفسها الأوصاف المستعملة فى مثل هذه المناسبات ، ولكن النزلاء اخترعوا للضيف الجديد أوصافا جديدة . البرنس والملك وأبو كف نين وحديد :: أبو وش أبيض زى الفل الحبيب والبطل الهمام اللى اخذيب بلى وشوية بيت ، المعلم حسن الهوارى اللى هيشرف السجن وبنوره وشوش الحبايب ●●





● المعـــلم جمـــل ●

لم تكن هى المرة الأولى التى يتردد فيها على مسامعى اسم المعلم الجمل .. فقد سمعت عنه كثيرا أثناء المعركة الانتخابيـة التى دارت عـام ١٩٦٨ بعد هـزيمة يـونيو الشهيرة وكان أحد الأصدقاء قد رشح نفسه فى الدائرة ، وكان دائم الحديث عن المعلم جمل الهوارى الذى يمتلك ويتحكم فى نصف أصـوات الـدائرة على الأقل. وزادت دهشتى عنـدمـا سمعت من صـديقى المرشح ان المعلم جمل هو أكبر تـاجر حشيش فى مصر ، ولكـن ما عـلاقة الحشيش بالانتخابـات خصوصا والسياسـة عموما ؟.. واكتشفت فى ذلك الحين أنها علاقـة وثيقة وحميمة أيضا . فهؤلاء الـذين يعملون فى أنشطـة غير مشروعـة ، ويـربحـون الملايين فى صفقـة واحـدة ، يستخـدمـون جـزءا لا بأس بـه من أربـاحهـم فى شراء حب النـاس واحترامهم . وغالبا ما يكون هـذا الحب من النوع الافلاطونى ، ولكنه حب عملى للغايـة ، وصفقة تجارية أيضا من نـوع اللى يراعينى قيراط أراعيه قيراطين ! كان المعلم الجمل من النوع الذى لاتعرف يساره ماذا أعطت يمينه . كان سخيا وبارا وكـريما مع رعاياه ، بنفس القدر الذى يكون فيه قـاسيا ومدمرا ورهيبـا مع الذين يقفون فى طريقـه . ولذلك كان من الصعب إلقاء القبض عليه فى منـزله أو فى القهوة التى اتخذها محلا مختـارا له فى الحى الـذى يسكن فيه أو فى مخزن التجـارة التى اتخذها سـتـارا لأعماله الواسعة فى عـالم المخدرات . كان يديـر مخزنا للفراشـة ، سرادقات للمآتم وللأفراح ، وكـان يبذلها با لمجان للأصدقاء

والأتباع ولأصحاب النفوذ أيضا .

ومع أنه كان يدفع ضرائب سنوية عن هذه التجارة بالذات لا تقل عن مائة ألف جنيه ، ولكى تكون هى سنده إذا سألوه يوما ما.. من أين لك هذا ؟ أما نسبة الخمسين فى المائة التى يسيطر عليها فى الدائرة الانتخابية فكان يستخدمها بذكاء وحذر . ولكن قبل أن يصبح المرشح نائبا عليه أن يفهم تماما أن المعلم جمل هو الذى شده إلى المجلس وعلى النائب الموقر أن يطبق الحكمة الشعبية الخالدة : من شدك تشده ولو بعد حين !! وبالطبع النائب الذى جاء إلى المجلس على أكتاف المعلم جمل ، لابد أن يرد الجميل ويقف مع المعلم جمل حتى النهاية . وبالرغم من كل ما سمعته عن المعلم جمل إلا أننى لم أتشرف برؤيته أو مصافحته أو الجلوس معه فقد كنت أتردد على المرشح صديقى فى مكان عمله بعيدا عن الدائرة ومشاكل المعركة الانتخابية ! ولذلك كنت شديد الشوق لرؤيته وهو قادم إلى سجن القناطر ، خصوصا وهو سينزل فى نفس الدور الذى أنزل فيه وفى الزنزانة المواجهة لزنزانتى .

ومع أن دور «٢» هو دور السياسيين كما يطلقون عليه ، إلا أننى اكتشفت أنها مجرد تسمية ولاتعنى شيئا . فقد كنا ١٧ سجينا سياسيا فى دور يضم ٦٠ زنزانة . وبالطبع نزل غير السياسيين فى الزنازين الأخرى ، غير أن النزول فيها كان يخضع لشروط فلابد أن يكون النزيل فيها من أصحاب الحظوة أو أصحاب النفوذ أو أصحاب الفلوس . كان هناك مدير بنك مختلس، ورئيس شركة نسيج كبرى هبر عدة مئات من الألوف وتاجر مخدرات معروف ، وتلميذ ابن ناس هارب من الجيش ومحكوم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، وصاحب مصنع ملابس متهم بإحداث عاهة مستديمة لإحدى العاملات فى مصنعه وصديق فى الوقت نفسه للبيه مدير السجون . وخلال أسبوع

كامل كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق لاستقبال المعلم جمل . الزنـزانة أصبحت تحفة ، الطلاء على الجدران بـالزيـت ، والأرضية فرشت بالقنالتكس والستائر وضعت على النـافذة الوحيدة ، والسرير جـاء من المستشفى والفـرش جـاء من بيـت المعلم ، وعنـدمـا سألت الضابط الدسوقى عن سر هذا الاهتمام الكبير قال على الفور :

- من حق المعلـم جمل ، أصل دا مش مسجـون دا معتقل ، يعنى أكل ملكى ولبس ملكى وكل شىء ملكى فى ملكى !

المعلم جمل لم يكن مسجـونـا ولكنه كـان مجرد معتقل ، احتـارت الحكومة فى أمره فاعتقلته لكى تتقى شره ، خصوصا والبلد كلها كانت تحشد قواها لمعركة العبور .

المهم .. جاءت اللحظـة الحاسمة واستعـد الجميع لاستقبال المعلم جمل ، حشد المأمور عددا من العساكر بكـامل ملابسهم الرسمية عند باب مكتبه ليظهـر العين الحمرة للمعلم جمل ، ومنعت الإدارة التجمهر فى الحوش ، حتى تترك الانطباع عنـد المعلم جمل بأن الأمور فى السـجن منضبطة وليست سبهللة . وأخيرا جاء المعلم جمل يـرتدى بدلة موهير وقميص حرير سلكـا ٥٥٠٠ وبالطو مطر بيربرى وحـذاء ساكسون ومعه ٤ حقائب تحتوى على أدوية وأطعمـة وسجائر مستوردة . وبعد أن تم تفتيشه فى حجرة المأمور ، وتجريـده من ساعته وخاتمه الماس ، اصطحبه وكيل السجن بنفسـه إلى الزنزانة رقم ٢٠ فى الـدور الثانى . وعندمـا دخل الوكيل ومعـه المعلم جمل صاح الشـاويش الحلوانى فى صوت كالـرعد .. انتباه .. وساد الصمت العنبر كله ، وعنـدما صعدت المجموعـة سلالم السجن الحديدية ؛ حـدثت جلبة شديدة وضـوضاء ليس لها مثيل ، ثم تـرامى إلى أسماعنا صـدى صفعات وركـلات ، ثم هدأت الضجة واكتشفنا أن الموكب غـاد مرة أخرى إلى مكتب المأمور . ياللهـول على رأى يوسف وهبى ، مـا الذى حـدث للمعلم جمل ؟.. وما

الذى أعاده من جديد إلى مكتب المأمور ؟

ويافرحة مـاتمت ، لم يقع بصرى على المعلم جمل يوم وصوله ، ولا بعد ذلك ولمدة ١٥ يوما بالتحديد . وأصل الحكاية أن نزيلا من دور ٤، دور الصياع والمتسـولين ، هجم على المعلم جمل أثناء صعـوده السلم ومعه نصلة حادة وحاول أن يغـرزها فى بطنه ، إلا أن الحراس أمسكوا به وطـرحوه أرضا وجـردوه من النصلة واقتـادوه إلى مكتب المأمور .

وقال الولد أمام المأمور ان المعلم جمل كان السبب فى حبسه فى زنازين التأديب عندمـا كان يزامله فى سجن الاستئناف بعد أن اتهمـه بسرقة بعض حاجيـاته من الزنزانة، وأنـه لذلك كان يريـد الانتقام من المعلم جمل . وبناء عليه طلب المعلم جمل من المأمور نقله من سـجن القناطر إلى سجن الاستئنـاف لأن وجوده فى القنـاطر يعـرضه للمـوت على يد بعض الحاقدين ولكن المأمور طمأنه وتعهـد له بأنه سيكون فى الحفظ والصون . وأمـر بإبعاده عـن العنبر ووضعه فى زنـزانة من زنـزانات التأديب مع تـزويدهـا بكل مـا يحتاجـه ، على أن يطبق عليها النظـام العـادى ، فتفتح أبوابها طـول النهار ، ويسمح لـه بطابـور شمس فى الصبـاح وطابـور آخر بعـد الظهر ، وبـالتعامل مع الكـانتين وكتابـة الرسـائل ، ويسمح له بالزيـارات ومقابلة محاميـه فى أى وقت يشـاء .

وبعـد عشرة أيام من نـزول المعلم جمل فى زنـزانة التأديب ، جـاء إلى السجن مفتش من المصلحـة ، ومعـه اتهام صريح من محامى المعلم جمل ، بأن المأمـور يضطهده والـدليل هـو وضعـه فى زنزانـة تأديب دون أن يكون قـد ارتكب عمـلا يستحق عليه هـذا العقاب الشـديد !! المسألة كلها كانت تمثيلية ومقلب دبره المعلم جمل للمأمور . ولم يكن الهدف إلحاق أى أذى بالمأمور ، ولكن الهدف الحقيقى كان العودة إلى سجن الاستئناف ، حيث به سبع فـوائد . أولا وجوده فى قلب العاصمة وثانيـا لأنه سجن مفتوح يتيح لمن كـان فى وضع المعلم جمل الاتصال

بمن يشاء وقت أن يشاء ، والأهم من ذلك أن المعلم جمل استطاع خلال فترة وجوده فى سجن الاستئناف عدة شهور متواصلة تأسيس تنظيم من المسجونين يتبعه وينفذ أوامره ويدبر له الاتصال اليومى بأعوانه خارج السجن ، كما استطاع أن يرتب زيارات لنفسه بأسماء مساجين آخرين ، وأن يضع فى الأمانات مبالغ بأسماء مساجين ليس لهم أهل خارج الأسوار ، واستطاع بهذه المبالغ شراء السجن كله وإدارته كما يشتهى وليس كما يشتهى المأمور ولكن هدف المعلم جمل من الشكوى لم يتحقق . ولكنهم فقط نقلوه من زنزانة التأديب إلى الزنزانة رقم ٢٠ فى الدور المخصص للسياسيين .

وأخيرا أتيح للعبد لله رؤية المعلم جمل .. عندما فتح الشاويش عبدالقادر زنزانتى وقع بصرى على رجل فى الخمسين من عمره يجلس على كرسى أمام الزنزانة رقم ٢٠ . كان يبدو أصغر من سنه الحقيقى متوسط الطول متين البنيان يرتدى جلابية سكروتة حرير وينتعل «شبشب» سويسرى غالى الثمن ، وبين أصابعه جريدة «الأهرام» وعلى طاولة صغيرة أمامه فنجان قهوة تفوح رائحتها من بعيد . وكان يضع ساقا على ساق ويهز ساقه المرفوعة فى حركة رتيبة ، بينما تطل علبة سجائر مستوردة من جيبه العلوى ونظارة شمس إيطالى الصنع من أحدث إنتاج .

عندما ألقيت عليه تحية الصباح ، رد التحية بأحسن منها ، ثم نهض واقفا ومد يده لمصافحتى ، فخطوت عدة خطوات حتى اقتربت من حيث يجلس ، وصافحنى بحرارة ، وعزم على العبد لله بفنجان قهوة محوج :

– أنا أصلى أحب القهوة بس بشرط تكون من بيتنا ، قهوة السوق ماتعجبنيش .

واعتذرت له لأننى لم أتناول إفطارى بعد . فقال على الفور .

- خلاص .. افطر وتعال اشرب القهوة .

تناولت إفطارى وتلكأت بعض الوقت ، وفوجئت با المعلم جمل على باب زنزانتى ، ونظراته تمسح الزنزانة وتتفحصها ، وقال فى لهجة ساخرة :

- هيه دى زنزانتك ؟.. مش عيب تبقى كده ؟!

- داكده رضا يا معلم .

صمت قليلا ثم قال :

- ناس ماعندهاش دم ، هو انتو حرامية أو نصابين ، دانتو من غير مؤاخذة سياسيين ، يعنى كنتم حكام فى يوم من الأيام ، ومين عارف .. على العموم الدنيا مابتدومش لحد !

خرجت معه من زنزانتى فاكتشفت أنه أعد مقعدا آخر إلى جواره وعندما ألقيت نظرة على زنزانته من الداخل ، أدركت سر احتقاره لزنزانتى ، كانت أشبه بحجرة فى فندق ثلاث نجوم ، لا ينقصها إلا جهاز تكييف وجهاز تليفزيون لتصبح فى مقام الخمسة نجوم . ووجدت فى الداخل سجينين عرفت من المعلم جمل أن أحدهما طباخ يعمل فى مطعم شهير قبل سجنه ، وأن تهمته هى الاتجار بالعملة الصعبة فى السوق السوداء . أما الآخر فهو بلطجى ومحكوم عليه با المؤبد ، وتهمته القتل المقترن بالسرقة، ونادى المعلم جمل على الأخير وأمره بإعداد فنجان قهوة للأستاذ من البن «بتاعى» ثم التفت نحوى وقال :

- على فكرة أنا عارفك كويس ، وكنت باقرأ لك مقالاتك «ونطق القاف كافا» وعلى فكرة أنت ساعات بتتكلم فى الصميم وساعات لأ..

قلت للمعلم جمل :

- حسب الظروف يا معلم !

- مفيش حاجة اسمها ظروف ، لو عاوز تكتب فى الصميم على

طول يبقى لازم تسمع منى .. أنا مستعد أديك الخلاصة كلها وأنت تكتب ، صدقنى أنا كان بيجيلى ناس من الفطاحل تقعد عندى نسمعها كلمتين وتقوم من عندى وتدى .. وبقوا كبار قوى ومهمين قوى والفضل لمحسوبك .

ولما بدا على العبد لله عدم الاهتمام وربما عدم التصديق ، قال معلقا:

– مش مصدقنى .. طب تعرف الأستاذ محمد السنارى ؟

ولما أبديت له أسفى بعدم تشرفى بمعرفته ، قال :

– ازاى ؟.. دا كان محرر كبير قوى فى مجلة الاسبوع ، وكان بيحط صورته مع «المكال» .. وعلى فكرة .. كان معاه شنطة جلد كلها مقالات وكان بيكلم عبد الحليم حافظ وشادية والحكمدار من تليفون المكتب بتاعى .

– كان أكبر منى فى السن واللا أصغر ؟

– أبدا .. كان من دورك كده ، بس واد ابن حنت ، كان مايهابش حد كان يخش القسم من دول يهز المأمور واللى خلقك. وتعرف مين اللى كان بيجى كمان يأخذ الخلاصة منى ؟ الأستاذ المناويشى .. كان ماسك الاعلانات كلها فى مجلة النهار ، ولا فيش إعلان ينزل بدون أمره ، كان صحفى جامد قوى ، وياما نشر لى إعلانات فى المجلة . فى أعياد الثورة بالذات ، ياما دفعت فلوس فى الإعلانات .. وآدى أخرتها زى ماانت شايف ..

كانت فناجين القهوة «من البن بتاعه» قد أعدت وجاء بها النوبتشى فى فناجين أنيقة للغاية ، وشفط المعلم جمل شفطة طويلة بصوت مسموع ، ثم لكزنى وقال :

– اشرب ، أنا أصلى أحب اللى يحب القهوة ، أنا اشرب عشرين فنجان من القهوة دى ، وفى السجن أشرب أكثر !

وعندما أبديت استحساني بالبن قال وهو يغمز بعينه :

– أما يكون مزاجك رايق ابقى تعالى اشرب معايا قهوة وتشرب لك كمان نفسين حلوين ، معايا تعميرة مش موجودة فى مصر كلها .. نفسين اتنين منها أبرك من ميت نفس من غيرها .

وعندما أبديت له عدم تدخيني للحشيش ، قال باستهزاء :

– أنا مابحبش اللغة دى بقى من غير مؤاخذة .. كلهم بيقولوا كده وبعدين بيشربوا زى الحريقة .. وهوه الحشيش عيب ياأستاذ .. كل الوزراء بيحششوا من غير مؤاخذة ، والنائب بتاع الدايرة كان يشد النفس يحرق الحجر من غير مؤاخذة .. وسعيد بك جنيدى اللى هو فى الإدارة العامة بتاع الاتحاد الاشتراكى حشاش أرارى من غير مؤاخذة.. عارفه واللا لأ ؟

وعندما أبديت له أسفى لعدم معرفته ، قال :

– انت خايف من غير مؤاخذة ؟.. خد بقى الخلاصة منى أنا ، عاوز تمنع الحشيش من مصر ، خلى الجماعة الكبار دول يبطلوه.. ايه رأيك فى الخلاصة دى ؟

مرت أيام طويلة بعد ذلك والعلاقة بيننا تدور فى حدود معينة، حتى كان يوم أصابنى التهاب فى الشعب ، وكان لابد من مضاد حيوى قوى لوقف الالتهاب قبل أن يتحول إلى التهاب فى الرئة . ولما كانت صيدلية السجن.. يامولايا كما خلقتنى ، سلفا وراوند وصبغة يود وحقن بنسلين تكفى حقنة واحدة منها للقضاء على المريض .. كان لابد من شراء الدواء من خارج السجن ، والدواء يحتاج إلى فلوس ، والفلوس محرمة على نزيل السجو . لابد من الاتصال بالبيت لشراء الدواء ، والاتصال ممنوع . ولكن المعلم جمل اقتحم زنزانتى وطلب الروشتة ، وبعد ساعات كان الدواء المطلوب فى يدى .. كيف جاء الدواء ؟ من الذى جاء به ؟.. لم أعرف حتى خرجت من السجن .. المهم

دعاني المعلم جمل إلى زنزانته لكي أنسى همومي وأتذوق صنفا جديدا من التعميرة ليس له مثيل فى بر مصر ، وألح المعلم جمل فقبلت دعوته تحت ضغط إلحاحه ، واكتشفت وجود اثنين من النزلاء فى الزنزانة ، عزمى بيه موظف كبير بالحكومة ، تهمته تقاضى الرشوة من خريجى الجامعة الراغبين فى التوظف فى دواوين الحكومة ، والمعلم طلبة تاجر حشيش من نجوم حى الباطنية يقضى فى السجن خمس سنوات . كانت النار مشتعلة فى الفحم على موقد أمامهم ، والجوزة يخرج منها عامود دخان ، وعلى مقربة منهم صحن كبير يضم كل الأنواع من فاكهة الموسم . وكان يقوم على خدمة الجميع اللص القاتل الذى كان يتولى حماية المعلم جمل ويحتفظ له بكل الممنوعات . وكان المعلم جمل كلما سحب نفسا من التعميرة الجديدة راح يثنى عليها ويعدد مزاياها وقال تأكيدا على جودة صنفها :

– تصدق يا أستاذ .. الكمية المضبوطة كلها من الصنف ده .. الحكومة باعتها لفرنسا .. أمال .. دا بنج مش حشيش .. فجأة والجوزة تدور والدخان ينعقد فى حلقات فوق رؤوسنا ، والبعض منا يضحك ، والبعض يشرشر ، اقتحم الزنزانة المواربة الصول طه . وتصورت أن هناك كبسة ، وأسفت على قبولى الدعوة ، وجمد الدم فى عروقى على المصير السيىء الذى سأنتهى إليه ، دخلت السجن فى قضية سياسية ، وها أنا ذا فى طريقى إلى دخول السجن من جديد فى قضية مخدرات . ولكن ما أشد دهشة العبد لله عندما نظر المعلم جمل إلى الصول طه نظرة زاجرة ونهر الصول طه بشدة وقال له فى صوت غاضب :

– ازاى تسمح لنفسك تخش علينا بالشكل ده ؟

فرد الصول فى تخاذل ٠

– مساء التماسى يا معلم ..

– مساء الزفت ..

– أنا كنت عاوز أدوق الصنف بس ..

– عيب الطفاسة دى .. والدناوة بتاعتك لازم تبطلها .. انت خدت حقك خلاص .. وبقولك ايه .. بلاش الرزالة بتاعتك دى .. أنا بقولك أهه .. وانت عارفنى كويس أنا لحمى مر وما أحبش العيب..

ياسلام .. المعلم جمل هو الآخر لا يحب العيب ، انه على درب السادات لا يحب العيب ، وبالتأكيد هو الآخر متمسك بأخلاق القرية . والعيب فقط فى دخول الصول طه الزنزانة ونحن نشفط أنفاسا معطرة ، أما وجود الحشيش والأصدقاء فى الزنزانة فهو أمر لا يمت للعيب بسبب . بعد انصراف الصول طه لم أجد فى نفسى القدرة على الاستمرار فى القعدة ، فاستأذنت وتركتهم . وحاولت بشتى الطرق فك الاشتباك بينى وبين المعلم جمل ، فقد أدركت أن الاقتراب منه خطر ، والابتعاد عنه خطر أيضا . ولذلك حرصت على الاحتفاظ بينى وبينه بشعرة معاوية . كنت أجلس على مقعد أمام زنزانتى وكان يجلس أمامى على مقعده أمام زنزانته ، وكنت أستخدم حيلا كثيرة لكى أبقى فى مكانى . وكان إذا لمح مظاهر قلق على العبد لله قال لى محاولا تهدئتى :

– انت مش عاجبنى اليومين دول .. وبعدين عاوز أقولك حاجة .. انت مايهمكش وارمى حمولك على جناب الله .. وانت هاتخرج من السجن قريب .. الحكومة الموجودة دى هايفة قوى ومش هاتعمر .. وأنا وانت أهه .. وبكره تقول الجمل قال ..

– مش قلتلك .. علشان تعرف ان أنا عندى معلومات .. أنا مش تاجر مخدرات زى مابيقولوا .. دى «فريم» من غير مؤاخذة.. أنا راجل صاحب أملاك .. من الأعيان .. وبينى وبين الحكومة دى ضغائن .. وبكرة تشوف مين اللى هايكسب فى الآخر ..

كان المعلم جمل يقصد فرية ، ولكنه نطقها «فريم» ولم يلاحظ المعلم جمل خلال محاولاته التى استمرت طويلا لاستخدام الفصحى فى حديثه ان المستمعين من المتعلمين يتغامزون ويضحكون ، فقد كان حرصه على نطق الفصحى أقوى من كل شىء .. ذات صباح قال للعبد

لله ونحن جلوس فى مواجهة بعضنا:

- الحاكم العسكرى يا سيدى رفض طلبى للإفراج عنى .. ولما قلت له معلهش بكرة ربنا يفك سجنك ، رد على العبد لله :

- ومين قالك إن أنا زعلان .. دى معركة كبيرة يا أستاذ بينى وبين الحاكم العسكرى .. وبكره تشوف أنا واللا هو .. أنا ياأستاذ قاسيت مقاسى ..

ولما لاح شبح ابتسامة على شفتى العبد لله ، قال المعلم جمل :

- انت بتضحك من غير مؤاخذة مش مصدقنى .. انت حاربت الحكومة من غير مؤاخذة مرة واللا اتنين واللا ثلاثة .. بتحارب شوية وترتاح شوية .. لكن أنا من غير مؤاخذة بحارب على طول .. ولو ماكنتش متأكد ان أنا اللى هاغلب فى الآخر .. كنت بطلت حرب وارتحت.. وإن شاء واحد أحد أنا خارج الأسبوع ده من هنا على البيت .. مش الحاكم العسكرى رفض .. أنا هاوريك بقى هاعمل ايه.. وبكره تشوف ..

كان المعلم جمل يحارب على جبهتين .. لم يكن السجن مشكلة بالنسبة له ، كان الجميع يخدمونه بلا استثناء ، الإدارة والمساجين والحراس ، ولكن كان هدفه الأساسى الخروج من السجن إلى عالم الحرية ، أو على الأقل نقله من سجن القناطر إلى سجن الاستئناف ، وذات صباح وجدت الدكتور إميل يقتحم علىّ زنزانتى ويقول للعبد لله أن يحل المشكلة التى نشأت بينه وبين المعلم جمل .

كانت المشكلة ببساطة أن المعلم جمل طلب من الدكتور إميل كتابة روشتة ليصرفها من الاجزاخانة بأدوية لعلاج الذبحة الصدرية والتهاب أغشية المخ ولم يفكر الدكتور إميل طويلا ، كتب الروشتة وتقاضى عشرة جنيهات رشوة من المعلم جمل ، وبعد يومين من كتابة الروشتة ، وصل خطاب من مصلحة السجون يطلب توقيع الكشف الطبى على المعتقل المعلم جمل لتقرير حالته الصحية وعما إذا كان مصابا بذبحة صدرية والتهاب فى غشاء المخ من عدمه ، وأسقط فى يد

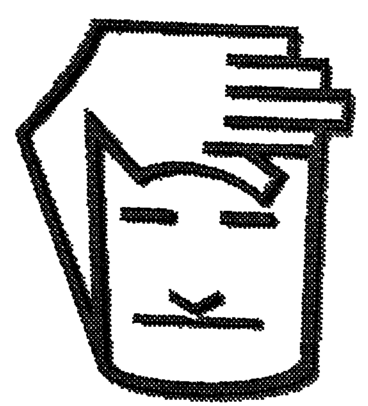
الدكتور إميل ، وأدرك أنه كان ضحية مقلب من مقالب المعلم جمل ، فهو إذا رفض كتابة هذا التقرير وإثبات مرضه بهذه الأمراض ، قدم المعلم جمل روشتة الدكتور إلى مصلحة السجون ، وسيتهم الدكتور بأنه تقاضى رشوة لكتابة الروشتة ، وإذا أثبت هذه الأمراض فى تقرير طبى رسمى للمصلحة ، يكون قد خسر صفقة ثمنها ألف جنيه على الأقل وليست عشرة جنيهات ، وهو المبلغ الذى دفعه جمل مقابل الروشتة إياها ، ورجانى بذلة أن أتوسط له عند المعلم جمل لكى يرد له الروشتة ، أو يدفع له خمسمائة جنيه على الأقل لكتابة التقرير المطلوب وعندما فاتحت المعلم جمل فى الأمر ، قال بهدوء شديد :

— هايكتب التقرير وهاضربه بالجزمة .

وبالرغم من أن الدكتور هبط بالمبلغ المطلوب إلى مائتى جنيه ثم إلى مائة جنيه ، إلا أن المعلم جمل أصر على موقفه ، ثم وافق فى النهاية على أن يمنحه عشرة جنيهات أخرى ، وأعجب شىء أن الدكتور وافق على عرض المعلم جمل فى النهاية وكتب التقرير وقبض العشرة جنيهات ، وبعد أسبوع صعد ضابط العنبر إلى دور «٢» وطلب من المعلم جمل أن يجمع حاجياته ، فقد صدر قرار بالإفراج الصحى عنه لخطورة حالته الصحية ، ورمقنى المعلم جمل بنظرة ذات مغزى ، وأخذ معه بعض حاجياته ووزع ماتبقى منها على المساجين ، وعندما جاء لتوديعى ، همس فى أذنى :

— ماتفتكرش التقرير بتاع الدكتور هو اللى طلعنى .. أنا دفعت فلوس تملأ الزنزانة دى .. بس التقرير ده كان ضرورى علشان ربك بيسبب الأسباب .. وقال وهو يهم بنزول السلم :

— اللى قلتلك عليه هو اللى هايحصل ... أنت هاتخرج قبل معادك .. الحكومة دى هايفة ومش هاتعمر وبكرة تشوف !!

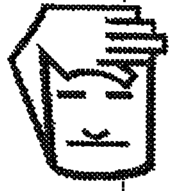


تسلم يا غنام

٤

سر وفاة الحلوانى

●● هو فى الأصل فلاح اشتغل فترة فى الأرض بقريته على شاطىء الرياح المنوفى قبل أن يستدعوه إلى الخدمة العسكرية، وبالرغم من إصابته بعرج خفيف فى قدمه اليسرى، إلا أنهم جندوه، فقد كانت الحرب العالمية على أشدها، والمعارك مشتعلة فى صحراء مصر الغربية وأخذوه فى الجيش المرابط وأصبح حارسا لمخبأ بالقرب من محطة السكة الحديد بالجيزة. وارتدى حسن الحلوانى زى الجيش المرابط فصار أشبه بمهرج فى سيرك الحلو، طاقية واسعة وبنطلون قصير وقميص نص كم وصندل مفدوغ ومفشوخ ورباطه مفكوك وجورب يظهر من ساقه أكثر مما يخفى. ولكن الحياة فى الجيزة تختلف تمام الاختلاف عن الحياة فى قريته (الخضرة) على مرمى حجر من القناطر الخيرية. كان الحلوانى - بالرغم من فقره وهزاله - ذكيا ولماحا، وسرعان ما عقد أواصر الصداقة بينه وبين عبده المكوجى والمعلم صابر صاحب مطعم الفول والحاج حسين المخدماتى، كان إشرافه على المخبأ روتينيا.. فلم تكن هناك غارات مدمرة، حتى القلة القليلة التى كانت تلجأ إلى المخبأ لحظة انطلاق صفارة الإنذار، كفت عن الحضور إلى المخبأ بعد أن تبين لهم أن الصفارة تنطلق ويسود الظلام بعض الوقت ثم تنطلق صفارة الأمان دون أن تسقط قنبلة أو تنطلق المدافع ●●







واستغل الحلوانى وقت فراغه الطويل فتعلم فى دكان عبده المكوجى صنعة كى الملابس. وكان يساعد عبده بدون أجر، ولكنه كان ينعم معه بوجبة إفطار شهية.. فول وطعمية وسلطة طحينة، ثم كوب شاى ثقيل وسيجارة.. وفى فترة بعد الظهر كان يتولى إدارة مكتب عم حسين المخدماتى. فيقابل الزبون ويسجل فى الدفتر طلباته. وكان يقرأ ويكتب طشاش، حيث إنه التحق فترة فى صباه بكتاب الشيخ (ازدحمد) واستطاع أن يفك الخط وكان يكتب الكلمات بحروف أشبه بحروف فرعونية. وبعد فترة استطاع الحلوانى أن يوفر لنفسه دخلا لا بأس به، بعد أن جعل من المخبأ فندقا للشيالين الذين كانوا يلقطون رزقهم فى محطة السكة الحديد. ولكن بعد فترة من الوقت لم يعد المخبأ وقفا على إيواء الشيالين، ولكنه تحول إلى مخزن لإخفاء المسروقات من معسكرات الجيش البريطانى. فرد كاوتش وصفايح بنزين وصناديق شاى وزجاجات ويسكى وبطاريات جافة، حتى تحول مخبأ الحلوانى إلى مستودع رئيسى لتجارة السوق السوداء، وكان الحلوانى سعيدا بالقروش القليلة التى يحصل عليها من رجال العصابات، ثم راح يطالب بنصيبه بعد أن أفهمه عبده المكوجى بأن البضاعة التى يضمها المخبأ تقدر بعشرات الألوف من الجنيهات وبالرغم من أنهم رفعوا نصيبه إلا أن الحلوانى لم يقنع بما يحصل عليه، فقرر أن يحصل على حقه (ناشف) باستيلائه على جزء من محتويات المخبأ وبيعه لحسابه

فى السـوق. وزاد وزن الحلـوانى وزال عنه القشف وارتـدى الجلاليب السكروتة والأحذية الكاوتش والطـواقي الحلوة، وعرف طريق السـهر فى القهاوى، واشـترك فى لعب الكـوتشينة على المشـاريب. وشعر حسن الحلوانى بالاستقرار، وأن الحيـاة قد ابتسمت له أخيرا وأنه سيقضى حياته يتقلب فى بلهنية العيش. ولكن آه من الحياة.. طبعها الغدر وأبرز صفـاتها التقلب. اكتشف رجـال العصـابـات أن الحلـوانى حـرامى وغشاش، وأنـه يقتبس من المخـزون نسبة لحسـابه، فضربـوه علقة ومزقـوا له جلبابـه ومنعوه من دخول المخبأ وجن جنـون الحلوانى.. فالمخبأ مخبأ الحكـومة، وهو منـدوب الحكومـة لحراسة المخبأ. ومع ذلك فهو ممنوع من دخوله، بينما مندوب العصابة هو الذى يتحكم فى المخبأ وفى محتويـاته. خسر الحلوانى كل شـىء حتى القـروش القليلة التى كانوا يعطـونها له فى البداية. وفكر الحلوانى فى طـريقة للانتقام. ولكن كيف؟ هو يعمل فى الحكومة.. فلماذا لا يذهب إلى الحكومة؟ وهى بالتأكيد ستنصفه !

وخطف الحلـوانى رجله إلى مركـز الجيزة وأبلغ مخبرا فى المبـاحث ووعـده المخبر خيرا. ولكن العصـابـة علمت بالخبر بعـد يـوم واحـد، وبالتأكيد من المخبر نفسه. وأكل الحلوانى علقة أخرى أشد قسوة من العلقة الأولى. وقبل أن يفكر فى طريقة أخرى للانتقام. جاءت العصابة ذات مساء وأثنـاء وجود الحلوانى فى مكـان بعيد عن المخبأ ونقلت كل البضائع إلى مكـان آخر، عاد المخبأ مجرد لـوكانـدة لبعض الشيالين، وعـاد الفقـر للحلوانى مـرة أخـرى، وعـاد هو نفسـه إلى محل عبـده المكوجى يطفح الدم أغلب النهار فى كى الملابس لكى يحصل على وجبة منـاسبـة. ولكـن الشـىء الـذى تغير بشـدة هـو مـوقف عم حسين المخدمـاتى من الحلوانى. أصبح إذا قـابله لا يلقى عليـه السلام، وإذا شـاهده متجهـا إلى دكانـه أدار له ظهـره. لابد أن عم حسين العجـوز

يخشى بطش العصابة ولذلك قرر قطع علاقته بالحلوانى، هكذا فسر الحلوانى الانقلاب فى موقف عم حسين. وتأكدت شكوكه عندما أغلق عم حسين دكانه وأصبح يختفى عن الأنظار بالأيام والأسابيع ولكن الولد عبده المكوجى الناصح الحويط فسر له الأمر بما جعل الدم يغلى فى عروقه. لقد أجر عم حسين الدكان للعصابة فصار مخزنا لهم بعد اكتشاف خيانة الحلوانى. هل هذا معقول؟! عم حسين العجوز الطيب يحول دكانه إلى مخزن للعصابة لم يصدق الحلوانى فى بادىء الأمر. ولكنه تأكد من الحقيقة عندما رأى كل شىء بعينيه. ذات ليلة والظلام حالك والبرد قارص، شاهد الحلوانى عم حسين يفتح أبواب الدكان، ثم جاءت سيارة نقل وبها بضائع سرعان ما اختفت داخل الدكان. هى نفسها البضاعة التى كان يضيق بها المخبأ، صفائح بنزين وصناديق شاى وخراطيش سجاير وفرد كاوتش. ولم ينم الحلوانى حتى طلع الصباح، فخطف رجله إلى المركز وأصر على مقابلة المأمور وأفضى له بسر العصابة ودكان عم حسين الذى تحول إلى مخزن للمسروقات. وفى مساء نفس اليوم الذى أبلغ فيه الحلوانى البيه المأمور، هجمت قوة من البوليس علي دكان عم حسين وكسروه ونقلوا كل محتويات الدكان، حتى الكراسى والمكتب القديم الذى كان يحتفظ به عم حسين من أيام العز القديمة. أما عم حسين فلم يظهر له أثر بعد ذلك، وقيل إنه لجأ إلى قريته دير الجنادلة فى حضن الجبل الغربى بأسيوط. أما أفراد العصابة فقد اختفوا وكأنهم فص ملح وداب. انتقم الحلوانى لنفسه من الجميع، وعاش حياته فى هدوء، يكوى الملابس فى دكان عبده طول النهار ويجلس على قهوة المعلم أمين طول الليل. ويدخل المخبأ فجرا لينام ساعات قليلة بالقرب من باب المخبأ، لكى يبقى بعيدا عن رائحة الشيالين التى تشبه رائحة الخنازير. ولكن الحلوانى لم ينعم بهذه الحياة إلا أسبوعين. وذات صباح استيقظ

الشيالون وهموا بمغادرة المخبأ، ولكنهم فوجئوا بالحلوانى ممددا على الأرض والدماء تنزف منه بغزارة، وقد ذبحه مجهول من رقبته كالخروف. وجاءت الإسعاف وحملت الحلوانى إلى المستشفى، وتأكد للسلطات أن الجناة هم أنفسهم أفراد العصابة التى قام الحلوانى بالإبلاغ عنها وعن مخزنها فى دكان عم حسين. ولكن أين هم أفراد العصابة؟ لا أحد يعلم.. ولذلك أغلق البوليس المحضر والفاعل مجهول !

وخرج الحلوانى من المستشفى بعد شهور طويلة، بعد أن فقد نصف وزنه، وأخطر من ذلك أنه فقد صوته، فأصبح مبحوحا ومتقطعا ومن الصعب على أى إنسان أن يفهم شيئا مما يقوله الحلوانى. وعاش الحلوانى مرعوبا من شبح العصابة، يتوقع القتل فى أى وقت، حتى انتهت الحرب فسرحوه من الجيش المرابط وعاد إلى (الخضرة) مرة أخرى.

ولكن القرية صارت غير القرية التى كان يعرفها، والشغل فى الحقول بعد الذى رآه فى المدينة أهون منه الموت على يد العصابة. وفكر الحلوانى فى طريقة للخروج من هذا المأزق، وسرعان ما عثر على الحل ونفذه على الفور. خطف الحلوانى رجله إلى مصر وذهب لمقابلة البيه المأمور الذى صار مديرا للأمن العام. وكان الرجل قد أبدى عطفه الشديد على الحلوانى بسبب محاولة القتل التى تعرض لها بعد إبلاغه البوليس. وتوسط له الباشا المدير عند الباشا مدير السجون، فعينه حارسا بسجن القناطر. ولم يكن سجن القناطر سجنا كما هو الآن. ولكن كان إصلاحية للرجال. والإصلاحيات فى ذلك الزمان كانت هى الجحيم بعينه. يحشرون فى الإصلاحية أعتى المجرمين وأخطرهم، الذين فشلت الليمانات فى تقويم سلوكهم.. وخصوصا هؤلاء الذين ارتكبوا جرائم جسيمة داخل السجون. ولم يكن لنزيل الإصلاحية

وقت محدد للإفراج عنه، ولكنهم كانوا يمنحون النزيل الذى يسلك سلوكا حسنا شريطا يعلق على ذراعه كعساكر البوليس. فإذا بلغ عدد الأشرطة خمسة، عرضوا أمره على لجنة كانت تنعقد مرة كل عام للنظر فى أمر هؤلاء المساجين. وكان يرأس اللجنة حيدر باشا نفسه. وكان من حق الباشا أن يأمر الحراس بفتح الباب والإفراج عن المسجون الذى يرى سعادته أنه يستحق الإفراج، أو ينزع الشرائط المعلقة على ذراعه ليعود المسجون إلى الدوامة المهلكة من جديد.

وعندما وقع بصر العبد لله على الشاوش الحلوانى كان قد مضى عليه فى سجن القناطر حوالى ثلاثين عاما، وقد أمضى الفترة كلها داخل منطقة القناطر، بالنهار داخل أسوار السجن وبالليل فى مسكنه بعزبة السجانة. وهى ليست عزبة ولكنها مجموعة من العشش على مرمى حجر من السجن وداخل حدوده. وهى فكرة من ابتكار سلطات الاحتلال الانجليزى، وهدفها فصل حارس السجن عن المجتمع المدنى فصلا تاما. فلايكون له صداقات أو علاقات من أى نوع من المدنيين، وهو وضع كفيل بتحويل الحارس إلى وحش بلا قلب أو أحاسيس من أى نوع. وكان إلمام الشاويش الحلوانى بالقراءة والكتابة هو الطريق إلى ترقيته حتى صار شاويشا. وكان بالإضافة إلى العشة التى يسكنها مع أسرته يتقاضى ١٧ جنيها فى الشهر، وكان يسلمها كل شهر لزوجته لإنفاقها على الأسرة المكونة من ٧ أبناء غير الأم والشاويش الحلوانى نفسه، والغريب أن الشاويش الحلوانى كان على عكس أبناء مهنته لا يقبل الرشوة ولكنه كان يقبل بعض أصناف الطعام (الملكى) من النزلاء فى إفطاره أو غدائه. وكان من عادته بعد فتح الزنازين والتمام على النزلاء. أن يرسل المسجون النوبتشى إلى المخبز لكى يحضر له رصة عيش من النوع الفاخر الذى يبيعه شاويش الفرن للنزلاء الأثرياء!

وكان يقبل كل ما يقدم إليه من الأطعمة، ويرصها بعناية على (الباشتختة) ملوخية بايتة على بيض مسلوق على طعمية على طرشى على سلطة قوطة على مربى على عسل اسود على ورك فرخة. وكان إذا بدأ إفطاره فى الساعة الثامنة صباحا، فهو لا ينتهى منه إلا فى الساعة التاسعة، وخلال الساعة كان الشاويش الحلوانى يأكل الرغيف على دفعتين، يطوى نصف الرغيف بأصابعه، ثم يحشوه بكل الأصناف التى أمامه، ثم يلقى به فى فمه، فينتفخ شدقه كأنه عازف ناى فى فرقة أبو دراع. وكان من عادته لحظة دخوله العنبر فى الصباح الباكر تعليق زمزمية المية على حديد شباك الوسط، وهو شباك عريض ومرتفع ومطل على الجهة البحرية وفى مواجهة ملقف هواء بارد حتى فى فصل الصيف. وكان إذا بدأ الشاويش الحلوانى إفطاره نزع الزمزمية من مكانها على الشباك ووضعها أمامه على الباشتختة. وكان إذا زلط اللقمة أسرع إلى الزمزمية وعب منها عبا ثم يتجشأ بصوت مسموع ويحمد الله قبل أن يستأنف التهام الطعام. فإذا انتهى من إفطاره طلب كوب شاى مضبوط من أحد النزلاء المبسوطين، فإذا جاء الشاى قبل شاكرا سيجارة ليحبس بها من أول نزيل يقدمها له. فإذا انتهى من الشاى والسيجارة جلس هادئا يلقى نظرات متفرسة يمسح بها الدور المكلف به. ولكنه كان بين الحين والحين يطلق من أسفله قنابل من ذوات المسموع وأحيانا من ذوات المشموم. وذات مرة اقترب منه مدير بنك كان متهما بالاختلاس فسقط مغشيا عليه، فقد كان الجو المحيط بالشاويش الحلوانى أشبه برائحة دورة مياه لم يجر تنظيفها منذ سنوات. ولكن العجيب أن الحلوانى كان لايقبل أى شىء من النزلاء غير الشاى والسيجارة التى يحبس بها بعد الوجبة. وكان حريصا على التفتيش على عهدة السجن من البطاطين والأوانى.. كأنها عهدة أبيه. وكان يحب النظام وحريص على تطبيق اللائحة. وكان شديد الغم لأن السجون تخلت عن مبادئها الأصيلة وانهار النظام

فيها إلى حد الفوضى :

ـ تصدق باللى خلقك.. مصر كلها خابت بعد الخيبة اللى حطت على السجون !

ـ ليه يا عم حلوانى ؟

ـ وهيه دى بقت سجون .. السجون كانت زمان يا بنى . كنا نقتل المسجون وندفنه فى الحوش اللى قدامك ده.. ولا سين ولا جيم النهاردة متعرفش تشخط فى مسجون ؟!

وأشار عم الشاويش الحلوانى على مسجون يتأهب للخروج من العنبر، كان يرتدى بدلة سجن بيضاء مكوية بعناية، وتطل من جيب الجاكتة علبة سجائر مستوردة، ويدس قدميه فى حذاء رياضى ماركة شهيرة.. وقال :

ـ بذمتك ده مسجون ؟ دا بيه، دا عايش أحسن م المأمور. تصدق باللى خلقك، زمان كان المسجون إذا ضبطوه واكل بصل نهار أبوه أزرق، إذا شموا ريحته سجاير هيندم على اليوم اللى امه ولدته فيه. كانت الجزم ممنوعة والملابس الداخلية ممنوعة، وإذا المسجون احتاج حاجة من الشاويش لازم يقوله.. يافندى. وإذا المسجون راح مكتب المأمور، وأول ما يدخل من الباب لازم يركع على ركبه لحد المقابلة ما تنتهى. أمال. كان فيه نظام !

كان مهموما ويائسا من إصلاح الحال المايل. ولم تكن ثورته ضد النزلاء فقط ولكنها امتدت إلى الضباط أيضا، وكان يتناول فى حديثه ضابطا شابا يتمتع بشعبية واسعة بين النزلاء، وكان إذا تعرض له قال بسخرية شديدة :

ـ أصله مش ابن المصلحة، وأصله ضابط مرور، وهمه دول اللى خيبوا السجون، بيجيبوهم من المطافى ومن الأقسام ومن المباحث ودول ما ينفعوش. الضابط الكويس لازم يتأسس فى المصلحة من الأول. ولازم يعرف اللايحة ويفهم النظام. ودول مابقاش موجود

منهم حد دلوقت !

عندما كان الحلواني غفير مخبأ فى الجيزة. كان إنسانا محبا للحياة. وبحبوحا للغاية. وبعد أن ضربته العصابة علقة الموت امتلأ مرارة وحقدا على الناس جميعا. ولكنه نسي الأمر بعد فترة وحمد الله بعد تعيينه فى السجن، وسلوكه الطيب كان نشازا وسط حراس الاصلاحية. ولكن حقده القديم كله تفجر فجأة عندما جاء إلى السجن ذات صباح نزيل جديد، كان هو نفسه عضو العصابة الذى استأجر المخبأ، وكان هو نفسه الذى أشرف على علقة الموت التى كادت تودى بحياة الحلوانى. ولم يستطع الحلوانى السيطرة على نفسه عندما ضبط النزيل إياه يدخن سيجارة فى دورة المياه، فضربه ضربة غيظ بالشومة على رأسه فسقط النزيل على الأرض، وباءت بالفشل كل محاولات عودته إلى وعيه، وبعد نقله إلى المستشفى اتضح أنه أصيب بكسر فى جمجمته وأنه فارق الحياة. وصرح الطبيب بدفن النزيل فى مقابر الصدقة، وحكموا على الحلوانى بالحبس خلف أبواب السجن تمهيدا لمحاكمته، وتأكد الحلوانى أنه ضاع، وتمنى لو كان عاد إلى زراعة الأرض فى قريته الخضرة. ولكن حظه المهبب قاده إلى السجن، وقاده السجن إلى ضياعه فى آخر العمر. ولكن أشد ما كانت دهشة الحلوانى عندما حكموا عليه بالبراءة، لأنه كان فى حالة دفاع عن النفس. فالنزيل مجرم معتاد إجرام، وفشلت جميع السجون فى إصلاحه، وشهد زملاؤه بأن المسجون اعتدى عليه بآلة حادة. ولولا أن الحلوانى تفادى الضربة لانتهى به الحال إلى قرافة الإمام !

ـ كان فيه رجالة حلوة زمان : كل السجانة وقفوا معايا، والباشا المأمور نفسه شهد فى صالحى. تصدق باللى خلقك، لو حصلت الحادثة دى دلوقت.. كل السجانة اللى انت شايفهم دول هيشهدوا ضدى، ولو اتحكم على بالسجن وجيت هنا أقضى المدة، هيضطهدنى

السجانة قبل المساجين. مش بقولك الدنيا خابت يا سيد !

كان مثله الأعلى في الحياة هو حيدر باشا. كان مدير سجون بحق وحقيق. كانت له هيبة وكانت أوامره ملزمة للجميع.

ـ تصدق باللى خلقك. الباشا حضر مرة مجلس الإفراج، وكان فيه مجرم رهيب كسروه لحد ما بقى مش قادر يقف على رجليه. نادى عليه الباشا.. وقاله انت معلق خمس شرايط يعنى ماشى كويس، رد المجرم وقال.. أنا خدام جزمتك ياباشا. سأله الباشا عاوز تخرج ياواد. رد المجرم وقال.. اللى تؤمر بيه يا باشا. قال له طيب ازحف على رجليك وايديك وتعالى لحد عندى هنا وبوس جزمتى. تصدق باللى خلقك، زحف الواد المجرم زى الكلب على إيديه ورجليه لحد ماجه عند الباشا وطبع ميت بوسة على جزمته. شاور الباشا للسجانة الواقفين وقال لهم.. افتحوا الباب وخرجوه!! مش بقولك الخير كان كتير زمان، وكان كل شيء مطرحه، الباشا باشا والمسجون مسجون والشاويش شاويش. فين دا كله النهاردة؟ تصدق باللى خلقك.. أنا بادعى ربنا ياخدنى النهاردة قبل بكرة عشان ما شوفش المناظر اللى بشوفها قدامى. امبارح مسجون جايله طشت لحمة راس وكوارع وفتة وطرشى بلدى.. ليه؟ هوه قاعد فين؟ في الهنتور (الهيلتون) مش بقولك ربنا هيسخطنا إن شاء الله ويعملنا قرود !

كان من رأى الشاويش الحلوانى أن سر خراب الأرض أن السجون لم تعد تردع أحدا من المجرمين. تحولت السجون إلى فنادق ومستشفيات. تكلم المسجون يبوأ فيك. والضرب ممنوع والنيابة حاضرة وكل يوم تحضر للتفتيش على السجون. إيه رأيك إن أنا امتحنت باكشويش ونجحت وما علقتش الرتبة لحد دلوقت. عارف ليه؟ لأن واد مسجون كان عامل صداع للسجن كله مسكوه في يوم وحطوه في التأديب. كنت نوبتشى يوميها وعمل لى مشكلة. حبيت

أأدبه حطيت له ميه فى الزنزانة. قال إيه جاله التهاب رئوى ومات. طب وانا مالى، عمره كده، واللى جه أجله بيروح. إزاى بقى أقول كده للنيابة، ادونى جزا وحبسونى ١٠ أيام ورا البوابة ووقفوا ترقيتى لحد الوقت.. بذمتك ده عدل. بقولك البلد دى تستاهل الحرق، غيرش المشايخ حارسينها.

كان حلم الحلوانى الدائم ترك الخدمة والعودة إلى قريته. يشترى قطعة أرض ويزرعها بنفسه، ولكن من أين له المال الذى يشترى به فدان أرض فى الخضرة.

ـ تصدق باللى خلقك.. دا الحيطان اللى ساترانا، انت عارف أنا عايش ازاى. البيه المأمور ربنا يخليه سمح لى آخد أكل من مطبخ السجن للعيال. والأكادة أن المساجين بيقرفوا من أكل السجن. والمساجين المجرمين بيقرفوا منه وأنا وعيالى بناكل منه.. حد يصدق دى؟ كان واضحا أن الشاويش سيقتله غيظه من الحال السيىء الذى تدحرجت إليه السجون فى السنوات الأخيرة. وكان يقضى أغلب وقته يقرأ فى لائحة السجن التى أهملوا شأنها فلم يعد يطبق منها شىء. المساجين سارحون طول النهار خارج الزنازين، ويحتاج الشاويش إلى ساعة كاملة لكى يجمعهم ساعة التمام. مع أن اللائحة تنص على فتح الزنازين الخالية للتهوية وإغلاق الزنازين التى تضم مساجين.

ـ أمال الإجرام زاد ليه فى البلد؟ لأن المجرم بييجى يقعد كام شهر فى اللوكاندة ويطلع يشرح فى الناس تانى. طيب اكسر ضهر المسجون كده وسيبه يطلع بره وشوف هيمشى كويس واللا لأ؟

ذات صباح تحول الشاويش الحلوانى إلى نمر هائج. السبب أن وكيله فى حراسة العنبر ضبط أحد نزلاء دور ٤ يقبض بين أصابعه على نصلة حادة. ولما حاول انتزاعها من بين أصابعه طعنه بها فأحدث جرحا عميقا فى ذراعه. وجمع الشاويش الحلوانى كل حراس العنبر

وهجموا هجمة عنترية على دور ٤ وضربوا كل نزلائه علقة ساخنة سالت فيها الدماء وتقطعت فيها الأنفاس. وعندما جاء الشاويش الحلوانى بعد انتهاء المعركة كان التعب قد نال منه .

وراح يلتقط أنفاسه بصعوبة . وقلت للشاويش الحلوانى :

— كان لازمته إيه ضرب كل الناس اللى فى دور ٤ ، كويس اللى حصلك ده ؟

— أمال كنت عاوزنى أعمل إيه ؟

— كان كفاية تضرب الواد اللى معاه النصل وخلاص .

— بقى دا كلام ده .. أنا لما يقرصنى دبور ، أروح أموت الدبور اللى قرصنى ، وإلّا أهد العش كله ؟

— لكن دول ناس يا شاويش حلوانى مش دبابير .

— تصدق باللى خلقك ، دول أوسخ من العقارب والتعابين .. تعرف أنا نفسى فى إيه ؟ يعملوا سجن فى الجبل ويعملونى شاويش ع السجن كله . ويرحلوا جميع المساجين على هناك ، إذا خليت حد منهم يشوف الأسفلت تانى أبقى تف علىّ ، خلى البلد تفوق وتشم نفسها تانى ، لكن مين يسمع ومين يقرأ ؟

بعد أسابيع جاء العيد ، وفى صبيحة أول أيامه جاء البيه المأمور ومعه الوكيل وبعض الضباط ، ودخل العنبر ، واهتزت جدران السجن من صرخة الشاويش .. انتباه ! وكان المأمور والهيئة كلها تمر على الزنازين ، وتصور الشاويش الحلوانى أن حدثا خطيرا قد وقع فى العنبر ولكنه فوجىء بالمأمور يصافح المساجين ويهنئهم بالعيد ويتمنى لهم عيدا سعيدا خارج الأسوار فى العام القادم .. ثم فوجىء بالمأمور يوزع علب الكحك على المساجين من باب الترفيه ، ولم يتحمل الشاويش الحلوانى الصدمة فانسحب من الموكب ووقف عند الباب ينفخ من شدة الضيق ، ويردد فى صوت مسموع .. عشنا وشفنا .. لا

حول ولا قوة إلا بالله !!

بعد أن انتهت جولة المأمور ، صعد الشاويش الحلوانى إلى دور ٢ وجلس فى مكانه المختار على الباشتختة ، ولأول مرة يطلب من العبد لله كوب شاى مظبوط وسيجارة . وخلع الشاويش الحلوانى الجاكتة وجلس يشفط الشاى ويسحب أنفاسا عميقة من السيجارة . ثم فجأة مال رأسه على الباشتختة ، وسقطت السيجارة من بين أصابعه ، وهرع إليه بعض النزلاء ، ولكن الشاويش كان باردا كلوح الثلج يبدو أن منظر المأمور وهو يصافح النزلاء ويوزع عليهم علب الكحك ، قد أصاب الشاويش الحلوانى بغصة شديدة . يبدو أنه تمنى الموت بعد أن رأى بعينيه هذا الانهيار الشديد الذى بلغ حد توزيع الكحك على النزلاء . مع أن أحدا فى المصلحة لم يفكر فى توزيع الكحك على الحراس!

وأخيرا قدر للشاويش الحلوانى أن يتخلص من كل أحزانه ، مات الشاويش الحلوانى فى لحظة اكتشف فيها أن الفساد الذى دب فى السجون تجاوز كل الحدود !!

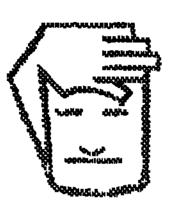
ولكن طبيب السجن الذى لم يعرف من الحلوانى إلا اسمه ، كتب على شهادة وفاة الحلوانى .. هبوط شديد فى الدورة الدموية .. ولم يكن هذا السبب هو الذى أدى إلى وفاة الحلوانى بالتأكيد !!



تمام يا أفندم

٥ الأسير

●● كل شيء وأي شيء معرض للجنون حتى الدنيا نفسها ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ظهرت بوادر الجنون على الدنيا كلها. السبب المباشر أن الحرب كانت قاسية للغاية. أكثر من ٦٠ مليونا من زهرة شباب الكرة الأرضية فقدوا أرواحهم وهم في عمر الزهور. ومدن كاملة تم مسحها من على ظهر الأرض ومئات الألوف من الأطفال تم شحنهم بعيدا عن ميادين القتال، وانتهى الأمر بهم إلى اليتم والتشرد والضياع وجيوش بملايين غادرت أوطانها ذات صباح في طوابير فخيمة وعلى نغمات موسيقى حماسية ولم يقدر إلا لبضعة مئات منهم بالعودة إلى الوطن ودفن الباقون تحت حقول الطين وكثبان الرمال. ثم اتسعت رقعة الجنون عندما بدأت أكبر حركة تغير في تاريخ الكون الامبراطوريات العظمى بدأت في التفسخ، والذين استضعفوا في الأرض أخذوا في النهوض. افريقيا مثلا التي كانت غابة وحوش ومستودع خدم، يأتي السيد الأبيض من أوروبا مريضا ومعتوها فتحول إلى طرزان. ضاع ملكه وفي ألوف الخدم يحكم. بعيد في قصر ولا قصر الامبراطور يزرع الأفيون لأهل البلاد، ويزرع الدخان والشاي للتجارة، ويفطر كل صباح ببعض النعاج ويتعشى كل مساء غزالة. وبين الصباح والمساء يتسلى بأكل الطواويس وأسراب النعام. افريقيا هذه بدأت تدق طبول الثورة وجيش الخلاص هب لانقاذها من سنوات الذل والجوع ●●



والعملاق الميت آسيا دبت فيه الروح من جديد، وقام الذين كانوا من سقط المتاع يطالبون بنصيبهم من الحق والحرية ونهض ولد سفروت مصاب بالانيميا يدعى جياب واستطاع بحفنة من المرضى المقشفين أن يحطم كبرياء فرنسا وأن يجبر الجنرال الفرنسى فى فيتنام على الركوع أمامه والتوقيع على وثيقة الاستسلام بعد استسلام القائد الفرنسى بسنوات. فعل نفس الشيء القائد الأمريكى ووقع وثيقة استسلامه لنفس القائد وفى نفس المكان. وبين الواقعتين هبت رياح التغيير على الشرق الأوسط، وحدث فى هذه الأثناء أن تلقى سرحان ابن هدية استدعاء للكشف الطبى وليصبح بعدها جنديا فى جيش مصر، وغادر سرحان قريته (المعدية) فى ريف كفر الشيخ وفى يقينه أنه لن يلتحق بالجيش فهو مريض بالبلهارسيا ولونه أصفر دائما وصحته على قده، وأنه سيحصل على شهادة (المعافاة) وبعدها يستطيع الالتحاق بخدمة الحكومة فراش فى مدرسة أو غفير مزلقان ويصبح مستوظفا يقبض «فلوس» أول الشهر وآخره !

ولكن فرحة ماتمت خدها الغراب وطار فى (النضارة) طلع ابن هدية صاغ سليم وأصبح عسكرى فى الجيش وشمال يمين وطوابير على ودنه وأثمر طعام الجيش فيه فردت الدموية فى وجهه وانتفخت عضلاته، ثم فجأة وجد نفسه على مركب فى البحر فى طريقه إلى بلاد بره .. باضت لك فى القفص ياابن هدية .. كان يحلم بالسفر إلى طنطا

لزيـارة مقام السيـد البدوى فإذا بـه يركب البحـر فى طريقـه إلى بلاد بعيدة أبعـد من البلاد التى تشرفت بالـرسول الكريم وبعد عـدة أيام وصلت المركب إلى الميناء وعرف ابن هديـة انهُ فى اليمن ويالها من بلاد غـريبة يـرتدى أهلهـا الفوط ويـدخنون الشيشـة ويطبخون الحلبـة ويزرعـون العنب ولكن من غضب الله عليهم أنـه بعثر فى كل شبر من أرضهم سلسلـة جبال لا تنتهى جبـال تنـاطح السحاب وجبـال نص نص، وفى الجبال وحوش وثعـابين ونحل قرصته ولا قرصـة العقربة، وشهده من نفس نوع شهـد الجنة وسوء بختك يابن هـدية انه استلم موقعا على رأس جبل يا سبحان الله حكمته واسعة وهو على كل شىء قدير.

أحيانـا يمر السحـاب فيغطيه وأحيانـا تنكشف الدنيـا عن وديان جميلـة وزراعات تشبـه حقـول المعديـة وربما يكـون فيها فـلاحين كفلاحين كفـر الشيخ غلابـة أيضا وآخـر قشف أيضا يـا لها من أيام طـويلة مملـة مرت على ابن هـدية وهـو فى موقعـه أحيانـا يقطع الملل صوت الرصاص وأحيانـا يسمع أخبارا عن سقوط قتلى هنا وهناك آه لو استطاع ابن هدية أن ينزل يـوما من فوق القمة ليتجول فى الحقول ويشم رائحة البرسيم والحلبة. ولكن هل يـزرعون البرسيم هنا أيضا؟ وهل كل الحيـوانـات تأكل البرسيم أم أنها حيـوانـات مصر فقط التى تأكله؟ ليتـه يلقى نظرة على بيت فلاح هنـا وهل يا ترى لديهم مقـاعد وقاعات وافران لزوم النوم فى ليالى الشتاء؟ ليته يلقى نظرة على أحوال الناس فى بلاد بره ليرى الفرق. مصر طبعـا هى أم الدنيا وأكلها أحسن أكل وأرضها أفضل أرض. هل يـا ترى يشربون اللبن من «البـوشة»؟ وهل يخضـون اللبن ليتحول إلى سمن؟ هل يأكلـون الخبيزة والملوخية والفـول الحراتى؟ يـاسلام لـو عـرف أحوال النـاس هنـا لكى يحكى للفـلاحين فى (المعديـة) عندمـا يأذن الله بـالعودة، ولكن كيف لـه أن

يحقق هـذا الحلم والأحوال هنـا صعبة والحرب لا تنتهى، ويقـول إن الإمام مصر على العودة. إمام خايب بـالتأكيد لأنه يصر على العودة إلى هذه الجبـال الموحشة مع أنهم يقولـون إنه يعيش آخر مملكـة فى بلاد الافـرنك! شـهـور طويلـة مضت قبل أن تسنـح الظروف لابن هـديـة بالنزول من القمة. جاءه الفرج بالنقل إلى صنعاء، ونزل من الجبل إلى المعسكـر فى السفح قبل الـرحيل إلى صنعـاء، وذات صبـاح كـان الشاويش المسئول عـن المعسكر بلدياته من (مطـوبس) فاستأذن فى الخروج قليلا فأذن لـه بشرط أن يعود إلى المعسكر قبل مـوعد التمام، وخرج ابن هـدية يتجول فى الفضـاء المحيط با لمعسكـر، ورأى مزارع على مـدد الشوف وبيـوتا وقطعـان ماشيـة تسرح فأسرع الخطى إلى هناك. وأخيرا وصل إلى هدفـه ووجد جماعة يجلسـون حـول منقد نار تفـوح منه رائحـة شاى ومعهم بـرسيم يمضغونـه وهم يتسامـرون ويضحكـون. البرسيم هنا إذن للبنى أدمين وليـس للبهائم. والغـريب أنهم يسمون البرسيم.. القات، بلاد عجيبة وأحوالها أعجب ولا يعرف السر فى اللخمـة التى أصابتهم عنـدمـا وقع بصرهم عليه، يبـدو أنهم ظنوه حـرامى فأمسكوه وكتفوه، وسـاقوه أمـامهم كما كان يفعل أهل المعديـة عندما يقبضـون على فلاح غلبـان يسرق كوز ذرة من الحقل. ومضوا بـابن هـدية إلى مكان بعيـد، هناك وجـد ناس كثيريـن حفاة، وجوههم شـاحبة وأعـوادهم ممصوصـة. كأنهم خرجـوا من القبور فجأة. وفى قاعـة مظلمة حبسوا ابن هـدية ولكنهم بعد فترة جـاءوا له بالشـاى، وفى المساء جاءوا لـه بالعشـاء لحم وخبز وحلبة مطبـوخة. وجاء أحـدهم ومعه الشاى ولقمـة عيش وقال لـه.. أنت الآن فى منطقة الشيخ الغـادر، وتستطيع أن تفلت مـن الموت.. إذا قلت.. أنـا فى وجـه الغـادر. يـالها من بـلاد طيبة يهتـف الانسان.. أنـا فى وجـه الغـادر فيتركونه ويعفونه من الموت، وفى بـلاد أخرى لو قال البنى آدم.. أنا فى

وجه ربنا، لا يفلت من العقـوبة ولو كانت هينة! هتف ابن هـدية أنا فى وجه الغـادر. من هو الغادر؟ لايـدرى.. من يكون هذا الغـادر؟ لا أحد يدرى ربما هـو قاطع طـريق أو شيخ منصر لابد أن أسنـانه مـدببة وعيونــه تطق شرارا. ولكنه رأى عكس هذه الصورة عنـدما أصبح بين يدى الغـادر. رجل يرتدى ملابـس نظيفة، وعلى رأسه عمامة ملفـوفة بعنايـة، ولون بشرته أقرب إلى لـون بشرة الخواجات، وعيونـه فى لون البحر المالح. ويبدو من جلستـه أنه صاحب مركـز كبير. وعندما تكلم الغادر كان كـلامه بالعربى الفصيح. قال لـه.. المفروض أننا نضربك بالنـار. لأنك عسكرى جئت لغزو بلادنـا، ولكن لأنك قلت أنك فى وجه الغـادر، فسنعتبرك أسيرا وسنعاملك معـاملة الأسير وأمـر له الغـادر بملابس يمنية، فوطة وقميص وخصص لـه ريالا كل يوم بخلاف أكله وشربه. مصير أســود يا ابن هـدية، وستعيش حيـاتك فى الغربـة ولن يكتب لك رؤية المعدية وعاش ابن هـدية عشرين يوما بالتمام والكمال، قبل أن يستـدعيه يمنى آخـر طويل وعـريض، ثم سلمه لجماعـة من الخواجات معهم مترجـم مسلح بمدفع رشـاش. وانطلقت بهم سيارة مسرعة تطـوى الوديـان والجبال، وبعـد عدة ســاعات وصلت بهم إلى مدينة تشبه طنطا. يا سلام على أيـام العز التى قضاها فى طنطا عندما كان يتردد عليها فى أيـام مولد السيد أحمد البدوى. الفـرق الوحيد بين هذه المدينة وطنطـا هو أن الأولى هادئة ونظيفة وليـس بها دكان واحد يبيع الحلاوة الحمصية. فى مكـان مثل هذا يمكن لـلانسان أن يعيش. وتصبح الأشيـا معدن لو اشتغـل شغلانة يأكـل منها عيش ويـدخر بعض المال ليسافر بـه إلى المعدية، ولكن حظك المهبب يـا ابن هدية أن السيارة توقفت عند مبنى أشبه بالقلعة التى فى (المعدية) والتى قيل إن الحكومة أقـامتها منذ ألف سنة لصد هجمات الخواجات الـذين كانوا يطمعون فى بر مصر بين الحين والحين !

وعندما أدخلوه القلعة اكتشف ابـن هدية أنه فى السجن. الله يخرب بيت الغادر وبيت أبوه. قال لـه سنعاملك كأسير، وهل يـدخل الأسير السجن!؟ ولكن الحق أحق أن يتبع. السجن الـذى أدخلوه فيـه أنظف وأفضل مـائة مرة من السجن الـذى دخلـه ذات مرة فى قسم بـوليس طنطا. كانت ليلـة مولد والجميع مسرورين، وكان ابن هـدية يسهر فى قهوة عشوائية أقيمت على الرصيف بمنـاسبة المولد. وكانت ترقص فى القهوة غـازية لهلـوبة أشاعت النشـوة فى القلوب. وفجأة جـاء بوكس الحكومـة وطربق القهـوة على رءوس الجالسين، وحطم نصبـة الشاى واستولى على الجوز والشيش، وساق الجميع إلى القسم، يالها من ليلة ليلاء باتها ابن هدية على الأسفلـت، والبرد يفرى العظام لا كوب شاى ولا حتى شربة ميه ولا لقمة تسند القلب. وليلـة ثانية وثالثة حتى كاد يهلك، بعدها أفـرجوا عنه بعد أن انتهت التحـريات، ولكن هذا السجن نظيف والطعـام الذى يقدم لـه طيب ويليق بالبنـى آدمين. والمشرفون على السجن نـاس طيبون لأنهم يقـدمون لـه أربع سجـاير كل يـوم. لوفقط واجهـوه بتهمته، لـو يقف أمام محكمة، لـو يفهم إيه الحكـاية. المهم.. بعـد شهر من وجـوده فى السجن جاءه أحـد الخواجات ومعـه مترجم. وسألوه عن اسمه وظروف تجنيده، وبدا أن مأساته بعد قليل قد تنتهى، ولكن الخواجا والمترجم لم يحضرا إلا بعد مضى شهر آخر. وفى هذه المرة أعلنـوا أنهم على استعداد لـلإفراج عنـه، وترتيب إقـامة مريحة له فى بيت ضيافة يليـق به، ثم تسفيره إلى مصر ليعود إلى قريته وفى جيبـه مبلغ كبير من المال يكفى لشراء قطعـة أرض واقتنـاء قطيع من المواشى يعينه على بـدء حياة جديـدة له ولأسرته. يـا حظك يا ابن هدية، باضت لك فى القفص، وكان يوم سعد يوم خروجك من المعسكر ووقوعك فى أسر الغادر. والغريب أنهم يعـرضون هذا الخير كله مقابل خدمة هايفه، انه لا يصدق ما قيل له، مطلوب من ابن هدية أن يتكلم فى

إذاعة عدن، ويعلن أنه جاء إلى اليمن رغـم أنفه، وأنه سلم نفسه للأسر لأنـه رفض أن يطلق النـار على عـربى مثلـه!! ثم يـدعـو زمـلاءه من العسـاكر إلى تسليم أنفسهم إلى أنصـار الإمام لينعمـوا بالخير الـذى ينعم به !

والله .. ودارت الأيـام يا ابن هدية وأصبحت شـخصيـة تتحدث فى الإذاعة مثـل الكبراء.. الغريب أنهم يطلبـون منه الكلام كـل مساء لمدة نصف ساعة، نصف سـاعـة بس!؟ لماذا لايتكلم طوال النهار، وهو على استعـداد للكلام طـول النهار وطـول الليل أيضـا.. والحسـاب يجمع. وبدلا من بناء دار فى (المعديـة) يبنى دوارا على الترعة. وآه لو تمكن من الاتصال بشقيقه حافظ الغفير، لينبه على المعدية كلها لكى تستمع إليه من إذاعــة عدن. يا مين يقـول للجميع على الأمله التى يعيش فيهـا ابن هديـة وشـحط طويل عريض يقـدم له صينية الإفطار وهـو كاوع على السرير، سرير ولا سرير مفتش الرى الذى كان يقيم فى الاستراحة على شـاطىء النيل بـالقرب من المعدية وحـان الموعد ليبدأ ابن هديـة عمله الجديـد، جـاءت سيـارة فخيمـة أفخم من التـاكسـى الـذى يجرى فى شوارع مصر، ووصل إلى الإذاعـة واستقبلوه بالترحـاب وكأنه مـدير كبير، وحشروه فى حجـرة مغلقة وأمـامـه ميكـروفون وبـدأ ينحـدث. وأخذتـه الجلالة فتحدث ولاخـوجة فى المدارس. وبعـد فترة من الوقت أضاءوا النور الأحمر ومنعوه من الكـلام. ثم صافحه الجميع بحرارة وهنأوه بشدة، ووصفـوا صوته بأنـه صوت إذاعى جميل. وسرح ابن هديـة وهو يتمطع على السريـر.. يا سـلام لو يعينـوه مذيعـا فى إذاعة عدن. وبعـد أن يتسلم قرار التعيين ويقبض أول مـرتب يركب المركب ويسافر إلى مصر ويزور المعدية، ويشترى للـوالدة راديو يابانى يتيح لها الاستماع إليه فى إذاعـة عدن! وشهـر بحالـه وابن هديـة يعيش فى بلهنيـة العيش، يقيم فى بيت الضيافـة،ويتحـدث كل مساء من خـلال

الإذاعة . وسرح خياله فـاختلق أكاذيب كثيرة عن الوضـع داخل اليمن، وكلما اختلق أكذوبـة وجد تشجيعا أكثـر ومعاملة أفضل. وبعـد شـهر كامل جاءه الخواجا والمترجـم، واصطحبوه معهم إلى المطار، وصعدوا بـه على طائرة حـربية وبعـد سـاعتين هبطوا بـه فى أرض غريبـة، ثم أفهموه أنه فى قبرص وذهبـوا به إلى فندق وسلموه جـواز سفر ومبلغا من المال، وطلبوا منه تـدبير سفره إلى مصر فالمسافة قـريبة ومعه من الثمن ما يكفيه للسفر ولتدبير حياته الجديدة، وقع ابن هدية فى حيص بيص، لم يدرك الحكمة من استخدامـه ولم يدرك الحكمة فى الاستغناء عن خدماته. وجواز السفر الذى معه يمنى من حكومة الإمام وبتاريخ قديم، واسمــه الجديد حميـد صبرا. ولكنه خـرج من حيرته بعـد أيام عنـدما التقى ببعض المصريين يبحثـون عن عمل فى قبرص. وأفهمـوه أنهم فى طريقهم إلى لبنان فشواطئها مفتـوحة وكل الناس يدخلونها فى أمان الله. وذهب معهم فى مركب وأنـزلوه فى الماء، وراح يعوم بملابسه حتى وصل إلى الشـاطئ وارتمى هنـاك على الـرمـال وذهب فى نـوم عميق، عندمـا استيقظ من نومـه كانت الشمس عـالية وسـاخنة، ولم يجد شيئا فى جيوبه، لا فلوس ولا جـواز سفر، وتوكل على الله وزحف مبلولا نحـو المدينة، وتسول عدة أيـام ثم وجد لنفسه مكانـا فى غرزة لتدخين الحشيش، ومـرت أسابيع حتى هجمت قـوة من البوليس على الغـرزة وألقت القبض على ابن هـديـة. ولم يستطع تفسير وجـوده فى بيروت، وبعـد عــدة أيـام من التحقيق والتحـرى سلمــوه للسفـارة المصرية. وفى السفـارة قال لهم الحقيقـة، كيف أسروه؟ وكيف أجبروه على الحديث فى الإذاعة؟ وبعـد أيام وجد نفســه فى مطار القـاهرة ومن المطار إلى السجن الحربى .

نهارك أزرق يا ابن هـدية، وكل مـا أكلته بط بط، ستتبرزه وز وز. ومحكمة عسكرية وحكم بطـرده من الجيش و٧ سنوات سجن. لحظة

وقع بصرى عليه فى سجن القناطر كـان يعمل فى ورشة الأحذية. وكنت هنـاك لاصلاح شبشب أصــابـه العطب. وكـان يبدو دون المســاجين جميعا صــامتا ومكســورا ومذعورا من شىء مــا. وعندمــا سألته عن تهمته أجاب فى همس :

ـ سياسى زيك !!

سياسى . إخوان . شيـوعى ، مراكز قوى؟ جماعات إرهــابية؟ كان يهز رأسه بــالنفى عقب كل سؤال. ثم راح يحكى لى قصته منـذ لحظة تجنيـده وحتى لحظة دخـولـه السجن. وكـان قد مضى عليـه خمس سنوات كاملة ولم يبق أمامه إلا سنتان وسأل العبد لله :

ـ انت كمان بعد ما تطلع من السجن هتقعد عاطل؟

ـ عاطل ليه ؟ هاشتغل طبعا ..

ـ أصلهم قالوا لى إن جريمتى ماسة بالشرف .

ـ تبقى مش سياسى بقى .

ـ مش سيــاسى ازاى، أنا سيــاسى ونص. كنت باقـول فى الإذاعة، دنا كنت مشـهـور فى عدن، والناس كـانت تعرفنى هنـاك، بس الراجل الخواجا كان خــايف على ليضربونى بالنار، بس مــاكنتش عارف ليه؟ مع ان الناس هنا بتحب جلال معوض وبتتشرف بمعرفته .

ـ مــا هو انت مــش زى جلال . جلال كــان مذيع بس انـت خائن.

أفزعته كلمة خائن بشدة. ترك فردة الشبشب تسقط من يده وقال :

ـ خائن ازاى يا أستاذ، أنــا عملت إيه؟ أنا كنت بتكلم فى الإذاعة. ثم هوه أنــا اتكلمت فى الإذاعة بمزاجى؟ دا كــان غصب عنى ثم دول عبط وأنا ضحكت عليهم، وكل الكلام اللى قلته كـذب. دنا عملت خدمة للبلد وكان لازم يكافئونى!

وصمت بعض الـوقت قبل أن تنحدر الـدمــوع على خديـه، ثم هب واقفا تاركــا فردة الشبشب على الأرض وانصرف خارجا مــن الورشة.

أيـام طـويلة مضت كنت ألقـاه أحيـانـا فى فناء السجن ولكنــه كـان يتحاشى النظر نحوى أو الحديث معى. ولكن سنحت للعبد لله فرصة الحديث معــه ساعــات طـويلة. كـان ذلك قبل الإفـراج عن العبد للــه بأسبـوع واحد. وكـانت ورش السجن تواصل العمل ليـلا ونهارا من أجل الانتهـاء من إعداد عـدة مئات من الشنط لبعثـة وزارة الداخليـة المسافرة إلى الحج. واندمجت ورشة الشنط مع ورشة الأحذية، وسهر مساجين الـورشتين فى فناء السجن كل مساء حتى الصباح لـلانتهاء منهـا فى أسرع وقت. فى ليلة من هـذه الليالى شعـر العبد للـه بضيق فى التنفس. وكانت هـذه النوبـة هى السبب المباشر الـذى جعل الضابط النوبتشى يسمح للعبـد لله بالجلـوس فترة من الوقت فى الهواء الطلق، وهكذا خرجت من العنبر إلى الحوش، وجلست على مقعد بجوار العمال الذين انهمكـوا فى العمل. ويبدو أن حالـة العبد للـه كانت تصعب على الكـافر، فـأسرع أحد العمال بإعـداد كـوب شـاى على وجه السرعـة. وعنـدما امتـدت يد العـامل بالكـوب نحوى، اكتشفت أنـه هو نفســه السياسى مذيع عدن! قال لى وهو يمد يده بكوب الشاى :

ـ شد حيلك، دنا سامع إنك خارج قريب.

هززت رأسى بالموافقة فواصل حديثه قائلا :

ـ لما يكرمك ربنا وترجع تكتب تانى، ابقى اكتب عن حكايتى.

ـ أكتب أقول إيه ؟!

ـ أنا يا بيه خرجت من مصر مـا عرفش حاجة،، ورجعت مصر وأنا مش عارف حاجة، إذا كنت اتعلمت حاجة أبقى اتعلمتها فى السجن .

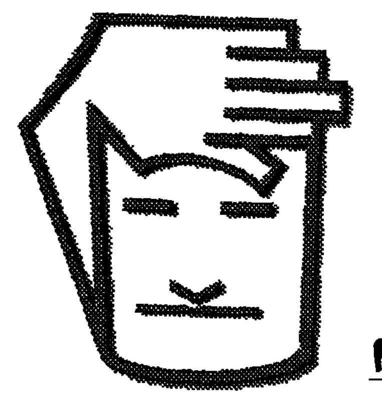
ـ يعنى لما اتكلمت فى الإذاعة ماكنتش عارف بتعمل إيه ؟

ـ والى جمعنـا من غير ميعاد ماكنـت عارف حاجـة ولما مسكونى بندقية فى اليمن وقالوا لى حارب مـا كنت عارف أى حاجة لو فهمونى المسألة م الأول ما كانش جـرى اللى جرى. فى الحرب كنت بانفذ أوامر

وعاوز أرضى الضـابط وكان نفسي الحكايـة تنتهى بسرعة مش مهم مين يغلب ومين يتغلب.. المهم تخلص والسلام ولما خـدونى ع الاذاعة أتكلم ماكنتش عارف إيـه الحكاية. أنا افتكرتها شغلانـة وربنا فتحها فى وشى. عارف لـو فهمونى إيه الحكـاية كنت مـا فتحتش بقى بكلمة حتى لوقطعوا جسمي بالحتة. أنـا معقول أبقى خاين؟ أخون مصر أنا يا بيه؟ أخون المعدية؟ أخون العيش والملح؟ دنا قلبى هيتقطع من جوه عشان ماحدش من أهلى زارنى فى سجنى.

مكسوفين منى ومن عملتى السودة هوه أنا عملت حاجة ؟

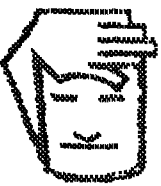
وانخـرط ابن هـدية فى بكـاء شـديـد وبدرجـة لفتت انتبـاه جميع المساجين الذين يعملون بالقرب من المكان الذى أجلس فيه وغادر ابن هديـة مكانه واتجه نـاحية حنفية الحريق وفتحهـا على الآخر، ووضع رأسه تحت شلال الماء المتدفق من فوهتهـا الواسعة، ولم أر ابن هدية بعـد ذلك إلا بعد مضى عشر سنـوات كان ذلك فى عـام١٩٨٣. عندمـا فوجئت به يـدخل مكتبى فى روزاليوسف لم أعرفه فى بدايـة الأمر كان قـد شاخ وشـاب شعر رأســه لقـد فشل فى العثور على عمل فـاحترف التسـول فترة ثم عادة إلى القـرية بعـد مـوت والده ولكنـه لم يستطع البقاء طـويلا، فالجيل الجديـد الذى لايعرف حكـايته كان ينظـر إليه بازدراء شديـد وهو يعمل حاليا عاملا فى قهـوة على الرصيف المجاور لمقـام سيدى أحمد البـدوى. مسكين ابن هـدية. قضـى أغلب سنـوات حياتـه لايفهم شيئا مما يدور حـوله، وعندما فهم.. كـان قد خسر كل شـىء. ثم .. كم يبلغ عدد أبناء هديـة من أبناء المحروسة.. مع اختلاف الظروف والنهايات !



تمام يا افندم

٦ الزعيم

●● كان اسمه يدوي كالطبل في أنحاء السجن. ولم يكن السبب في شهرته أنه سجين سياسي كان يطلق النكت على السلطة وليس لأنه نزيل السجن منذ عشر سنوات، وليس لأنه كمنجي يجيد الحديث بصوت كصوت ميكروفونات الأفراح ولكن شهرته كانت بسبب سلوكه الغبي داخل السجن، كان مرتضى هذا كاتبا لمحام ذائع الصيت، وكان يحفظ قانون العقوبات عن ظهر قلب، ولديه فكرة واسعة عن طبيعة جميع القضاة الكبار في محاكم الجنايات وبإمكانه تصنيفهم من خلال فهمهم للقانون وتطبيقهم له. فهذا إدانجي.. أي أنه يميل للإدانة، وهو لا يؤمن كثيرا بالمبدأ القانوني الذي يفسر الشك لصالح المتهم، ثم هو لا يحكم إلا بالحد الأقصى للعقوبة، وهو في النهاية فخور لأنه لف عشرات الرقاب في حبال المشانق! وهذا القاضي الآخر طيب، يميل إلى التماس العذر للمتهم، ويبحث في عوامل الضغط التي أدت بالمتهم إلى الانفجار. أما القاضي الثالث فهو من النوع السبهللي، لا يحيط بالقضية المعروضة أمامه، ولا يقرأ الأوراق ولا يستمع إلى دفاع المحامين وأحكامه عشوائية، أغلبها ترفضها دوائر محكمة النقض وتعيدها لتنظر من جديد، وكذلك كان كاتب المحامي هذا يستطيع أن يحدد مصير القضية، ليس من خلال الأوراق ولكن بمعرفة اسم القاضي الذي سينظر القضية ●●





ولهذا السبب ذاع صيتـه فى مكاتـب المحامين ، وعنـد المجرمين لـدرجة أن بعضـهم كان يـؤمن بأنه هـو الذى يملى على المحامى دفـاعه فى القضية ، كـان ندا يسكن فى حى القلعة ، وكان من عـادته التردد كل مساء على قهوة فى نهاية شـارع محمد على ، وفى مـواجهة جامع السلطان حسن ، وكان ينهمـك بعض الوقت فى لعب الطـاولة ، ثم يتفرغ بقية السهرة ليحكى للجـالسين عن أهم القضايا المعـروضة أمـام المحـاكم ، ويتنبأ بنهـاية كل قضيـة ، وكانت تنبؤاته غالبا تتحقـق ! وكان يتردد على القهوة نفسها مجموعة من الشباب من طلبـة الجامعات يشكلون تنظيما سريا يساريـا باسم «الحصن» وقد لفت نـدا نظرهم بنشاطه وثقـافته القانونيـة وصفات القيـادة التى يتميز بها وقـدرته على السيطـرة على الآخرين ، وتعمـد أفراد التنظيم الدخول مع ندا فى نقاش ، انتهى إلى خناقة حامية ، أعقبه صلح بين الطـرفين ، وتطـور الصلح إلى صداقـة ، وأخيرا أصبح نـدا عضـوا فى تنظيم الحصن ! وأقنعـه أعضـاء التنظيم بـالحصـول على البكالـوريا من منـازلهم ، ثم الانتساب إلى كليـة الحقوق ، وأكـدوا له جميعـا أنه لـو أقدم على هـذه الخطوة فسيكـون أعظم محام فى مصر وأوسعهم شهـرة ، ودخلت الفكرة رأس نـدا أفندى فانهمـك فى دراسة البكالـوريا ، واستطاع أن يتخطى هـذه العقبة بنجاح ، وأصبح طـالبا منتسبا بكلية الحقوق ، ولكن المحامى الذى يعمل عنده لاحظ أن ندا لم يعـد فى نشاطـه المعهـود ، أصبح كثير الغيـاب قليل الجهـد ، وعندمـا

اكتشف أنه انتسب إلى كلية الحقوق فصلـه من العمل ، وحاول ندا أن يحل مشكلتـه بالعمل فى مكتب محام آخـر ، ولكن تنظيم الحصن حل المشكلة بطريقته ، عـرض على الزميل ندا أن يحترف العمل السياسى ، وأن يتولى قيادة التنظيم نظير أجر ، ويتفرغ فى الوقت نفسه لدراسته ، خصـوصا أنـه أصبح فى السنة الثـالثـة ، ولم يبق أمامـه سوى عـام وبعض عام ليصبح محاميا يشار إليـه بالبنان . ووافق ندا على عرض الزملاء بالرغم من ضعف المرتب ، وهكذا أصبح قائدا لتنظيم الحصن وطالب علم على مـرمى حجر من الليسانس ، أغرب شىء أنـه استطاع فى الموعد المحـدد أن يحصل على الليسـانس بدرجة جيـد ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يخرج بالتنظيم مـن الحلقة الضيقة إلى رحاب أوسـع ، وأصبح شـهيرا فى الحركـة الشيـوعيـة ، وتمكن فى فترة قصيرة من الـدخـول فى معارك رهيبـة ضـد تنظيمات أخـرى صغيرة ، ونجح فى تصفيتهـا وضم قـواعدهـا إلى تنظيم الحصن ، ومـرت فترة التمـرين كمحام سريعة وعـاصفة، وأصبح ندا بعدهـا محاميا فى مكتب مستقل وله تليفون وكاتب ، واختص نـدا بقضايا أعضـاء التنظيمات السرية فى مصر ، وصارت له مكانـة خاصة بين أعضائها ، وبالـرغم من حرصه وحذره ، فقـد دخل السجن معتقلا وغـاب فيه ثـلاثة أعـوام ، ثم عاود العمل السيـاسى بعـد أن قـام بتطهير حـزبـه ، واستبعـد المهـادنين والمترددين، وحمل حملـة شعـواء على الاتحاد السـوفيتى ، وأعلن أن الاشتراكية الحقيقيـة فى آسيا وليست فى أوروبـا ، ورفع شعار الصين وطـريق الاشتراكيـة ، وأسس تنظيمه الجديـد على أسس متينـة ومن أفراد عرفـوا بصلابتهم وقوة شكيمتهم ، ودخل فى معـارك عنيفة ضد جميع التنظيمات المعـادية واتهمها بـالعمالة والتبعيـة ، وبأنها دوائر ديدانية لا تعبر عن أحلام وآمال شعب مصر !

واشتدت حملتـه ضد حكـومة مصر فـاتهمها بـالعمالة للحكـومة

الروسية التـي هى حليف قوى للامبرياليـة الأمريكية ، واتهم السفير الروسى بأنـه المندوب السامى فى القاهـرة ، وأنه يحكم مصر من وراء ستار ! وكـان يمكن للزعيـم ندا أن يمضـى فى طـريقه إلى مـا لا نهاية ، ولكنـه لم يفطن إلى حقيقة مـرعبة ، وهى أن الـرجال أصحـاب الإرادة الحديـدية الـذين اختارهـم لقيادة مصر على طـريق الاشتراكية كـان بعضـهم يعمل لحساب جهـاز المباحث فى لحظة ما فى التـاريخ .. كانت مصر تمر بظـروف سيـاسيـة معينة ، وحكمت السيـاسـة أن تتخـذ الحكومة موقفا متشددا من اتجاه سياسى معين لكى تنفى عن نفسها صفة الانحياز ، وكانت الطبخة قد استوت بالنسبة لتنظيم الرفيق ندا ، فوجـد نفسه فجأة متهما فى قضية سيـاسية كبرى ، وصفتها النيـابة العـامة بأنها قضيـة الجيل ! كانت الحكـومة تهدف من وراء الحملـة الإعلامية الواسعة بإبلاغ رسالة إلى العالم كله ، ولكن الرفيق ندا دخل فى ملابـس الدور وارتاح فيـه ، ووقف أمـام عدسات المصـورين على أسـاس أنـه الـوريث الشرعى للسلطـة وهـو الـزعيم القـادم المؤهل للجلوس على دكـة الحكم فى مصر ، وانتهت الضجة الإعـلامية وانتهت القضية وأرسلوا الزعيم ندا إلى السجن ليقضى خمسة عشر عاما وراء الأسوار !

ولا يعرف محنـة السجن إلا من عانى التجـربة ، وعـاما بعـد عام انكمش الـزعيم وتقلص وتحولت حياتـه إلى جحيم ، بسبب الكراهيـة الشـديدة التى يشعـر بها النـزلاء نحوه ، ليـس النزلاء وحـدهم ولكن الحراس أيضا ، حتى المأمور الطيب رمزى صاحب الخبرة الواسعة فى إدارة السجون كـان لا يطيق رؤيته ، وعنـدما وقـع بصرى عليه لأول مرة كـان قد مضى عليه سبعة أعـوام كاملة ، وفى عـالم السجون أنت تفقـد احترامك إلى الأبد، إذا فقـدت احترامك مـرة واحـدة ، وبالنسبـة للحراس جميع النزلاء سـواء الذين سجنوا فى قضية سيـاسية والذين

سجنوا فى حادث سرقة عشة فراخ ، وقدرك عند الحراس يتوقف على قدرتك المادية ، وعلى المدى الذى تستطيع أن تذهب إليه فى رشوتهم ، وبالنسبة للضباط الأمر يختلف ، كان فى السجن ضابطان من تحت السلاح ، وكانا أكثرنهما للرشوة من الحراس الصغار ، وعلى الجانب الآخر كان هناك ضابط اسمه محسن السرساوى كان يعامل المساجين بضمير قاض فى محكمة العدل الدولية ، وكان ينفق أحيانا من جيبه على بعض النزلاء الذين سجنوا فى قضايا تسول ، وكان هناك رمزى المأمور ولو قدر للعدل أن يسود لتولى أمر مصلحة السجون إلى نهاية العمر ، وبالنسبة للزعيم ندا .. فلم يكن معه ما يرشو به الحراس ، ولذلك كانوا حريصين على تطبيق لائحة السجن عليه ، فلا خروج من العنبر إلا لمدة نصف ساعة ولا ممارسة للرياضة إلا فى حدود الوقت المسموح به .

وبالنسبة للضباط كانت العلاقة متوترة دائما بينهم وبينه ، كان يخاطب الجميع من طراطيف أنفه ، وكان يتوعدهم بأسوأ مصير عندما يجلس على دكة الحكم ، وكان يعد بعضهم أحيانا بوظائف عليا فى جهاز الأمن ، ولكن بمرور الوقت اعتبروا الوعد نكتة ، واعتقد بعضهم أن الزعيم ندا مخبول على نحو ما !

أما بالنسبة للزملاء .. فقد عاملوه فى البداية على أنه سياسى ، وللسياسيين وضع خاص فى السجون ، فهم إما أصحاب قضية وإما أصحاب مناصب رفيعة ، وهم فى كل الحالات يتصرفون بحكمة ويعرفون كيف يروضون أعتى المجرمين ! أما الزعيم ندا فقد كان يعتبر نفسه من معدن آخر ، وصنف ممتاز وسط هذه الحثالة من المذنبين ! وقد يغفر المذنبون لصاحب هذا السلوك إذا كان قرشه حاضرا وإيده فرطة ، أما إذا كان مثل الزعيم ندا .. لا فلوس ولا كلمة حلوة فنهاره أزرق وأيامه فى لون الغراب ، كان يكوى ملابسه

ولا يدفع وكان يعد الميسرة جـزءاً من الأساطير والخرافات مثل الغول والعنقـاء والخل الـوفى ، وكـان يكتـب الشكـاوى ضـد إدارة السجن بأسلـوب متمرس خبير ككـاتب محام ، وكانت شكـواه تحرك مفتشى الـداخلية للتحقيق فى الأمـر ، وكانت هـذه التحقيقات تسبب الصـداع لإدارة السجن ، واستهدفت شكواه بعـض زملائه من النزلاء وتسببت فى تغريب بعضـهم إلى سجـون أخرى ، وفى تـوقيع العقاب على البعض الآخر ، وكاد الزعيم ندا أن يفقد حياتـه عندما حاول «اللوا» الكرداسى طعنه بنصلة حادة ، فهو معتـاد إجرام وسوابق ويتمتع بوضع خاص فى السـجن ، وعنده داخل زنـزانته كل أنـواع الممنوعات ، وبـالرغم من ذلك لم تخضـع زنـــزانتـــه للتفتيش فى أى وقت ، وذلك اتقــاء لشره ، وأيضـا لأنــه كان يســاهم فى حفظ النظام داخل السجن ، وكـان يؤدى خدمـات جليلة للإدارة ولكـن «سكيتى ومن تحت لتحت !!» وحدث أن اللـوا الكرداسـى فـوجىء بتفتيش مفـاجىء على زنـزانته ، وأقسم لـه حضرة الصـول أن أمـــر التفتيش صــدر من جهـــة خـارج السجن ، فتصـور الكرداسـى أن ندا كان وراء الشكـوى للجهة إياها ، خصوصا وأنه ألـح منذ أسبوع على نـدا أن يدفع ديـونه التى تضـاعفت فى المدة الأخيرة ، ومن حسن الحظ أن النصلة لم تنفذ فى بطنــه ولكنها خدشت الجلد فقط لكثـرة الملابس التى كان يـرتديها ندا اتقـاء للبرد ، إلى هذا الحد اشتهـر الـــزعيم نـدا فى السجن ، حتى أصبح أصغـــر وأحقـر مسجـون ، يتصـور أن نـدا وراء العقوبة التى نزلت بـــه ! الزعيم تحول إلى جهـــاز أمن خـــاص خلف الأســـوار ، الكل يخشـــاه ويتقى شره ويتحـاشاه وينظـر إليه بـاحتقار، ولكن حـدث فجأة ما جعل الأمـور تنقلب رأسا على عقب ، جاء إلى السجن أفراد تنظيم يسارى آخر ، كان من رأيــه أن الحكـومة تحقق الاشتراكيـة وتمضـى على طـريق لينين ، وعندمــا دخل ندا السجن كانت أشـــد حملة ضده هى التى تولاهــا هذا

التنظيم القادم إلى السجن ، ولـذلك كانت سعادة ندا بـوصول أعضاء التنظيم إلى السجن بلا حـدود ، وتصور نـدا أنه ما دام أصحـاب هذا الاتجاه دخلوا السجن فـلابد أن الإفراج عنـه بات أقرب إليـه من باب الزنزانة ، وأخـذ يتصرف على أساس أنه فى الطريق إلى الخارج ، ثم إلى السلطة بعد ذلك ، وتمادى فى هذا الاتجاه إلى درجـة أنه كان يحتفظ فى زنزانتـه بمرتبـة قطن حرص على إعـادتها لأصحابها فى الخارج ، فما حاجتـه إليها الآن وقـد أصبح على أبواب الحريـة ؟ وانشغل ندا أغلب الـوقت فى تأكيد أن أعضـاء التنظيمات المعـادية لخطتـه ، هم فى واقع الأمر خونـة وعملاء لحكومة موسكو التى تـدفع أجورا منتظمة لهم !! وتصـور ندا أنـه بهذا العـداء السافـر للتنظيمات التى انقلبت عليهـا الحكومـة ، يؤدى خدمة للحكـومة ويساعد فى فتح الأبـواب لنفسه إلى الحرية ! وتأكد ندا أنه يسلك الطريق الصحيح لدرجة أن بعض النزلاء الذين كـانوا يمضون فترة عقـوبة فى قضـايا رشوة واختـلاس أخذوا يتقـربـون مـن نـدا ، وبعضـهم راح يمـده بعلب السجـايـر وبعض الأصنـاف الفاخـرة من الطعام ، وكـان أحـد هؤلاء يعمل قبل سجنـه مديرا لبنك وجاء إلى السجن ليقضى عقـوبة مدتها سبع سنوات نظير اختـلاسه مئـات الألوف من الجنيهـات ! وراح نـدا يقضى معه وقتـا طويـلا يناقشـه فى الأحوال الاقتصاديـة فى مصر وكيفية إصـلاحها ، حتى اقتنع مديـر البنك السابق أن أسئلة نـدا تحمل فى ثناياها عـرضا أكثر أهمية ، ربما كان ندا يختبره للاستعـانة به فى منصب كبير عندما يخرج ندا مـن سجنه ويتولى الـوزارة ، ومديـر البنك السابـق يعرف الطريق الصحيح لانعاش مصر وإخراجها بسـلام من عنق الزجاجة ، صحيح أن فكـرتـه عن الحل كانت تختلف تمام الاختـلاف عن فكـرة الزعيم ندا ، وبـالرغم من ذلك كان ندا يستمـع باهتمام ويدون بعض النقـاط فى أجندة صغيرة ! وتـوطدت العـلاقة بين الـزعيم والمختلس ،

لـــدرجـــة أن المسائل تطورت من مناقشة المسائل العامة إلى المسائل الخاصـــة ، واندهش المختلس عنـدمـا علم أن الزعيم لم يكن لـه فى أى وقت حياة خاصة ، لقد شغله العمل العام عن كل ما عداه ، فلم يكن له زوجـة أو بيت أو أسرة ، حتى شقيقه الأكبر حـرص على الابتعاد عنـه فانتقل للعمل فى كفر الشيخ حتى ينجو بنفسـه ، وهو خلال السنوات الطويلة التى قضـاها بين الأسوار لم يحضر أحد من أقاربه لـزيارته ، ولم يستطع خـلال فترة سجنـه أن يحقق الراحـة لنفسـه لضيق ذات اليد ، لأن صندوق أماناته لا يحتـوى على قرش واحد ، وهو يفكر بعد خروجـه من السجن فى الزواج قبل أن ينشغل بـالسلطة ، لم يكـد يمر أسبـوع واحـد على هذا الحوار حتـى فوجىء الـزعيم نـدا بشـاويش الأمـانـات يستدعيـه لكى يـوقع على المبلغ الـذى تلقتـه إدارة السـجن بالبريد وقدره مائة جنيه!! وبعد أيام قلائل من وصول المبلغ استدعت إدارة السجن الزعيم نـدا لزيارة خـاصة ، زيارة خـاصة !؟ يا لنـذالة البشر ، أخيرا وبعد أن عرفـوا أنه فى طريقه إلى الافراج همّوا لـزيارته !! خرج ندا من زنـزانته يتحرق شوقـا لمعرفة هذا الزائر الـذى جاء بعد فوات الأوان ، وكـاد يغمى على الزعيـم ندا عندمـا اكتشف أنها زائرة ، سيدة فى الأربعينات مـن عمرها ، جمالها صارخ ، شعر أصفـر طويل وعينـان ملونتـان وشفتـان مكتنزتـان ، وبشرة نـاعمة ليس بها أثـر لخدشة أو هبشة ، عنـدما وضـع يده فى يدها كـاد يقع مغشيا عليه من شدة الهول ، الـرائحة التى تنبعث مـن جسدها البض التـى نفذت إلى خياشيمه ، كادت تطرحـه أرضا ، وقف مبهورا فترة أمام السيدة التى لا يعرفها وإن كانت هى تعرفه .. وعندما نطقت باسمه اهتز بدنه كله ، فقـد كان صـوتها أشبه بعـود يعزف عليـه محمـد عبد الـوهاب ، يـا سلام.. أخيرا عرف ندا المعنى الحقيقى للسجن ، السجن هو مكان بلا نساء ، أى مكـان بلا نسـاء هو سجن فى حقيقـة الأمر ، حتى ولو كان هذا المكان فى الجنة !!

يا لها من مفاجأة مذهلة ، هذه السيـدة هى شقيقة جلال بك مدير البنك والمسجون حاليا بتهمة الاختـلاس ، وهى جاءت لزيارة شقيقها ولكن شقيقها استنفـد كل زياراتـه ، فلجأت إلى هذا الأسلـوب بعد أن عرفت أن ندا هـو أقرب النزلاء إلى شقيقها جلال ، ومـرت الساعة التى هى مـدة الـزيـارة كأنها دقيقـة واحدة ، ولكنهـا كـانت كـافيـة لكى يتفحصهـا ندا بـدقـة ، الصـدر البارز ، الخصر المخنـوق ، السيقـان المخروطة كـأنها إنتاج ماكينة لا تخطىء الحساب ، يـا لها من صورة مثالية للمرأة الجميلة وكما ينبغى أن تكون ؟! ، وعنـدما مد يده نحوها لوداعها جـذبت يده ولولا الملامة لارتمى فى أحضــانها وبكى من شدة الغيظ ، صرفـه الكفـاح فى سبيل الجنــة الموعـودة عن رؤيـة الجنـة الموجودة ، يا لها من سذاجة ضيعت العمر فى الأوهام .

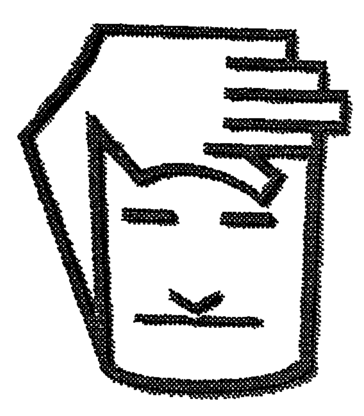
ليس اسعــد من جـلال بك المختلس على ظهــر الأرض ، استمتع بالمنصب وبالفلوس وبالنساء ، عاش حياته بالطول وبالعرض ، بينما دفن ندا نفسه بالحياة !!

عندما عـاد ندا إلى زنزانته كان محملا بما لـذ وطاب ، لحوم وفراخ وفواكه وحلويات ، كمية تكفيـه عدة أيام ، وعندما هم بتسليمها لجلال رفض بشدة قائلا له :

دى حاجتك أنت ، أنا بس هاكل معاك !!

كانـت شقيقة جلال هى محور حـديث الزعيم والمختلـس فى الأيام التى أعقبت الزيارة ، كان السؤال الذى اهتم ندا بمعرفة جوابه هو :

هيه اختك متجوزة ؟



٧ المـرتبـة

●●كان لقب الزعيم هو اللقب الأثير إلى نفس «نبيل» ويجب أن يناديه نزلاء السجن به، وعلى هذا الأساس كان أسلوب تعامله معهم. بدأ الزعيم المنتظر حياته كاتبا لمحام مشهور، ومن فرط ثقافته القانونية صار مرجعا للمحامين والقاضين معا. جمع «نبيل» بين الانتساب لكلية الحقوق والانتساب لتنظيم «الحصن» اليسارى، والذى صار قائدا له بعد فترةوجيزة. نجح الزعيم المنتظر فى الليسانس، وفى قيادة التنظيم فى آن واحد. وصار له مكتب مستقل. وتخصص فى قضايا أعضاء التنظيمات السرية إلى أن اعتقل لمدة ثلاثة أعوام، ثم خرج بعدها ليمارس العمل السياسى، ويعيد تنظيمه فى ثوب جديد، فعادى التنظيمات الأخرى والحكومة ـ معا ـ إلى أن دخل السجن مرة ثانية لقضى فيه خمسة عشر عاما! وفى السجن كانت العلاقة متوترة بينه وبين ضباط السجن، فهو لا يحدثهم إلا من منطلق أنه الزعيم المنتظر: وبالنسبة للنزلاء فهم يعتقدون أنه وراء العقاب التى تنزل بهم من جراء كتابته للشكاوى الكيدية ضدهم، فلم يسلم منهم، ولم يسلموا منه، وتحاشاه النزلاء باعتباره جهاز أمن خاص خلف الأسوار! ولكن سرعان ما تقرب إليه النزلاء بشتى أنواع الهدايا بعد أن ظنوا أنه فى طريقه إلى الافراج عنه ثم إلى السلطة. وتوطدت علاقته ـ بصفة خاصة ـ بـ«جلال» مدير بنك مختلس، تجاذب مع «نبيل» أطراف الحديث فى القضايا العامة والخاصة، وزاد هذه العلاقة زيارة أخت جلال لـ«نبيل» والذى لم يزره أحد من قبل!، ويعجب «نبيل» بجمالها الصارخ، ويدور الحوار مع «جلال» ـ بعد زيارة أخته لـ«نبيل» ـ فى قضية واحدة هى: هـل اختـك متـزوجـة؟! ●●





● المرتبة ●

يـاله من خبر نـزل على قلب ندا نـزول الماء المثلج فى معـدة رجل قطع عـدة أميـال على قـدميـه فى صحـراء محرقة. السيـدة ليست متـزوجة وسيكـون زواجه بها خير تعـويض له عما لقيـه فى الحياة. ولكن هل تـرضى صفية بـه زوجا؟ ولم لا ؟ وهو لم يـزل شابا فى الثـانية والخمسـين من عمره، ثم إنـه على أبواب مستقبل عظيم. أخذ يطرح أسئلة متفرقـة على البيه المختلس، وكان البيه المختلس ذكيـا إلى الحد الذى فهم من خـلالها ما يـرمى إليه ندا .

وجاءت كـل الإجابـات على مزاج ندا وعلى هـواه. فهى مطلقـة بعد زواج فاشـل مـع رجـل سـكير وعديم الشرف. ورط البيـه شـقيقها فى سلفيـات من البنك، ربما كـانت هـى الخطوة الأولى التـى قادتـه إلى السجن .

تصـور.. كان يضربها بشـدة وذات مـرة عضهـا بطريقـة بشعـة تركت أثـرا أبشع من الأثر الذى تتركه عضـة كلب. وأخيرا تم الطلاق، ولأن اللـه عالم بأحـوال الولايـا، فقد شـاءت إرادة الله ألا تنجب منـه نسلا، فخرجت بهدومها من بيت زوجها إلى حيث لا تعود !

وابتسم ندا ابتسامة رضا وأمل، وعكف فى الأيام التالية على تحرير برنامج حكـومته. عمل لكل عاطل وأمل لكل يائس ومـدرسة لكل طفل ومكان فى الجامعة لكل شاب وسريـر فى المستشفى لكل مريض. وقرأ ندا البرنـامج على صهره المنتظـر فهتف له وهلـل. ولكن ندا بـدا عليه

القلق، وعندما سأله المختلس إبراهيم عن سر قلقه ، أجاب :

ـ كل البرامج تبقى مع وقف التنفيذ إلا إذا توفر المال الذى يجعلها حقيقة واقعة.

وبعد فترة صمت قال لابراهيم :

ــ سأترك هذه المهمة لك لأننى سأتفرغ للسياسة الخارجية وللأمن الداخلى، أما مسألة تدبير الميزانية فسأتركها لأهل مكة لأنهم أعلم بشعابها ! مضت الأيام بطيئة ومملة، ونـدا أصبح ينام على الأسفلت بعد أن أرسل المرتبة لأصحابها خارج الأسوار. والذى أصابه بالاحباط أنه لم يسمع أى صدى لآرائه فيما ينبغى على النظام أن يفعله بعد ضربته الموجعة ضد حلفاء موسكو فى مصر. إنه لم يكتف بالتأييد الشفهى ، ولكن أرسل عشرات الخطابات إلى رئيس الجمهورية ضمنها خبرته وتجربته الطويلة. ليس أمام النظام إلا سلوك الطريق الآخر والاتجاه بأقصى سرعة نحو الصين.. الشيوعية الروسية رأسمالية مبطنة، والمواطن الروسى يعيش تحت قهر يتضاءل إلى جانبه القهر الذى يعيش تحته مواطن فى دولة نامية. ولا أحد فى مصر كلها يفهم فى اشتراكية الصين إلا الرفيق ندا، وهو على أتم الاستعداد لقيادة البلد لتحقيق الكفاية والعدل ودخل قومى مرتفع وتوزيع عادل على الجميع .

عدة أسابيع مرت طويلة ومملة على الزعيم ندا، ولكن ابراهيم كان منشغلا بالبحث عن طريقة سريعة لدفع الدم فى عروق الاقتصاد المصرى. المشكلة أن كل الطرق التى تؤدى إلى ذلك هى طرق رأسمالية، والزعيم ندا يريد طرقا ووسائل اشتراكية. ولكن لماذا لا تكون هذه نظرية جديدة ولا بأس من أن تنسب النظرية الجديدة إلى الزعيم ندا، النظرية الجديدة هى وضع الوسائل الرأسمالية فى خدمة الأهداف الاشتراكية .

هتف الزعيم ندا وهو يستمع إلى بنود النظرية الجديدة.. التجربة

البريطانية !! بريطانيـا دولة رأسمالية ولكنها تطبق النظام الاشتراكى.
وأنكر ابراهيم أنـه اقتبس نظريته من بريطانيا. وهـو لم يسهر الليالى الطويلة الكئيبة داخل زنزانتــه إلا لكى يحقق للزعيم ندا ما يحلم به من مجتمع الكفاية والعدل عندما يقـود سفينة البلاد إلى شاطىء الأحلام.
وطمأنه الزعيم نـدا إلى أنه لم يقصد أن يوجه إليـه اتهاما من أى نوع.
فالنظـرية التى تـوصل إليها ابراهيـم نظرية جـديدة، وإن كـانت قد وجدت طريقها إلى التطبيق من قبل والجديـد الآن هو أن النظرية ذاتها التى تطبقهـا بريطـانيـا سيجرى تطبيقهـا لأول مرة تحت شعـارات اشتراكية وفى دولة تحقق الاشتراكية .

إن الصين لم تخترع صناعـات جديدة، ولكنهـا قلدت الصنـاعات الموجودة فى الغرب، وضربت السوق عندمـا عرضتها بأسعار رخيصة وحتى اليـابان نفسهـا صنعت نفس الشىء إنها لم تخترع السيـارات ولكنها قلدتها، وبعد أربعين عاما ضربت اليابان السوق كلها وتسببت فى قتل صناعة السيارات فى أمريكا .

ـ أبشر يا إبراهيم ، فنظريتك جديدة تماما .

وأقسم ابراهيم للزعيم ندا، أنها ليست نظريته على الإطلاق، ولكنها جاءته نتيجة مناقشاتـه مع الزعيم ندا الذى هو صاحب الفضل الأول فى الوصول إلى النظرية الجديدة !

وسكت ابراهيم لحظة عن الكلام قبل أن يستطرد قائلا :

إحنـا طبعـا هنـا مسـاجين مع بعض، ولكن العين مـا تعـلاش ع الحاجب وعـاوزك تعتبرنى خـدامك. وتأكد يـا نـدا بك.. أنـه لوحـدث وغلطت مرة يبقى بحسن نية، وإن صـدر منى شىء ما عاجبكش لازم تلفت نظرى وتعاقبنى لو حبيت. اعتبرنـى ابنك أو واحدا من تلاميذك، مش قصـــدى ابنك فى السن. لكن ابنك فى التجـربـة وابنك فى الخبرة وابنك فى العلم !

تكـررت زيارات صفيـة لسجن القناطـر، وكلها كـانت من نصيب

الـزعيم ندا وفى الأيـام التى كانت تأتى فيهـا صفية إلى السجن، كـان الزعيم ندا يبدو هادىء الأعصاب سعيـدا على نحو ما. وكان قد انتهى من تأليف حكومتـه المنتظرة، ولم يرد ذكر ابـراهيم فى كشف الوزارة. وعندما بدا القلق على وجه ابراهيم، قال له الزعيم ندا :

ـ دى سياســة عليا ما تعرفهـاش انت، انت تهمتك الاختلاس، ولو حطيتك فى الـوزارة الناس كلامهـا كتير. لكن انت هتكـون مستشـارى الاقتصادى.

وصاح ابراهيم فى قلق :

ـ طيب وافرض الوزير مـارضيش يعمل با لمشورة. وابتسم الزعيم ندا ابتسامة ذات معنى وقال :

ـ أنت أصلك لســه غشيم فى السياسة. الـوزراء دول مجرد واجهة مـاحدش منهم لـه قيمـة. العملية كلهـا هتبقى فى إيـدينا إحنـا، واللى هنشور بيه هو اللى هيمشى. سيب الحاجـات دى ليه أنا. انت مالكش دعوه .

وسكت ابـراهيم امتثالا لتعليمات الـزعيم، ولكنه ومهما كـان الأمر كـان يـود أن يكون وزيـرا يظهـر فى الصحف ويصرح على صفحـات الجرائد، ويضع أصابعه فى عيون هؤلاء الـذين وشوا به وشهدوا عليه وزجـوا بـه فى السجن، ولكن السيـاسة لها أحكـام وعليـه بـالصمت والصبر حتى تسنح الفرصــة ليمارس على أرض الواقع ماكـان يراه فى الأحلام .

صحيح «فعسى أن تكرهـوا شيئا وهــو خير لكم»، لولا وقـوعه فى الفخ ومحاكمته وسجنه، ماسنحت الفرصة على الإطلاق لرؤية الزعيم ندا .

وأين كان بـاستطاعته أن يـراه، لقد عـاش ابراهيم حياتـه كلها فى دائرة مغلقة، البنك وشلة الأصدقاء الـذين يعملون فى سوق المال. كان

يسمع أحيانا عن الشيوعيين ولكـن من خلال ماتنشره الصحف. وكان يتصور أحيانا أن لهم أنيابا ومخالـب وذقونا طويلة. وأنهم مجرمون بالسليقة يكرهون المال ويخططون لنسف البنوك وشنق المتعاملين فى البورصة. ولكن ها هى الصدفة وحدهـا تسوقه لمعرفة الزعيم ندا. إنه يؤمن أيضا بأن المال عصب الحيـاة وهو أساس كل تنمية، وهـو يوما مـا سيصبح مستشـارا للـزعيم ندا فى شئـون الميـزانيـة والتخطيط. وسيحقق ابـراهيم مـالم يكن يحلـم بـه على الإطـلاق. والغـريب أنـه سيحقق كل شيء من خلال من تصور أنهم أعدى أعدائه !

مرت شهـور طويلـة دون أن تصل إلى أسماع نـدا أخبار جـديدة. مايخشاه الزعيم ندا أن تكون المخابـرات المركزية الأمريكية قد شمت اتجاه الريح فتدخلت لإجهاض المسيرة. ولكـن حتى لو حدث هذا فلن يكـون لهذا التـدخل أى تأثير لأن الاتجاه الصحيح سيفـرض نفسـه حتما لأنـه الطـريق الـوحيـد لحل كل المشـاكل. ولكن وبـالـرغم من اطمئنان الـزعيم ندا إلى النتائج، إلا أنـه بدأ يشعـر بالقلق ولكن القلق تحول إلى إحساس رهيب أخذ ينهش فى عقله وكان السبب الرئيسى فى هذا الهاجس هو انقطاع صفية عن زيـارة الزعيم. عندما سأل ابراهيم عن السبب قال إنها مـريضة وهنـاك إشارات بأنها تعـانى من مرض خبيث. ولكن حـدث مـالخبط كيـان نـدا وجعلـه لا ينـام الليل. لقـد استـدعت إدارة السجن ابـراهيم ذات صبـاح، ثم علم نـدا من بعض الحراس أن إحدى السيدات كانت فى زيارة خـاصة له بإذن من النائب العام. وعنـدما عاد ابـراهيم أبلغ ندا أن صفية جـاءت لزيارتـه لتبلغه بأنها ستجـرى عمليـة خطيرة لايعلـم نتيجتهـا إلا اللـه. صحيح أنها جاءت معها ببعض المأكولات والفواكه عـرضها ابراهيم على ندا ولكنه رفض أن يتذوقها. ولم يبد على إبراهيم أنها تـركت رسالة من أى نوع للزعيم ندا، واضطر ندا أن يسأله فأجاب بالنفى .

- أصلها فى حالة وحشة قوى، أنا نفسى ما عرفتهاش .

بعد أيام قليلة من زيـارة صفية للسجن، نقل ابراهيم من العنبر إلى مستشفى السجن. وعندما ذهب ندا لزيـارته لمس منه تغيرا فى المعاملة فالكلام بحسـاب، والعواطف القديمة تجمدت، وانتهت الزيـارة عندما أبدى ابراهيم رغبـة فى النوم. بعد أيام أخـرى غادر ابراهيم مستشفى السجن إلى مستشفى قصر العينى وبعـدها بأيـام نشرت الصحف أن قـرارا جمهـوريـا صـدر بإعـادة محاكمـة كل المختلسين والمهـربين ولصوص المال العـام الذين سبقت محاكمتهـم أمام محاكم عسكـرية لقد أفـرجوا عن ابـراهيم وهو الآن فى عمله القـديم انتظارا للمحـاكمة أمام المحـاكم المدنية وانتظـر ندا أن تصلـه رسالة مـن ابراهيم، ربما يأتى لزيارة، على الأقل ليطمئنـه على صفية، ولكن الأيام مرت دون أن يتحقق ماتوقعـه ندا. أخذت الأحوال تسوء بالنسبة للـزعيم ندا. عادت التكـديـرة إلى السجن. تفتيش الـزنـازين بين الحين والآخـر. إغـلاق الزنازين أغلب الـوقت، اختصار أوقات الفسحة، الغاء فترة الـرياضة، ولم يقع هذا التغيير إلا على المسجونين السياسيين، كان الاحتفال بعيد ثـورة مايـو قـد اقترب، وقبل الاحتفـال بأيـام كانت جميـع قضايـا لصوص البنوك قد صـدر فيها حكم بالبراءة. وحملت إحدى الصحف صورة ابـراهيم وهو يشيـد بالعدالـة ويهاجم هؤلاء الحاقـدين الذين كانـوا السبب المباشر فى اتهام الشرفاء من الوطنيين. وحـدد الحاقدين بالشيوعيين عملاء موسكـو الذين أرادوا إزاحة كل الشرفاء ليخلو لهم الجو وتسقط مصر فى أيديهم .

وجاء احتفال العيد بثورة مايـو، واختار زعيم الثورة مكانا بعيدا فى الصحـراء واحتفل بـالعيـد مع عمال البترول واستمع الـزعيم نـدا للخطاب. بدأ الزعيم الخطاب وكـان أول القصيدة كفر. أعلن الزعيم فى وضوح أن الشيـوعية هى أساس شقاء العـالم، ووصف روسيا بأنها

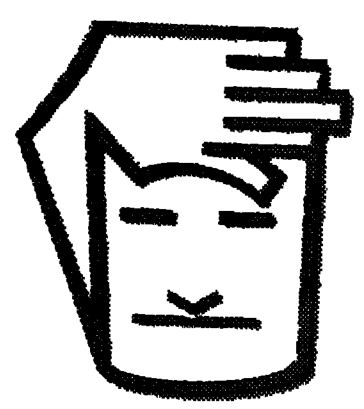
الشيطان الأكبر. أما الصين فهي الشيطـان الأعظم وختم الخطاب بأنه لا سلام ولا رخاء إلا بالقضاء على امبراطورية الشر .

يـالها من أيـام سوداء مـرت على الـزعيم ندا فى السجـن بعد هـذا الخطاب حتى المختلس ابراهيم صـورته منشورة على الصفحة الأولى. وحديث له مع المحرر يحمد فيه اللـه الذى وفق الأمة إلى طريق الهداية والإيمان. لايحفظ الاقتصــاد أو يصونــه إلا العـودة إلى طريق الـدين والتمسك بشريعتـه وحكى عن تجربتـــه فى السجن حين فـرض زعيم الشيوعيين نفســه عليه، وبالرغم مـن ضيقه الشديد بـالزعيم إلا أنها كـانت فرصـــة طيبة لاكتشــاف أخـلاق الاشتراكيين وما هم عليـه من وصولية وحقارة وعدم احترام للـذات. وحكى ابراهيم كيف كان الزعيم الاشتراكى نـدا يسطو على طعامــه ويتطفل على علبة سجـائره. وكيف حاول المستحيل لتجنيده فى تنظيم «الحصن» ولكن هيهات، فهو رجل مسلم ومؤمن بالله ويخاف من يوم لا ينفع فيه مال ولابنون !

تحت موجـة من الانفعال الشديـد أمسك الزعيم ندا بـورقة وكتب خطابا لابراهيم عنفه فيه بشدة وتوعده بالانتقام الشديد عندما تنجح الجماهير فى القيـام بثـورتها التى ستطيح بـالنظام العميل الفـاسـد. وحـذره من العودة إلى مثل هـذا العمل مرة أخـرى، لأنه يحتفظ معـه ببرنامج حكـومة الشعب بقيـادة الزعيم نـدا وبخط يد ابـراهيم نفسه وتصـور الزعيم نـدا أن ابراهيم سيركع وسيأتى لـزيارتـه فى السجن متـوسلا وحـدث ما تـوقعـه الزعيم نـدا، فقـد حضر بعد أيـام بعض الحراس واقتادوا الزعيم ندا إلى نيابة أمن الدولة. وجرى التحقيق معه حول الخطاب الذى أرسله لإبراهيم. وعنـدما عاد فى المساء إلى زنزانته شعر بأن رأســه سينفجر. مــا الذى جرى فى الكـون وما الـذى حدث للناس. هل كان تحليل الـزعيم ندا مجرد خطأ فى التحليل؟ أم كان من بـاب العبث ولعب العيـال. هل يجب إعـادة النظـر فى كل شىء وفى أى

شيء؟ لا مفـــر من العـودة إلى حضن الجماهير والالتحـــام بجمـوع الشغيلة والعرقـانين. وعكف ندا على تحرير خطاب للـرجل الذى يقود تنظيم الحصن خـارج الأسـوار. لقـد طلـب نـدا حل التنظيم وإعـادة تنظيمـه من جديـد وبعناصر مقـاتلة وشـديدة الصـلابة ومستعـدة لمواصلة المشوار حتى آخـر الدهر. لابد من قيادات جديـدة ودم جديد ونظرية جديدة قادرة على اكتشاف الطريق إلى الجنة الموعودة.

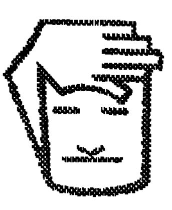
ولكن .. الـزعيم ندا لم يتلق ردا على خطـابه، فقـد تولى نائبـه حل الحزب منـذ فترة، وبعض زعماء الحصن آثـروا العمل مع الثـورة الجديدة، وبعضـهم فـر خارج الحدود، أما الـرجل الذى تـولى القيادة بعد الزعيم ندا فقد وجد لنفسـه عملا مجزيا فى شركة لتوظيف الأموال. وأمسك الزعيـم ندا بورقـة وحرر خطـابا أخيرا لأحـد أقربـائه خارج الأسوار خطابـا قصيرا للغاية يطلب فيه إعـادة المرتبة إلى السجن فقد بدأ يشعر بالروماتيزم يسرى ويفرى فى عظامه !



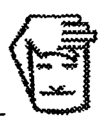
٨

الخواجا من أجل الشعب

●● خواجا في السجن ..!؟ ياله من حظ عاثر الذى جاء بهذا الخواجا إلى هذا المستنقع الحقير. ورحت أراقبه وهو يقطع الممر الضيق فى دور ٣ بسجن القناطر، وأحيانا يزوم فى صوت متحشرج وعالى النبرة كأنه ذئب محبوس. وتصورت أنه حزين أو على الأقل غير سعيد على هذا المصير الذى انتهى إليه. ولكن اكتشفت بعد لقائى معه فى حوش السجن أنه مجرم بالفطرة ، وأنها المرة الرابعة التى يدخل فيها السجن، وعقوبته هذه المرة خمس سنوات. كان يدعى روبير وهو خبير فى فتح الخزائن مهما كان حجمها أو وزنها. ولكن أدهشنى أنه ليس حزينا ولا نادما، بل يشعر بنوع من الراحة لأنه مسجون فى مصر. وتصورت أنه يكذب أو يسخر منى. ولكنى اكتشفت أنه صادق بالفعل ويرى أن السجن المصرى نعمة من نعم الله . ده السجن فسحة، السجان يفتح الساعة ٧ ويقفل الساعة ٥، ومن ٧ إلى ٥ مالوش دعوة بالمسجون... المسجون بره ما عندكش فكرة أنت مقفول عليك الـ٢٤ ساعة. مالكش غير نصف ساعة الصبح ونصف بعد الظهر صحيح الفرشة أحسن والأكل أحسن، لكن دى حاجات تقدر توفرها لنفسك فى السجن المصرى المهم إنك هنا ما تحسش بأنك مسجون ●●







- وجربت السجن بره يا روبير ؟

- اتسجنت في باريس وفي لبنان، وفي تركيا الموت أحسن م السجن.

كان يتكلم بطريقة تؤكد أنه حصل على قسط من التعليم، ويتعمد نطق بعض الكلمات الفرنسية أثناء الحديث. ولكن لماذا ذهب إلى باريس؟ ولماذا دخل السجن هناك ؟

- الفاميليا كلها هاجرت من مصر بعد حرب ٥٦، بس مارضيتش أسافر معاها. أنا عشت هنا وحياتي كلها هنا. ولما سافرت باريش علشان أزور الفاميليا، واحد من أصدقاء الفاميليا قصدني. رحت أفتح له خزنة .مسكوني حكموا على بسنتين أفرجوا عني بعد سنة لحسن السير والسلوك ورحلوني على مصر .

- تقول لحسن السير والسلوك !

ربما شعر روبير أن عبارتي تحمل رنة سخرية فقال في حدة : بسلوكك في السجن. وبعدين عاوز أقول حاجة ..

وتوقف روبير عن الكلام، ثم أخرج علبة سجائر فرنسية التقط منها سيجارة وأشعلها وجذب منها نفسا عميقا.. ثم قال :

الحياة بره اتغيرت، والسجن بره مش للانتقام. السجن علاج والمسجون مريض. ويوم الإفراج يفتحوا باب السجن ويقولوا له اتفضل. هنا نهار الإفراج يبقى أسود يوم في حياة المسجون، يسلمونك للمباحث وهيه وكيفها. يمكن تخرج وغالبا ما تخرجش.

واستأذن روبير وانطلق فى السير بخطى واسعة .

كان منظره وهو يسرع الخطى لافتا للنظر. كان به عرج فى ساقه اليسرى وكان يسحب ساقه المعطوبة وكأنه كلب داست عليه عربية نقل فى طريق الصعيد وبالرغم من أنه حرامى ومسجل خطر، كان كل المسئولين فى السجن يهابونه ويتقون شره والسبب أنه يحفظ لائحة السجن صم، وكان خبيرا فى كتابة الشكاوى ضد الإدارة وخصوصا المدير والمأمور والدكتور. ولذلك عندما ادعى أنه مريض بالروماتيزم أمر له الدكتور ميشيل بمرتبة بدون أن يكشف عليه. وكان يتغطى ببطاطين من صنع فرنسا أرسلتها له أسرته وكان لا يأكل من طعام السجن. ولكنه يحصل على طعامه من الكانتين، ومن الزيارات التى يأتى بها بعض أصدقاؤه من السجن، وأحيانا كان يستخدم الحراس فى جلب بعض المأكولات من الخارج. وكان مصدر أذى للمساجين إذا اختلف معه مسجون كتب ضده شكاوى من مجهول وأحيانا من فاعل خير. وكانت الشكاوى التى يرسلها الخواجا تثير قلق السلطات، لأنه يتهم أعداءه بجرائم خطيرة ضد أمن الدولة، وكان ساعده الأيمن فى كتابة الشكاوى مجرما عريقا فى الإجرام يطلقون عليه فى السجن اسم مطوة. وسر التسمية أن الأخ مطوة كان باستطاعته أن يقلد ختم النسر أو أى ختم آخر إذا توفرت له مطوة جديدة لم تستعمل من قبل. طبعا لا يعرف أحد سر المطوة إلا الأخ مطوة نفسه. وكان مطوة حاذقا إلى درجة تثير الدهشة. حتى أنه استطاع الإفراج عن مسجون بخطاب صادر من رئاسة الجمهورية عليه ختم النسر وإمضاء جمال عبدالناصر! وكان ضابط العنبر الدسوقى يجامله بشدة، لأن الخواجا روبير كان بين الحين والحين يقدم له جزءا من الهدايا التى تصله من أقاربه من فرنسا ولأنه كان ضابط مخلة كما يقولون فقد كان يتقبل الهدايا شاكرا كرم الخواجا وعطفه. ومع أن روبير كان من صنف

الخواجـات وأقاربه يقيمون فى فرنسا، إلا أنه بالتأكيد لم يكن من أهل أوروبا. ولكنه فى الأصل كـان مالطيا، جاء جده مع حملـة نابليون من أهل مالطـا استخدمهم نابليون فى التمهيـد لغزوته لمصر، لينشروا بين الشعب المصرى أكـاذيب من نوع أن نـابليون مسلم وأنـه جاء لـرفع شأن الديـن وحماية المسلمين من ظلم المماليك! وقبل أن تتفجـر ثورة يوليو قضى روبير عـدة سنوات فى مدرسة الفيريـر. ولكنه استطاع أن يقنع عـددا من التلاميـذ على العمل بعد المدرسـة فى إرشاد السـائحين الفرنسيين فى زيارة الآثار والتردد على السوق. وبعد فترة من ممارسة هذا العمل استطـاع روبير إقناع هؤلاء التـلاميذ بالعمل طـوال الوقت لأن المدرسـة لن تفيـدهم فى شىء. وبعـد الثـورة انقطع السـواح عن زيارة مصر، وتصاعدت الأحداث فى مصر وتطورت إلى حرب دامية بين الثـورة الوليـدة وجيوش ثـلاث دول على رأسها بـريطانيـا وفرنسـا واسرائيل أيضـا. ونشطت بعـد الحرب عمليـات هجـرة الأجـانب إلى الخارج. وسرعــان مــا فتح روبير مكتبا صغيرا فى حى السكاكينى لمساعدة الراغبين فى الهجرة وتهريب أموالهم، وبالرغم من قيامه بعدد كبير من العمليات إلا أن الأجـانب الذين اتفقوا معه لم يتسلمـوا قرشا واحدا من أموالهم، لأن روبير وضع المبالغ التى تلقـاها كلها فى جيبه! وبعـد أن استقرت الأمـور فى مصر استخدم المكتب فى تأجير سيـارات للسـائحين الأجـانب، وفى نفس الـوقت قـام بتأليف تشكيل عصـابى لسرقة الأجـانب الذيـن يستأجرون سيـارات مكتبه. وكـان يستخدم السائقين الذين يعملون فى مكتبـه، وأول مرة ينكشف فيها أمر روبير كان فى عام ١٩٥٩ عندما اتفق هو وعصابته على سرقة زبون استأجر سيـارة بسائق مـن المكتب، ومن سوء حظ روبير أن الـزبـون لم يكن عـاديا، ولكنـه كـان رجل أمن انجليـزى فى مهمـة سرية تحت ستـار السياحة لكى يبحث مصير بعض الجنـود الانجليز الذين اختفوا أثناء الغزو الثلاثى.

وبالطبع نشطت كل الجهات الأمنية للقبض على الجناة. ولأنها كانت أول سابقة للخواجا فقد دخل السجن لمدة عام، واختار سجن الاسكندرية لقضاء العقوبة فيه بدعوى أن عمته الوحيدة تقيم فى المدينة. وخرج من السجن وسافر إلى باريس ليدخل السجن هناك ثم عاد إلى مصر، ليعود إلى السجن مرة أخرى بتهمة الشروع فى سرقة فرع بنك القاهرة. وفى المرتين اللتين دخل فيهما السجن المصرى كانت السجون تضيق بنزلائها من الشيوعيين. وتوثقت الصلة بينه وبين مسجون من زعماء الشيوعيين كان والده باشا وثريا أمثل ومن وزراء عهد الملك فاروق. واستطاع روبير أن يحصل على ثقة الزعيم الشيوعى عندما نجح فى تهريب رسائل من السجن وإليه. وتمكن روبير بسبب طول الإقامة أن يلتقط بعض العبارات الماركسية وبعض المفاهيم، وعندما طلب روبير من الزعيم الشيوعى، بأن يخصص له زميلا من الشيوعيين لكى يلقنه المبادىء الشيوعية رد عليه الزعيم الشيوعى بأن ما يقدمه روبير للحركة الشيوعية يفوق أى خدمة يقدمها أكبر مثقف شيوعى عشر مرات. وقال له إن بعض زعماء العالم الشيوعى الذين يتولون السلطة فى بلادهم كانوا من الصياع، ولكنهم قاموا بأعمال بطولية للحزب خلال سنوات النضال. وراح روبير يحلم بثورة شيوعية يتولى فيها منصب مدير المباحث، فهو أعرف الناس بالمجرمين ونزلاء السجن، وعاهد نفسه إذا تحقق حلمه أن يقوم بفصل محيى بك مدير السجن والحكم عليه بالحبس فى زنزانة انفرادية ليعرف معنى الحبس بالنسبة للبنى آدمين! وعاهد روبير نفسه على تقديم أعلى مستوى من الخدمة للحركة الشيوعية حتى يكون نصيبه بعد الثورة يتناسب مع حلمه الكبير وخرج روبير من السجن وخرج الشيوعيون، أيضا ولكن صلته بالزعيم الشيوعى لم تنقطع ولشدة إخلاص روبير للحركة الشيوعية وعميق حبه

للشيوعيين، تقدم بـاقتراح لتوفير الدعم المالى للحركـة ومساعدتها على تغيير الثورة التى ستكون خيرا وبركـة للجميع. كان اقتراح روبير هو سرقة فـرع البنك الأهلى فى مصر الجديدة والذى يحرسه جنـدى واحد من هذا الصنف الـذى لا يدرك أبعاد مهمتـه على وجه التحديـد. وعبثا حاول الزعيم الشيوعى أن يشرح لروبير أن الحركة تعتمد على تبرعات أعضائها، وأنهم يرفضـون العنف بكل أشكـاله وبالطبع يرفضون أن تكون السرقة هى مصدر تمويلهم .

وقف روبير أمـام شاطىء النيـل فى الزمـالك وقـد امتلأت نفســه بـالحقـد على هذا (المتعلم) الكـذاب مثل غيره من المتعلمين معقـول!؟ يرفض السرقة كـوسيلة للدعم المالى!؟ إنه هو بنفسه وبعضمـة لسانه قال لـه وهما فى السجن.. نحن الشيوعيين نحترم اللصوص الغـلابة؟ أمثالك لأنهم فى حقيقة الأمر ثوار رفضوا الواقع وثاروا عليه. ولو أتيح لهم أن يعيشوا فى ظل نظـام فاضل فلن يعود روبير وأمثالـه فى حاجة إلى السرقة حيث سيكـون لكل إنسان حسب حاجتـه. ومن كل إنسان حسب طاقته! هذا الكذاب الذى يدعو إلى مجتمع الكرامة للفقراء يعيش فى شقة أفخم من أى قصر، ويستخـدم عمالا لخدمته من أهل النـوبة، وفى شقته تحف تكفى لفتح متحف !

وفكر روبير الحرامى فى طـريقة لـلانتقام من الـرجل الذى خـدعه واستخدمه لصالح الحركة دون أجـر. لو اكتشفه فى السجن لتقاضى نظير خـدمتـه مبـالغ كبيرة.. مضى روبير فى طـريقـه ووضـع خطـة شيطانيـة لسرقة فرع البنك الأهلى فى مصر الجديـدة. وأثناء التحضير للعمل حرص روبير على زيارة الباشا الشيوعى. فى المرة الأولى واعتذر عن اقتراحـه السيىء الذى لا يتفق مـع السلوك الماركسى، وأعلن أنـه كف عن السرقـة منذ تـوطدت الثقـة بينه وبين البـاشا، وقبل الطـرف الثانى اعتذاره وانتهى الأمر .

فى الزيارة الثانية راح روبير يستعـرض المشاكل التى تحيط به بعد أن كف عن السرقة، مشاكل وأزمـات مالية تخنقه وتكـاد تقتله وهو لا يـدرى ماذا يفعـل؟ ولذلك جـاء لـزيارة الأستـاذ الكبير لكى يجد لـه مخرجـا بتفكيره الثاقب وعقلـه المستنير. شجعه الأستـاذ على احتمال الشدة ومواجهـة الموقف بجسارة، فالأحـوال لا تدوم، وبعد محاضرة طـويلة دس فى يـده عشرين جنيهـا وصفها بأنها معـونـة مؤقتـة من صديق لصـديق. تكررت الزيـارات والمحاورات بين الـزعيم الشيوعى واللص الذى يتظـاهر بـالتوبـة. ثم غاب روبير فترة حتى كـان مساء شـاتيا وعـاصفا، عنـدما فـوجىء الـزعيم بطرق شـديد على البـاب، وبطـريقة أعـادت إلى ذاكـرتهأيـام زوار الفجـر، كانت تلك الفترة قـد انطـوت وجاء عصر العلم والإيمان، ولم يعـد الانسـان المصرى يسـأل عن أفكاره ولكن عن أفعاله. والـزعيم لا يصنـع شيئا مزعجا للسلطات، ولكنه يفكر ويترقب بزوغ الفجر الجديد!

وعندمـا فتح الباب وجد نفس الـوجوه التى كان يعرفهـا أيام زوار الفجـر، ووجـد أيضا نفس الأسلـوب، أفـواه تبتسـم وأيـاد تعبث بكل شىء فى البيت حتى بـالمراتب والمخـدات، وحملوا معهم أوراقـا كثيرة وانصرفوا فى صحبـة الزعيم إلى السـجن جلس الزعيم فى زنزانتـه يفكر فى هذه الهجمة المباغتة التى لم يحسب لها أحد أى حساب .

يتساءل أيـن سيادة القانـون ولا اتهام بدون دليـل، ان الاجراءات هى نفسها التى كانت أيام مراكز القـوى، الزنزانة مغلقة طوال الوقت، والاتصال بـالزعيم ممنوع، وتفتيش الـزنزانة يجرى كل عـدة دقائق. راح الزعيـم الشيوعى يستعـرض كل الزمن الـذى سبق اعتقالـه، انه بالتأكيـد لم يرتكب عمـلا على الاطلاق يزعج السلطـات إلى هذا الحد. ماذا جرى بالضبط؟ هل هى حملة ضد الاتحـاد السوفيتى؟ ولكن لماذا كل هذه العصبية فى عملية القبض والتفتيش؟

أخيرا استدعوا الزعيم إلى النيابة، ولم يكن وكيل نيابة أو حتى رئيس نيابة عادى ولكنه كان رئيس نيابة أمن الدولة. وعندما استمع الزعيم إلى التهمة كاد يغمى عليه. تمويل الحزب الشيوعى عن طريق سرقة البنوك!! هل جنت السلطة إنها تمارس عملية مطاردة الشيوعيين منذ زمن طويل وهى تعرف خفاياهم ونواياهم أيضا. والعنف ليس من طبيعتهم، يطبعون منشورات نعم، ينظمون مظاهرات نعم، يلعبون فى الانتخابات نعم ، ولكن سرقة بنوك.. هذا هو الشىء الجديد.. واكتشف فى مكتب رئيس النيابة أن الصحف الصادرة منذ أيام لا حديث لها إلا الحزب الشيوعى الحرامى، وصور الخواجا روبير تتصدر الصفحات. وهو يصرح بينما حنكه مفتوح على الآخر فى زهو شديد. أنا لست حرامى وسخ، وإنما أنا حرامى من أجل الشعب! وأنا لست مخططا أو مدبرا هذه المرة. ولكننى مجرد منفذ أما الذى وضع الخطة فهو الزعيم الشيوعى الكبير ابن الباشا الكبير؟ وأثبت روبير أنه كان على علاقة بالزعيم أثناء فترة سجنه، وأنه جنده فى صفوف الحركة، وكان يتردد عليه فى منزله، ووصف منزل الزعيم بالتفصيل. ولكن مؤامرة روبير لم يكتب لها النجاح، كان الزعيم الشيوعى الذى يؤمن بنظرية سوء الظن من حسن الفطن، فحمل فى نفسه شكوكا قوية نحو روبير. ولذلك كان يسجل لقاءاته معه فى منزله، واحتاج الأمر إلى فترة طويلة لكشف الحقيقة. خبير فى الصوت وخبير فى التسجيل، وإجراءات طويلة عريضة، بعدها تم الإفراج عن الزعيم الماركسى وجرت محاكمة روبير حيث قضى فى السجن خمس سنوات. وبعد خروجه طار إلى تركيا، وعندما حاول الخروج عن طريق البر إلى حلب عثرت معه الشرطة على قطعة مخدرات فعاد من جديد إلى اسطنبول، وهناك قضى فى السجن ثمانية عشر شهرا عاد بعدها مقصوم الظهر إلى القاهرة عندما التقيت بروبير

فى السجن كان يقضى عقوبة مدتها ٧ سنوات، بتهمة تخدير بعض السواح الفرنسيين وسرقة متعلقاتهم. وكان قد تعرف عليهم فى الشارع. كانوا يسألون عن مكان معين ولم يكن فى الشارع من يجيد الفرنسية ليدلهم على المكان الذى يقصدونه وساقتهم الأقدار فى طريق روبير، فخاطبهم بلغة فرنسية سليمة ثم تطوع لإرشادهم إلى المكان المطلوب وزعم لهم أنه فرنسى يقيم فى مصر، وأنه مضطهد لأنه ماركسى ويقود تنظيما شيوعيا من بعض الأجانب والمصريين ونال روبير إعجاب الفرنسيين وثقتهم وأعطاهم رقم تليفونه وطلب منهم زيارته فى المنزل وقاموا بزيارته وقام هو برد الزيارة لهم وأصبح روبير يظهر معهم فى الملاهى وفى حى الحسين. وليلة سفرهم إلى الخارج دعاهم إلى منزله حيث أنه قريب من المطار، وذهب معهم إلى اللوكاندة وحمل أمتعتهم فى سيارة زعم لهم أنها مخصصة له من الحزب الشيوعى، وكان الفرنسيون حريصين على زيارة المنزل وقضاء الليل فيه، عندما وعدهم روبير بأن يجمعهم ببعض الشيوعيين من أعضاء تنظيمه واختار اثنين من زملاء المهنة والسجن: شلاضم وقشاط وكان روبير يوجه أسئلة ليس لها معنى لمساعديه فيجيبون أى إجابات، ويقوم روبير بترجمتها للفرنسيين وكان وجه قشاط يحمل مائة ندبة من أثر ضرب من زملائه بالأمواس والمطاوى قرن الغزال. ولكن روبير وصف هذه الندب بأنها أثر من أثار تعذيب البوليس لزملائه المناضلين فى السجون!! وبعد أن سهروا وسكروا ونام الفرنسيون ليكتشفوا فى الصباح أنهم كانوا ضحية حرامى ذكى فقد اختفى روبير ورفاقه بعد أن حملوا معهم كل شىء حرص روبير على التقرب من العبد لله ولكنى كنت حريصا على أن تكون المسافة بينى وبينه بعيدة وكان أحيانا يطلب بعض السجائر لأن الحوالة لم تصله. وكنت أمنحه علبة السجائر بين الحين والآخر

ولكن عندما تحول الأمر إلى فردة رفضت إمداده بأى شىء على الإطلاق. لم يجد روبير للانتقام من العبد لله إلا زميله مطوة رفعوا شكوى ضد العبد لله للمباحث العامة يؤكدون فيها أننى عقدت اتفاقا مع بعض الطلبة لاغتيال بعض الشخصيات الهامة بعد الخروج من السجن. ولحسن الحظ.. الشكوى ضمت إلى صفوف المتآمرين.. العميد يحيى مدير السجن، وكان مشهودا له فى مصلحة السجون بالأمانة والاستقامة والسلوك الميرى المتشدد ولكنه.. وبالرغم من ذلك اهتز جهاز الأمن واستدعى المناضل مطوة للاستماع إلى شهادته، ثم رفعوا الأمر إلى المدعى الاشتراكى، ثم رفعوا القضية برمتها إلى الرئاسة، وعندما جاء أمر الإفراج عن العبد لله كان قد مر على انتهاء فترة سجنى يومان بالتمام والكمال. تذكرت الخواجا روبير وحواراته الغريبة، عندما قرأت فى الصحف نبأ اعتقال مصرى فى اسرائيل، يحاول سرقة بنك فى حيفا مع تشكيل عصابى من الاسرائيليين.

أخيرا.. تم التطبيع بين حرامية مصر وحرامية اسرائيل ؟!





تشلم يا شلم

٩
حزب ست الحبـــايب

●●أبـواب السماء كـانت مفتـوحـة عنـدمـا دعت لـه الـست الـوالدة بأن يفتحها الله في وشـه ويعلي مراتبـه، فبعـدها بأيـام تم انتدابـه من وظيفـة صغيرة بـوزارة الصحـة إلى وظيفة أعلى في مديـرية التحريـر ارتفعت درجته وتضاعف دخلـه وأصبح يشترى علب السجاير العشرين، ولم يعـد يتردد على ســوق الكـانتــو لشراء قمصـانـه، وعـرفت أقــدامه الطـريق إلى عمر أفنـدى وبنــزايـون ، وفي المـكتب الجديـد تعــرف على زميل صـاحب سلوك مميز وثقـافة عـالية، بـالإضافة إلى أنـه صـــاحب مـــزاج. ولا يدخـــن إلا أفخـــر أصـــناف الحشيش. وتــوطـدت الصــلات بينهما إلى درجـة أنهما كـانـا يقضيـان النهـــار في المكتب والليل على القهـــوة الوحيـــدة في قـــرية بـلـر . كـانت فرصــة ذهبيـــة لشــوقى أفنـدى أنـه تعـرف على الزميـــل المثقـف صـاحب المزاج. فقـد فتـــح أمامـــه الطـريق إلى عـــوالم جـــديـدة، إلى الفـن والموســـيقى والسبـــاتـــة●●





بعد أسابيع قليلة من أول لقـاء دعا شوقى زميله إلى سهرة فى منـزله. وعندمـا جاء عبـاس الدرمكى إلى بيت شوقى جاء محملا بأصنـاف كثيرة من الفاكهة. وقرش حشيش محترم وأوراق معسل كثيرة، وجـاء معه أيضـا بصديقين أحدهما طالب فى الجامعة وآخر صحفى يكتب فى جـريدة قليلـة الانتشار. وقضـى الجميع السهـرة فى سرور عظيم، وكان شوقـى يود لو قضـى السهرة معهم حتى الصباح ، ولكـن حالت دون ذلك الظروف الصعبة التى يعانى منهـا شـوقى بالرغم من بلوغـه الخامسة والعشرين. فهو يعيش فى بيت أبيـه ناظـر المدرسة الإلـزامية ، والبيت يقع فى أطـراف قريـة على مرمى حجـر من أهرامات الجيـزة . وبالـرغم من قربها من المدينة إلا أنها تظل قـرية صغيرة، السهر فيهـا ممنوع ووجود غـرباء فيها حتى ساعـة متأخرة أمر يلفت الأنظار. ولـذلك اضطر شوقى إلى انهاء السهرة فى العاشرة والنصف مسـاء وبعد أن انتهى الضيوف من العشاء.

يالـه من رجل كريم وصـاحب أخلاق رفيعـة هذا الصـديق عباس الدرمكى الذى ألقت بـه الصدفة فى طريق شوقى، بعـد انتهاء السـهرة وعند بـاب الدار مد عباس يـده ودس فى يد شـوقى مـا تبقى من قرش الحشيش. لم يستمتع شوقى فى حياته بتعميرة مثل هذه التعميرة التى دسها عباس فى يده .

ذات مساء وشـوقى يجلس مع صديقـه عباس فى القاعـة الشرقية

راح عباس يحكى لشوقى عن العالم الجديد الذى يسعى عباس مع رفاقه لتحقيقه، عالم الورود والموسيقى، مجتمع الطفولة السعيدة والعمل المريح والحرية للجميع كان شوقى مسطولا بشدة عندما عرض عليه الصديق عباس الدرمكى الانضمام إلى حزب التيار الثورى، ووافق شوقى على الفور، ثم سأل عباس..

ـ الصنف ده اسمه إيه ؟

ورد عباس على الفور

ـ ست الحبايب .

يالها من فرصة ذهبية سنحت لشوقى، وبعد وقت طويل تصور فيه أن جميع الفرص هربت من طريقه المليء بالافخاخ.. حزب التيار الثورى.. ومن يدرى قد يفوز يوما فى الانتخابات ويصبح شوقى عضوا فى البرلمان أو مسئولا فى الإدارة المحلية .

ومن حسن الطالع أن عباس الدرمكى ليس رجل سياسة فقط، ولكنه أيضا صاحب مزاج، ومزاجه من النوع العالى جدا، فهو يعرف الأصناف الحلوة، وهذا الصنف الذى جاء به هذه الليلة، هو أرقى صنف تذوقه شوقى فى حياته .

شد شوقى نفسا طويلا وكتمه فى صدره ثم راح يخرجه على حلقات، بينما ارتسمت علامات السعادة البالغة على وجهه .

وقال مخاطبا عباس الدرمكى :

ـ أقدر أعمل دعاية من دلوقتى للحزب بتاعنا ؟

وسأله عباس :

ـ تقصد إيه بالدعاية ؟

ـ نعلق يفط، نعمل ندوات، نعمل قعدات على المصاطب، حاكم بلدنا تحب الزفة .

وقال عباس لشوقى :

ـ الحاجات دى مش أسلوبنا فى العمل، إحنا بنشتغل تحت الأرض.

وأصابت الدهشة شوقى لتعبير (تحت الأرض) هل يعمل الحزب فى بدرون؟ طيب لماذا لا يستأجرون شقة فى دور علوى ؟

وقطع الدرمكى على شوقى حواره مع نفسه، عندما مد يده نحوه وأصابعه تقبض على رزمة أوراق، وقال له :

ـ دى منشورات عاوزين نوزعها .

ألقى شوقى نظرة عابرة على الأوراق، كانت مطبوعة على ورق سيىء وبحروف أسوأ. وقال شوقى مستنكرا :

ـ دامين المطبعجى الحمار اللى طبعها؟ وتلاقيه خد منكم فلوس كثير، دا احنا عندنا فى بلدنا مطبعة تطبع منشورات زى الفل، وبفلوس أقل بكثير. إيه رأيك اديله المنشورات دى يطبعها لنا تانى ؟

أزاح الدرمكى الجوزة بعيدا عنه، وقال لشوقى :

ـ افهمنى يا شوقى، انت راجل كويس بس عيبك انك ما عندكش فكرة، احنا عاوزين نوزع دول بس من غير حد ما يعرف مين اللى وزعهم .

استوعب شوقى الأمر ونفذه بكفاءة أشاد بها الدرمكى نفسه. كان سوق القرية ينعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع. وفى الليلة السابقة على السوق حام شوقى حول سور السوق، ثم قذف بالمنشورات داخله. وفى صباح يوم السوق فرح الباعة فرحا عظيما بالأوراق الكثيرة المتناثرة فى كل مكان. تحولت المنشورات إلى قراطيس وأكياس لتعبئة الطعمية والملوحة والحلاوة الطحينية والعيش القمح. وغالبا لم يقرأها أحد. ولكن الأهم أن المنشورات تم توزيعها على نطاق واسع، وأن أحدا لم يعرف من الذى قام بتوزيعها وكان الأمر الثانى الذى تلقاه شوقى هو توزيع كمية أخرى يوم اجتماع رئيس مجلس القرية مع العمد والأعيان فى قرى مركز الجيزة. قبل الاجتماع بيوم واحد دعا

شوقى أحد الخفراء الذين يعملون داخل السلاحليك فى بيت العمدة، وشاركه فى سحب نفسين حلوين من تعميرة ست الحبايب. وبعد السهرة أعطاه رزمة الورق وطلب إليه توزيعها على الموائد المتناثرة فى القاعة الكبرى بدوار العمدة. وطلب منه كتمان الأمر لأن بعض ضيوف العمدة قد يستاءون، لأن الأوراق كلها تشيد بحضرة العمدة وبدوره فى تسيير أمور القرية. وعلق الخفير توفيق قائلا :

ـ إيش قولك يا عم شوقى. دا عمدة كرداسة بيكره عمدتنا موت .

وأثنى شوقى على فطنته ورجاحة عقله، ودس فى يده قطعة من حشيش ست الحبايب.

فى الاجتماع الحاشد الذى عقده رئيس المدينة لعمد وأعيان المركز، وحضره المأمور ورئيس المباحث، لفت نظر الموجودين هذه الكمية الهائلة من الأوراق المتناثرة فوق المقاعد وعلى المائدة وتناول رئيس المباحث ورقة وألقى عليها نظرة وركبه مائة عفريت، وانعقد الاجتماع فى جو متوتر، وانتهى قبل الموعد الذى كان محددا من قبل، وكان رئيس المباحث هو أول من غادر المكان، ولم يذهب وحده ولكنه اصطحب معه عددا كبيرا من الخفراء والخدم، واستأذن المأمور أن يستعمل سيارته البوكس فى نقلهم إلى المركز. وهناك.. فى مكتب رئيس المباحث لم يستغرق كشف السر وقتا طويلا، اعترف الخفير الذى كلفه شوقى بأداء المهمة، بأنه هو الذى قام بتوزيع الأوراق، وقال إنها أوراق فى مصلحة حضرة العمدة، وأن شوقى أفندى هو الذى أكد له هذه الحقيقة، بعد لحظات من هذا الاعتراف كان الخفير وضابط المباحث ورزمة المنشورات تنهب الطريق إلى الدقى حيث مبنى المباحث العامة. وأثناء وجبة السحور كانت سيارة بوكس تحمل ضابط مباحث من الدقى مع ضابط مباحث المركز مع الخفير تدخل القرية، وعندما طرقت القوة بيت شوقى، أسرع شوقى ليفتح الباب

بنفسه وعندما سأل عن الطارق جاءه الجواب.. بوليس! يا خبر اسود.. بوليس.. الله يخرب بيوتهم.. ترك شوقي البيت مغلقا وهرع إلى حيث قام بتعليق جاكتة البدلة على مسمار فى الحجرة، ودب يده فى جيب الجاكتة، وأخرج منها لفافة حشيش ماركة ست الحبايب، وطوحها فى الشارع. ثم عاد مسرعا ليفتح الباب مطمئنا بعد أن تخلص من جسم الجريمة . قبل فتح الباب للطارق المجهول. لم يكن شوقى يتصور أن الدولة فيها بوليس للسياسة، كان خوف شوقى الوحيد من بوليس المخدرات. لقد قبضوا عليه ذات مرة وهو يدخن التعميرة فى قهوة المعلم أمين. ولم ينقذه من هذه المصيبة إلا نتيجة تحليل المعمل التى أثبتت أن المادة المضبوطة ليست من المواد المخدرة !

هاهى مباحث المخدرات تعود مرة أخرى، بسبب عيون الناس الشريرة، ولكن الحمد لله، لقد طوح بالحشيش خارج البيت وستعود المباحث خائبة وسيموت الحاقدون بغيظهم! دخل ضباط المباحث الشقة وفتشوها بدقة، وأغرب شيء أنهم فتشوا فى الكتب وفى الأوراق، وتصور شوقى أنهم ضباط مستجدون وعديمو الخبرة. وهل معقول أن يخفى شوقى الحشيش فى الكتب، كان شوقى لسذاجته يحتفظ لنفسه ببعض المنشورات، وكان حريصا على إقتناء بعض الكتب بعضها قصص لجوركى وروايات لنجيب محفوظ وعبدالحليم عبدالله، وجمع ضباط المباحث كل الأوراق والكتب، واصطحبوا شوقى وشقيقه واتجه الجميع إلى الدقى عندما دخل شوقى حجرة ضابط مفتش المباحث كان العبد لله يجلس على مقعد والمفكر الكبير رشدى صالح يجلس على المقعد المقابل. وكان قد مضى علينا فى الحجرة عدة ساعات.. وكان شوقى أول ضيف يحل علينا.. ثم توالى وصول الضيوف، ولكن شوقى كان شديد القلق، وكان دائم السؤال عن أخيه الطالب. وعندما طلب منه رشدى صالح أن يهدأ ويصمت،

راح يحكى لنا بصراحة عن السبب فى القبض عليه .

مفيش غيره الغفير الكلب، اديته حتة تعميره عمره ماداق صنفها، لكن تقول إيه بقى لعديم الأصيل. وبعدين أنا مش عارف جايبنى هنا ليه؟ دول ماالقوش حاجة عندى. الله يخرب بيوتهم، خلونى رميت حتة مانزلش مصر زيها من زمان. وبعدين فتشوا البيت ماالقوش حتى ولا سيجارة أنا مش عارف جايبنى هنا ليه ؟

وألقى رشدى صالح نظرة شاملة على شوقى وسأله :

ـ انت عارف جابوك هنا ليه ؟

ـ الغفير الكلب بلغ المباحث ان معايا حشيش .

ـ يعنى انت مش شيوعى !

ـ شيوعى .. أستغفر الله العظيم، دنا أبويا شيخ وجدى شيخ، أنا عمرى ما كنت إخوانجى أو وفدى، مافيش غير اليومين اللى فاتوا دول دخلت التيار الثورى !

مد رشدى صالح يده ووضعها على فم شوقي وقال فى همس :

ـ أوعى تجيب السيرة دى .. فاهم .

وتساءل شوقى فى عبط :

ـ ليه يا بيه ..؟

ـ دى فيها ٥ سنين سجن

عندما سمع شوقى تحذير رشدى صالح، انفجر باكيا كأن عقربا أصفر لسعه فى وجهه. وراح يبكى بحرقة.. حتى انتفض جسده كله. وعندئذ نهره رشدى صالح بشدة

ـ يا ابنى بطل عياط احنا دماغنا واجعانا

كف شوقى عن البكاء تلبية لإشارة رشدى. ولكنه هب واقفا كأنه قرر الانصراف، وبعد أن مسح دموعه نظر إلى العبد لله وسألنى :

ـ هنخرج امتى يا بيه ؟

وأضحكني السؤال جدا وقلت له :

ـ لما نخش الأول نبقى نسألهم جوه.

توالى وصول المعتقلين طوال النهار، وفى لحظة الافطار جمعونا فى سيارات شرطة ضخمة ونقلونا إلى سجن القلعة. وعندما أصبحنا داخل السجن كان المؤذن يرفع أذان العشاء من مسجد الامام الشافعي. وتم حشرنا فى زنازين وعنابر أغلقوها علينا. وثلاثة أيام طويلة مرت علينا والأبواب مغلقة. وعندما سمحوا لنا بمغادرة الزنازين وأصبحت فى الممر الضيق الذى يفصل بين العنابر، فوجئت بشوقى يرتدى فانلة مخططة مثل فانلات كباتن الكورة. ويتدلى من قبضة يده براد شاى أزرق اللون كبير الحجم. وفى يده الأخرى عدة أكواب زجاج صغيرة، بينما هو ينادى كالباعة السريحة فى الشوارع :

ـ مين عايز شاى يا زملا ؟ شاى مضبوط يا زملا ..

زملا .. الله يخرب بيتك يا شوقى، استطاع أن يخدعنا وأوهمنا بأنه مجرد حشاش ليس إلا. وفى الأيام التالية كان شوقى يبدو سعيدا ومرحا وجيبه عامر بالسجاير البلمونت، وبدا وكأنه اعتاد على المكان وتأقلم معه.

وذات يوم عثرت على شوقى وسط زحام السجن منزويا ومهموما على غير العادة. وعندما سألته عن سبب همومه راح يحكى لى بدون انقطاع عن المعاملة السيئة التى يلقاها من «الزملا».

ـ قبل ما خش السجن كنت خايف، كنت فاهم ان الضرب جوه ليل ونهار وهينيمونا فى زنازين تحت الأرض، ولكن الحمد لله لما شفت السجن على الطبيعة انبسطت وقلت مفيش مانع نجرب. تانى يوم الصبح واحد من الزملا جالى وقالى انت فى الحزب، وقبل ما أرد عكمنى ١٠ سجاير بلمونت، بعد ساعة جالى واحد م الزملا وقالى انت فى (حدتو) وقبل ما أرد راح معكمنى ١٠ سجاير. شويه وجالى

واحد مـن الزملا وقـالى انت فى (طش) وقبل ما أجـاوب راح معكمنى ٥ سجاير. وشوية وجانى واحـد تانى وقالى · إنت معانا فى (و. ش) وراح معكمنى ٥ سجايـر والدنيا احلوت فى السجن وبقت اخـر مزاج. ال إيه، جـانى الزمـلا امبارح الصبح وسمعـونى محاضرة فى السلوك الاشتراكى. وواحد منهم قالى انت نصـاب وخدت السجاير من جميع التنظيمات وانت مش فى أى تنظيم .

قلت لهم : وذنبى أنـا إيـه ؟ كل واحـد منكم جـانى وقـالى انت فى الحزب، انت فى طش، انت مش عـارف إيـه أنا مـاجـاوبتش عليكم ولا قلت أى كلمة .

وانتـو اللى عكمتونى السجـاير، أنـا طلبت منكم حـاجة ! وبـالليل سهروا فى العنبر ونصبوا النصبـة وعملوا محاضرة عنى وعن سلوكى، آل سلوكى آل.

طيب إيـه رأيك أنـا كنت هاطبق فى رقبـة واحـد منهم واللى يحصل يحصل.

وقلت لشوقى أهدىء خاطره :

ـ بس انت اللى غلطان يا شوقى ـ كان لازم تحدد موقفك .

ـ هو حد ادانى فرصة أحدد موقفى .

ـ ماكنتش خدت منهم السجاير .

ـ يـا عم قول يـا باسط دا معـاهم سجايـر تملا عشر دكاكين. ثم وفيها إيـه لما اخد منهم سجـاير، مش همه اللى ودونى فى داهيـة، مش كفاية رفدونى من الوظيفة .

ـ ما انت اللى غلطان يا شوقى، انت اللى وافقت تنضم لهم .

نظر نحوى نظرة غيظ وقال بصوت مجروح :

ـ تبقى انت مش مصدقنى. طيب احلفلك بإيـه ان اللى قلتهولك هوه اللى حصل، أنا افتكرت التيار الثورى حاجة زى الأحرار الدستوريين،

زى حزب العمال بتاع عباس حليم. وافتكرت انه هيستلم الحكم .

واحنا هنتنغنغ زى الجماعة بتوع الوفد زمان بذمتك مش كان واجب عليهم يقولوا لى إنهم شيوعيون .

وانخرط شوقى فى بكاء عنيف وبصوت كالعواء، ولفت بكاؤه الأنظار فاتجه البعض نحونا يسأل ويستفسر، وقطعت الطريق على الجميع وزعمت لهم أن عمته التى كانت أثيرة لديه توفاها الله منذ أسبوع. وبعد لحظات أقبل نحونا مندوب الحزب وطيب خاطر شوقى وقدم له علبة سجاير كاملة، ثم جاء مندوب (حدتو) ومعه عشر سجاير وكوب شاى، ثم جاء مندوب (طش) ومندوب (وش) وقدما التعازى لشوقى... ياله من تغيير مفاجىء .... منذ لحظات كان يبكى بحرقة، ثم جاء الشاى والسجاير وأصبح شوقى شخصية أخرى، ثم انه راح يلتمس العذر لـ (الزملا) الذين كان يهاجمهم منذ لحظات .

ـ طيب تعرف.. مش همه ودونى في داهية وخربوا بيتى، بس همه عيال جدعان. على فكرة أنا أما سمعت كلامهم اللى بيقولوه فى العنبر حسيت أن عقلى كبر. دا فيهم ناس ـ يا قوة الله ـ عليهم مخ.. يوزن بلد .

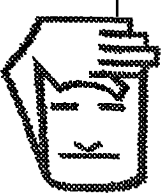
يبدو أن شوقى بعد مرور أسبوع من بكائه فى ممر السجن الذى يفصل بين الزنازين قرر الانتماء، فاختار الانضمام إلى الحزب لأن مقطوعية السجاير تبعه كانت أكثر. وأصبح شوقى يحضر الاجتماعات والندوات ويؤدى واجبات محددة. ولكن لأن شوقى كان صاحب شخصية مرحة ومفلوتة العيار، فقد وجد نفسه فى معركة مستمرة مع أحد المسئولين فى الحزب. كان الرجل عكس شوقى تماما، شديد الجد شديد التجهم عابس الوجه. عيناه لا توحيان بشىء كأنهما عينا سمكة ميتة. وعندما سألت شوقى عن سبب الخلاف قال وهو يزفر زفرات حارة .

ـ وهو معقول يبقى فيهم راجل بالشكل ده وعاوزين ينجحوا .
دا بيعتبر الضحك عيب والنكتة انحراف .
واكتشفت أن الخلاف بين شدة الانضباط وشدة البحبحة، وقلت لشوقى :
ـ استحمل يا شوقى، دول ناس فى سنة أولى ماركسية، وبعدين السرية والقمع هيه اللى موتراهم بالشكل ده.
ثم انت ناوى تمشى معاهم على طول ورد شوقى على الفور .
ـ أنا واللى خلقك معاهم لحد السجاير ما تخلص .
بعد ثلاثة شهور بالضبط فى سجن القلعة تم ترحيلنا إلى معتقل الفيوم. وهو فى الأصل كان معسكر للجيش الانجليزى يقع على مشارف الواحة وعلى حدود الصحراء. كان منظر المعتقل رهيب، وإدارته عصبية ومرتبكة بقيادة أحد الصولات الذى ترقى ودخل سلك الضباط، وكان برتبة صاغ بالرغم من أنه تجاوز الخمسين من العمر. وزاملنى شوقى فى عنبر٤، وكان العنبر تحت قيادة حدتو، وهكذا انتقل شوقي من الحزب إلى حدتو، وانخفضت مقطوعية السجاير إلى النصف. ولكن شوقى كان مرتاحا للتغيير، كانت حدتو عكس الحزب، كانت أقرب إلى تنظيم شيوعى مصرى، أغلب أفرادها من الفنانين. وحركتها فى المجتمع أشبه بحركة ثقافية.. بينما كان الحزب أقرب إلى تنظيم روسى فى بداية الثورة أو تنظيم ألمانى من العنصر الثورى.. ومع أن شوقى كان يشعر بالراحة مع حدتو، واستفاد كثيرا لقربه من التنظيم، إلا أنه فجأة قرر أن يخلع نفسه من كل التنظيمات وأن ينضم إلى تنظيم (زمش) وكانت الأسباب التى فرضت على شوقى اتخاذ هذه الخطوة.. أغرب من الخيال !



١٠ الشـــهيد

●● كان عم شـوقي قد قرر الخروج من هـذه المصيدة التي وجد نفسه فيها دون رغبة منه بأي ثمن إنه لم يخلق لمثل هـذه الحيـاة مهما كـانت الثمـرة التي سيحصل عليها في نهاية الأمر. هب أنه أصبح وزيرا .. ملعون أبو الوزارة والوزير. إنه صايع بطبعه يحب الليل ويعشق البلبطة في النيل وأشهر طعام لديه هو ما يصطـاده بيـده ، سمك بلطي من النـوع الـرخيص يصطـاده بسنـارة من صنع يـده ، أو يمامة يطـاردها بنبلة من أستك السروال . وهـو طفل صغير كانت كل سراويلـه بـدون استك ، وكـانت أمــه تخلع غطـاء رأسـها ، وتطلب من السماء أن تأخـذه إلى نار جهنم، أو تصيبـه بعمـى في عينيـه وهـو لم يتصـور في لحظة من اللحظات أنـه سيدخل السجن . فهـو بـالـرغم من تبجحـه وتمرده ، إلا أنـه لا يتعدى الخطوط الحمراء .ويتحاشى الصدام بـرجـال الشرطـة وخصـوصـا المخبرين لأن أكفهم غليظــة وقلــوبهم لا تــرحم ! ●●



وجاءت الفرصة لعم شوقى للخروج من هذا الجب الذى دفنوه فيه بالحياة . كانت السياسة الأمريكية قد تمادت فى غطرستها ، لدرجة أن عمال الشحن فى ميناء نيويورك رفضوا تفريغ حمولة الباخرة المصرية كليوباترة ، لا لسبب إلا لأن عبد الناصر زعيم مشاغب لا يريد الخضوع لرغبات البيت الأبيض . وثار عمال العالم العربى غضبا على هذه الغطرسة الأمريكية ، ورفضوا شحن أو تفريغ أى باخرة أمريكية ترسو فى الموانىء العربية . ووجد تنظيم (حدتو) فى هذه المناسبة فرصة لإعلان تأييدهم لعبد الناصر ضد الغطرسة الأمريكية . وتصور عم شوقى أن تأييد عبد الناصر فى هذا الموقف كفيل بفتح أبواب السجن والإفراج عن جميع النزلاء . ولذلك ذهب إلى مكتب المأمور وكتب بيانا ملأ خمس صفحات فولوسكاب ، ولم ينس أن يؤكد فى البيان توبته عن اتخاذ أى موقف يتناقض مع سياسة الحكومة ، ووعد بأن يكون جنديا مخلصا فى كتائب الاتحاد القومى . وحرص على استنكار النظرية الشيوعية ووصفها بأنها خطة شيطانية لإعلان الحرب الأبدية بين الطبقات ، وتعهد بمقاومة الشيوعية ولو كلفه ذلك حياته نفسها . وكان عم شوقى كاذبا بالتأكيد ، فهو لم يكن يهدف إلا للخروج من بوابة السجن ، وهو لم يؤمن فى حياته بالاتحاد القومى أو هيئة التحرير أو أى حزب أو تنظيم ، ولكنه كان يشارك أحيانا فى العمل السياسى أيام الملك وأيضا أيام هيئة التحرير من باب المهيصة

والمشـــكحة والشـــقاوة ، التى ليس مــن ورائهـا أى هــدف إلا شفط أقداح القرفة وضرب حجرين على الماشى .. للمزاج !

الله يخرب بيت السياسة وبيوت أصحــابها . لو خيروا العم شوقى بين مكتب رئيس الوزراء وكـرسى على رصيف قهوة كتكـوت ، لاختار قهوة كتكوت .

شىء واحــد فقط كـان يغيظ عم شــوقى ، وهــو ضبــاط الشرطـة والمخبرون ، لا يبدون أى احترام لـرواد قهوة كتكـوت . وآه .. كم حلم العم شــوقى بالجمع بين منصب رئيس الــوزراء والجلوس على قهـوة كتكوت ، حتى يبتعد عنه المخبرون ، الله يخرب بيـوتـهم .. لسوعوه مرة بالخرزانة وهو جالس على رصيـف القهوة وآخر انسـجام . ليس هناك أى تفسـير لموقف المخبرين من رواد القهاوى الغلابة ، مع أن المفروض أن الذى اختــار القهوة محلا مختارا له هــو مواطن صالح بــالتأكيد . لماذا يطارد المخبرون الجالسـين على القهاوى ، فى الوقت الذى يرتع فيه ربع مليون حرامى ونشال وهجام وقاطع طريق دون أن يتعرض لهم أحــد ؟ يبدو أنــه لا كـرامــة للضعيف على أرض البشر فى اليوم التــالى استدعى مأمــور السجن العم شوقى إلى مكتبــه ، وتصور شــوقى أنه أخطأ فى كتــابة البيــان ، وستكــون ليلتــه أسود من قــرون الخروب . وذهب بصحبــة الشاويـش إلى مكتب المأمور ، وفـوجىء شــوقى بأن المأمور استدعــاه ليشكره . فاللهجة التى كتب بها البيــان راقية جدا ، وتؤكد على أن كاتبها مواطن صــالح بالفعل ولا يضمر عداء للنظام من أى نوع .

وقال له المأمور فى لهجة طيبة ..

ـ فيه خبر علشانك

وكاد شوقــى أن يطير فرحا ويحلق فى الفضاء العــالى ، فقد تصور أن بوابة السجن ستنفتح على مصراعيها خــلال أيام قليلة ليخرج منها

إلى الهـواء الطلق . وأراد شـوقي أن يؤكـد موقفـه ، فطلب من المأمور أن يعطيـه عدة أوراق فـولسكـاب ، لكي يقنع أعضاء الحزب الـذين ، يرفضـون تأييد الحكومـة . وابتهج المأمور بشدة ونـاول عم شوقي رزمة ورق ، وطلب منه أن يعيدها مكتوبة أو بيضاء ، وأن يحرص على عدم فقد ورقـة واحدة منها ، وحتى لا تتحول إلى منشـور ملتهب ضد النظـام . عندمـا عاد عم شـوقي إلى العنبر ، كان النـزلاء من الزمـلاء ينتظـرون على أحر من الجمـر لمعرفـة سر استـدعاء العم شـوقي إلى مكتب المأمور .

وتجاهل العم شوقي الأسئلة التي انهالت عليـه من جانب الزملاء تـريد تفسيرا لهذا الاستـدعاء المفـاجىء ، ولكن العم شـوقي لم يهتم بالأسئلـة ، وشق طريقه وسط الـزحام ، وسلك الدهليـز الضيق الذي يفصل بين الزنازين وصـاح عاليا :

يا زملا .. اللي عاوز يستنكـر ونطلع كلنا بإذن واحد أحد وكل حي يروح بيته ويشـوف عياله أحسن من القعـدة المهببة دي .. اللي عاوز يستنكر يقول هات ورقة يا عم شوقي .

انجذب نحو شوقي عـدد من المعتقلين المسحوقين يطلبون أوراقا، فأمهلهم شـوقي قليـلا لكي يسجل أسماءهم على ورقـة معه، ولكنـه اكتشف أنه لا يحمل معــه أي أقلام ، والتفت عم شـوقي إلى الشاويش محمود الصيفي وطلـب منه قلما ، ولكن الشاويش الـذي لم يكن يعلم بسر الاتفاق بين المأمور والعم شـوقي ارتعد كثيرا لهذا الطلب . فالقلم والورقة كانا على رأس الممنـوعات في هذا المعتقل الرهيب ، وتصور أن عم شوقي اللئيم يريد الإيقاع بـه ، فلطشه بالقلم على صرصور ودنه ، ثم صاح بأعلى صوته :

قلم يابن الكلب .. عـاوز ترميني رميتكوا المهببة دي ! كـان شوقي الـذي تـرنح بسبب عنف القلـم ، خصـوصـا أن الشـاويش محمـود

الصيفـــــى كان يزن مائة كيلو على الأقل وكان كفه فى حجم جزمة مقـاس ٤٦ ، قد سقطت من يـديه الأوراق التى أخـذها من المأمـور ، فخطفها بعضـهم ودخل إلى الـزنازين ، وجـرى شوقى نحو الـزنازين يطلب منهم الأوراق التى اختطفـوهـا ، فهى عهـدة من البيـه المأمـور وسيدفنه حيا لا محالة إذا ضـاعت هذه الأوراق . ولكن شوقى فوجئ بثورة عارمـة ضده ، اتهمه بعضـهم بأنه عميل للمخابـرات المركزية ، والبعض الآخر أكـد أنه يعمل لحساب حلـف الأطلنطى ، ولكن شوقى لم يهتم بهذه الاتهامـات ، المهم عنـده هو الحصـول على الأوراق التى فقـدهـا ، وليكن عميـلا للشيطـان نفســه ، فـلا شـئ يهم إلا الأوراق المفقودة . واضطـر شوقــى إلى الدخول فى عـراك مع الـزملاء ، وتجرأ أحـدهم وضرب شوقى بكف يـده على وجهه ، ثم انهالت اللكمات بعـد ذلك من الجميع .

كانت ليلة ليـلاء لم ير شوقى مثلها فى حياته ، كـان وحيدا فى غرفة التأديب ، ولا سجائر معه ولا رشفة شـاى ، والحجرة ظلام، وإن كان وقع دبيب الحشرات السارحـة فى الزنزانة يصل إلى سمعه الـذى تأثر كثيرا بسبب أقلام العســاكر ولكمات الزمـلاء وشومة المأمـور ، الذى أصر على تعليق شـوقى فى الفلكة ، لأنــه خدعـه وسرب الأوراق للحزب الشيوعى لكى يستخدمها فى كتابة المنشـورات وكانت هذه هـى النهاية الكئيبة . وأسبوع كـامل والعم شوقى فى الزنزانـة لا يقتات إلا بأرغفة الخبز والماء ولا يرى أحدا ولا يكلم أحـدا ، حتى العسكرى عبد الفتاح المعتـوه الذى كـان يبـدى الـود للعم شـوقى رفض مبادلـة شـوقى الحديث، بـاعتباره خـائنا وعميـلا للمخابـرات المركزيـة الأمريكيـة ! أسبـوع كامل والعم شــوقى يفكـر فى أحوال الـدنيـا والناس ، هـؤلاء العيال الشيوعيون يلقـون بأنفسهم إلى التهلكة ، لا يبالون بما يحدث لـذويهم ، مع أنـه يعلم علم اليقين أن بعض الأسر اضطـرت إلى تـرك مسـاكنها والإقامة فى الشـارع ، وأكثر من مئتى حالة طلاق وقعت بين

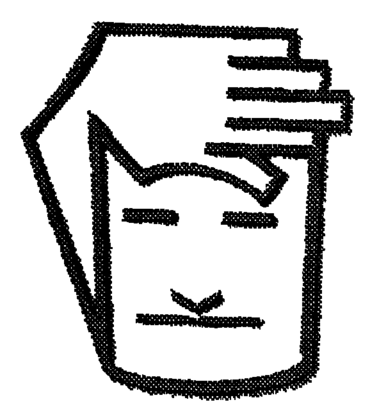
الـزوجـات المقيمـــات وحـدهن فى الخـــارج والأزواج المحبـوسين فى الزنازين، ومع ذلك لا أحد منهم يهتم ، يقولون إن مستقبل الوطن أهم وما هو الوطن ؟ إذا لم يكن أسرة سعيدة ومتماسكة وتمارس الحياة فى أمان ؟ لم يحب مصر أحد مثل العم شوقى ، ولكنـه بعد الذى حدث له فى السجن ، وبعد أن أصبح ملطشـة للعساكـر والنزلاء ، ملعـون أبوه الـذى لا يلزم داره ، حتى إذا شبت النـار فى كل مكان . ولكن .. مـاهى هذه المركزية التى يتهمه النـاس بها ؟ ويرددون فى كل مكان أنها تدفع بسخاء للمتعاملين معها ؟ أين تقع هذه المركزية وفى أى مكان ؟ لابد أن هـؤلاء الشيـوعيين يعـرفـون مكـانها وأنهم يترددون عليهـا ، وربما يقبضـون منهـا ما يساعـدهم على احتمال المحنة التى يتعـرضـون لها الآن . ياسلام .. لو ابتسمت الأيـام وقدر للعم شوقى الخروج حيا من هنـا . ولـو ضربـة حظ وعـرف العم شـــوقى الطـريق إلى المركـزيـة خصـوصـا أنـه قـرأ فى منشوراتهم التـى جاء بها زميلـه فى مـديريـة التحـرير أن رئيس كـوريا الجنـوبية يأخـذ منها ورئيس جـواتيمالا يغترف من كنوزها ، وإذا كان الرؤســاء يأخذون من أموال المركزية ، فلماذا يرفضـها العم شـوقى ؟ مرت أيام التأديب كئيبة ومملـة وعندما غـادر العم شــوقى زنزانــة التأديب قـرر أن يقطع صلتـه بأى تنظيم شيـوعى ، وأن ينضـم إلى زمش ، وقـرر أيضـا أن يبقى فى زمش حتى وهو خارج الأسوار ، والله يرحمه ويحسن إليـه المقاتل الذى خرج من المعركـة ونادى عليـه أحدهم يـاجبان .. فـرد قائلا .. أن يقـال جبان وهرب خير من أن يقال بطل ومـات يرحمه الله، ومرت سنوات السجن سريعـة على العم شوقى وهـو فى تنظيم زمش حتى الـزنـزانة لم يعـد يغـادرها كثيرا إلا لجمع أعقـاب السجايـر ، فقد كـانت السجايـر من الممنوعات ، ولكن حتى أعقاب السجاير أصابها ما أصاب كل شيء فى الحياة ، أعقاب سجاير رخيصة لم يتبق منها غير الفلتر ، وأحيانا يعثر

العم شوقى على أعقاب فيها رمق ، يبـدو أنها كانت بين أصابع سجان فاجأه المأمـور فألقى بها على الأرض ولكن نظرية العم شـوقى كانت تقـوم على أســاس شىء خير من لا شىء وأحيـانـا كـان يضطـر إلى تجفيف أوراق الشجـر وتدخينهـا ولكن جاءت الفـرصة للعم شــوقى ذات مساء وبعـد التمام وإغلاق الزنازين ، دخل العنبر أحـد الضباط الصغار وطلب من مندوبى التنظيمات الخروج لمقـابلة المأمور لعرض مطـالبهم عليه ، وخــرج منـدوب الحزب ومندوب طش ومنـدوب وش ورفض مندوب حدتو الخروج لأنه ليس له مطالب وطلب العم شوقى الخروج باعتباره مندوب زمش لكى يعـرض مطالبها على البيه المأمور ، خرج الضابط من العنبر يتبعـه مندوبو التنظيمات ومن خلفهم العم شوقـى بقامته الطـويلة وظهـره المحدودب كأنــه ديك هندى مـريض وبينما اتجه الجميع يســـارا اتجه العم شـوقــى يمينـا وراح يـــرقب باهتمام تحت قـدميه ، فلم يكن هدف العـم شوقى مقابلـة المأمور أو عرض مطالب عليــه ، ولكن كان هدفه الحقيقى هــو جمع ما تيسر من أعقاب السجائر فى هذا الجو الخالى الذى لا يـزاحمه فيه أحد واندهش المأمور جدا لهذا المعتقل الذى اتجه يمينا ، بينما المأمور وسط حراسه الأشداء يقفـون ناحية اليســار ، ولم يكن المأمور فى واقع الأمر يـريد أحدا غير هؤلاء الثلاثة الذين كـانوا لحظتها يتجهون نحوه فى خطوات ثابتـة ، وكذلك صاح هـائجا مطالبــا العساكر بإعــادة هذا الحمار إلى العنبر ، كان المأمور قـد دبر هذا اللقاء لضرب هؤلاء المنـدوبين الثلاثة علقة موت ، حســب التعليمات الرسمية التى وردت إليه وكـان قد أعد العـدة بعساكـر أشداء وشــوم من النوع الــذى يكسر ولم يكن يريـد شـاهـدا واحـدا على مــا ســوف يجرى خلف مكتبــه بين العســاكـر والمعتقلين الثـلاثة ولـذلك أمر بإعــادة العم شوقى إلى العنبر بسرعـة وبأى طريقة ، ولذلك تكرر صيحاته دخلوا الحمار ده دخلوا البغل ده ،

دخلوا الطـور ده واستبد الذعـر بالعســاكر فانهالـوا ضربا على العم شـــــوقــى ولكن كل أنواع الضرب تهـون إزاء هذا الكنز من أعقاب السجـاير الـذى رآه العم شـوقى متنـاثرا على أرض الحوش فى هـذه اللحظة التى لا يوجد فيها أحـد من المساجين غيره ، ونزلت شومة على كلية العم شوقى فانطرح على ظهره يئن أنينا رهيبا وتصور العساكر أنه يتظاهـر بينما كان الدم يتدفق من فمه بغزارة وبعـدها لم يتوقف الضرب إلا عنـدما كف العم شوقى عن الصراخ عندئذ حمله العساكر وأدخلوه زنزانتـه وألقوا به على الأرض وعندما التف حولـه الزملاء فى الزنزانة أدركوا بوضـوح أن العم شوقى فارق الحياة.. بعد أن انتهت العلقـة التى دبرهـا المأمـور للمندوبين الثـلاثـة نقلهم العساكـر إلى مستشفى السجن وعندما طلب نزلاء زنـزانة العم شوقى نقل شوقى إلى المستشفى أمرهم المأمـور بأن يلزمـوا الصمت ولكنهم فى الصباح اضطروا لنقله إلى المشرحة وبعد يـومين فى المشرحة أكلت فيها الفئران انفه وأذنيـه سمحوا بـدفنه بعد أن كتب الطبيب تقـريره بأن الـوفاة حدثت نتيجـة اصطدامـه بجسم صلب أثناء قفـزه من سور السجن بقصد الهرب !

مـات العم شوقى سمبلـة آك سورى إكـوانى على رأى إخواننـا فى جنـوب السـودان ، لم يـر الشــارع كما كـان يتمنى ولم يجلس على رصيف قهوة كتكوت ولم يذهب إلى المركـزية ولم يعرف حتى أين تقع وفى مساء اليوم التـالى خيمت على السجن سحابة من الحزن العميق ، وجلس جميع النـزلاء داخل زنــازينهم يستمعـون إلى كلمات التأبين التى القـاها بعضـهم فى ذكـرى الشهيـد العظيم ، الذى مـات فى سبيل مبادئه ضـد القمع الديكتاتـورى وضد الإرهاب الفـاشى وفى الصباح البـاكر وزعـوا سجايـر على روح الشهيد العم شـوقى ، مسكين العم شوقى ، لـو أعطوه سيجارتين من هـذه السجاير فى حياتـه لكان الآن حيا وسطهم .





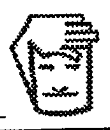
[illegible]

١١ الأسد الجربان

●● سيد الديبكي مجرد عامل غلبان من شبرا الخيمة ، دخل الحزب الشيوعى فترة قصيرة قبل أن يجد نفسه فى السجن مع عدد كبير من المثقفين من الوزن الثقيل . كان برغم السجن والتعذيب يشعر بالفخر لأنه محبوس فى مكان واحد مع هؤلاء المشاهير الذين كان يرى صورهم فى الصحف. وكان يحلو له أن يستمع إلى مناقشاتهم الحامية ، ويتأثر بشدة من بعض التعبيرات الغريبة التى تتردد على ألسنتهم فيحفظها وينقلها عنهم وينطقها بطريقته . فرية (فريم) فيزيكال (فازيكا) وكان ينطق الكلمة الأخيرة بطريقة مضحكة فأطلق عليه الجميع اسم فازيكا ، وصار اسمه سيد فازيكا وعرف بهذا الاسم عند العساكر والنزلاء ●●







واستهوت هذه العبارات الزميل سيد ، فراح يجمع منها مفردات كثيرة ، ثم راح يستخدمها فى حديثه وتسبب له هذا السلوك فى علقة سخنة فقد استدعاه المأمور واتهمه بتهريب أشياء ممنوعة لكنه نفى الاتهام بشدة وقال للمأمور دى فريم ! ولما ضربه المأمور بقبضة يده على صدره احتد سيد بشدة وصرخ فى وجه المأمور محذرا الضرب ده عمل لا يحمد كعباه ، كتم المأمور ضحكة ثم انهال عليه ضربا باللكاكيم والشلاليت بينما سيد راح يصرخ ويحتد ويحذر المأمور بأن نتيجة هذا العمل سيكون من أسوأ (العناكب) العواقب . وبالرغم من شدة الضرب الذى كان ينهال على سيد بين الحين والأخر إلا أنه لم يكف عن استخدام لغة المثقفين ، وتطور سيد كثيرا فأصبح يفتى فى كل شيء من السياسة إلى الدين إلى الفن إلى الأدب وتجرأ أكثر فألف مسرحية بعنوان النضال الزاحف ثم كتب قصة قصيرة ووجد بين زملائه من يشجعه وتمادى بعضهم فى التشجيع فعقدوا مقارنة بينه وبين جوركى وكتب أحدهم دراسة عن أدب سيد فزيكا التلقائى وقارن بينه وبين نجيب محفوظ الذى يكتب للطبقة البرجوازية المنحلة ، بينما أدب فزيكا هو التعبير الحقيقى والموضوعى عن الواقعية الاشتراكية . واندمج سيد فى الدور الجديد فعقد ندوة داخل السجن تحدث فيها عن أدب الأفنديات وأعلن قيام عصر الأدب الشعبى الذى يكتبه الشعب لكل الشعب . وانقسم السجن حول قضية سيد فزيكا فقال بعضهم

لا بأس من تشجيع سيد ولكن بشرط أن يكون التشجيع فى حدود مواهب سيد وقدراته الحقيقية، والبعض وصف هذا الموقف بأنه رجعى ومتخلف ، وأعلن أن عصر الأدب الفردى انتهى أمره ، وأن الأدب فى واقع الأمر ليس إبداعا فرديا أو حالة من الاتصال بين المبدع والوحى ، وأن الأدب فى المستقبل القريب وطبقا لنظرية الواقعية الاشتراكية سيتحول إلى عمل جماعى ، أما القصص التى يكتبها ابراهيم الوردانى أو يوسف إدريس فتصبح جزءا من التراث وستدخل فى متحف التاريخ . أصبح سيد فزيكا القضية الأولى فى السجن . وأهمل سيد واجباته التى كان عليه أن يقوم بها فى الزنزانة . كان عليه واجب تنظيف الزنزانة يوما فى الأسبوع والاشتراك مع أخرين فى تنظيف دورة المياه . وكان ضمن واجباته أيضا إعداد الشاى داخل الزنزانة ليلا ، ولكنه كف عن ذلك منذ أن صار أديبا يشار إليه بالبنان . كان هناك جانب آخر من الزملاء الذين كانوا لا يؤمنون بموهبة سيد فزيكا ولا يعترفون بفضله على مسيرة الأدب العالمى فكانوا يسخرون منه أحيانا وتنشب أحيانا بينه وبينهم خناقات بسيطة ، وعندما أقترب موعد الافراج عن الشيوعيين كان سيد فزيكا يحتفظ فى أماكن سرية ، داخل الزنزانة بعدة دفاتر من ورق البفرة تحمل عصير أفكاره ، وكان مستعدا للموت فى أى لحظة من أجل الدفاع عن هذه الدفاتر .

أخيرا ... انفتحت أبواب المعتقلات وخرج الشيوعيون من المعتقلات والسجون وبدأت مرحلة جديدة فى مسيرة العمل الثورى ، الاغلبية مع حل التنظيمات ، والدخول فى تنظيم الحكومة باعتبار أنه نظام وطنى يحقق الاشتراكية بطريقة أو بأخرى . وانتهى الخلاف بانتصار الأغلبية وحل التنظيمات ، وبدأت عمليات اندماج بين الشيوعيين والحكومة وعاد أغلبهم لأعمالهم ورأت الحكومة إبعاد

بعضهم عن المراكز التى يشغلونها ونقلتهم إلى مراكز أخرى .

أما أصحاب الرأى وأصحاب الكلمة فقد ألحقوهم جميعا بدور نشر ودور صحفية .. وبدأت الحياة تعود إلى وضعها الطبيعى .

وابتسمت الدنيا للمناضلين من أعضاء التنظيمات اليسارية الذين قضوا أغلب وقتهم فى السجون والمعتقلات على مدى السنوات الطويلة التى أعقبت الحرب العالمية الأخيرة .. وإذا كانت جميع المشاكل قد حلت أو كادت فقد بدأت مشكلة بلا حل هى مشكلة سيد فزيكا . قبل السجن كان عاملا فى مصنع نسيج بشبرا الخيمة ، وهو الآن يفضل الموت على العودة إلى هذا المصنع الكئيب الذى واجه فيه صنوفا من الهوان والعذاب . كان فزيكا يتصور أن النقاد الكبار الذين رفعوه إلى مصاف جوركى وتشيكوف سيعملون بعد خروجهم من السجن إلى حشره فى زمرة المثقفين والأدباء والحاقه بعمل يتفق مع مواهبه الجديدة ، وظيفة محرر فى جريدة أو مؤلف فى دار نشر ، ولكن يبدو أنهم نسوه بعد أن تحول كل منهم إلى تنظيم مستقل بذاته . وراح فزيكا يدور على زملائه القدامى فى مواقع أعمالهم واستقبلوه فى البداية بترحاب وبشوق ، وبعضهم راح يستعرض معه ذكريات أيام السجن الطويلة ، وبعضهم بعد الزيارة كان يدس فى جيبه بعض أوراق النقد ، خصوصا بعد أن يعرف أن فزيكا لم يعد إلى المصنع القديم ولم يعثر على عمل جديد ولكن بمرور الأيام وتعاقب الشهور والسنوات ، بدأت زياراته للزملاء القدامى لا تجد ترحيبا كبيرا ثم لا تجد ترحيبا من أى نوع ، ثم شعر بفتور الآخرين نحوه ، واضطر أحد الزملاء إلى الصراخ فى وجهه وتمزيق مامعه من أوراق وطرده شر طردة من مكتبه وهدده بتسليمه للشرطة إذا عاود زيارته مرة أخرى .

كان من عادة سيد فزيكا عندما يقوم بزيارة أحد زملائه القدامى فى موقعه الجديد أن يحمل معه بعض نماذج من إنتاجه الجديد .

وكانت قصة الأسد الجربان هى آخر إنتاجه الأدبى بأسلوب الواقعية الاشتراكية التى كشف عنها السادة نقاد السجن الذين دخلوا معارك ضد زملائهم من أجل أدبه الجديد .

كانت القصة عن رجل يعمل فى مهن شتى فهو بائع أحيانا ، ولص يسرق أشياء تافهة أحيانا ، ثم صاحب قهوة صغيرة على الطريق مجرد مائدة صغيرة عليها باجور جاز وبراد شاى وعدة أكواب وفنجانين وزير ماء إلى جانبه ، وكان يتوقف عنده سائقو سيارات الأجرة الصغيرة خصوصا فى النهار . أما فى الليل فكان يتوقف عنده اللصوص وقطاع الطرق ورجال الشرطة وساومه رجال الشرطة ليعمل مرشدا لهم ولكنه لشدة كرهه لرجال الشرطة الذين تعامل معهم داخل السجون قرر أن يتخذ جانب اللصوص والمجرمين وفاتح رئيس العصابات فى المنطقة على أن هناك مكانا ما فى الجبل يستطيع فيه أن يعد الشاى والقهوة لرجال العصابات .. وبالفعل انتقل من مكانه إلى مكان آخر فى الجبل .. ولكنه اكتشف أنه فعل شيئاً غير مدروس وأن حصيلته اليومية فى الجبل لاتتعدى بضعة قروش . وعندما شكا حاله لرئيس العصابة عرض عليه أن يترك هذه المهنة الخايبة التى لا تغنى ولاتشبع من جوع وأن يشترك مع أفراد العصابة ويحصل على نصيبه وهو بالتأكيد نصيب كفيل بتوفير حياة طيبة للقهوجى . وفى أول طلعة مع اللصوص وقعت كابسة من الشرطة وقتل بعض اللصوص وفر البعض الآخر وسقط القهوجى فى أيدى الشرطة . ورفض سيد أن يعامل كاللصوص فهو ثائر وليس لصا .

فوقف يناقش ضابط المباحث ولكن ضابط المباحث لم يكن لديه الوقت أو الاستعداد لمناقشة أى أحد أو الاستماع إلى أى شىء ولما أصر القهوجى ضربه الضابط على وجهه فرد له القهوجى اللطمة

وبدأت معركة انتهت بمقتل القهوجي والقاء جثته با لمزارع وعثر عليه اللصوص فى اليوم التالى فأخذوه وغسلوه وكفنوه ودفنوه وعندما انتهت مراسم الجنازة التى لم يحضرها إلا أربعة أشخاص فقط من زملائه اللصوص قال أحدهم .. أنا شفته وهو بيكلم الضابط كان زى الأسد ورد عليه زميله بس أسد جربان . كان كل من يقرأها يثنى عليها طبعا وعلى مؤلفها خجلا وحياء باعتبار أن سيد فزيكا زميل على كل حال .. ولكن سيد ألح على نشرها ونشر مؤلفات أخرى من إنتاجه . ثم نشر جميع ماكتبه فى كتاب أو فى كتب .. وعندما ناقشه أحدهم بأن هذا الأمر غير ممكن ، والظروف لا تسمح ، تساءل سيد فى دهشة شديدة .. واشمعنى لويس عوض ومحمود العالم ولطفى الخولى ومش بس دول .. دانتوا بتطلعوا كتب لناس كانوا بيعارضونا فى السجن وكان خطهم السياسى مايع وبتطلعوا كتب كمان للى أسوأ منهم حاول أحد الزملاء مساعدته وكان فنانا ورقيقا ، وكان يعطف على سيد فزيكا ويمده بين الحين والآخر ببعض النقود ، بل انه ذات مرة ـ وكان مسئولا عن دار نشر ـ أخذ منه بعض إنتاجه وأصدره فى كتيب صغير على أساس أنها محاولات من مواطن يشعر بأن عليه واجبا نحو وطنه . هذا العمل الخيرى الطيب كان سببا فى الجنون الذى أصاب سيد فزيكا وجعله يؤمن بأنه أحد كبار الأدباء فى العالم العربى . طبعا سيد كان معذورا . فرجل لا يعرف القراءة والكتابة ويجيد لغة فريم وفازيكا وكعباة ويدعو إلى تطور الأدب والفن لمصلحة الناس الشقيانين . المهم أنه كان شديد الوطأة وشديد التعذيب للرجل الفنان الرقيق الذى حاول أن يمسح على جراحه وحاول أن يقنعه بالعودة إلى عمله القديم مع استمراره فى كتابة القصص .. وقال له .. إن هناك كثيرين مثله يشتغلون فى أعمال أخرى ويمارسون الأدب فى الوقت نفسه وضرب له مثلا بالدكتور عبد القادر

القط استاذ الجامعة والاستاذ يحيى حقى الذى كان سفيرا وزكريا الحجاوى الذى كان موظفا . وتوفيق الحكيم الذى كان مديرا لدار الكتب ولكن سيد فزيكا لم يقتنع . لقد تفجرت موهبته فى السجن واعترف بها جميع النقاد خصوصا الذين كانوا ينزلون فى زنزانة ٨ بعنبر أ فى سجن الواحات الخارجة ، ولابد من نشر هذا الإنتاج أو الالتحاق على الأقل بوظيفة أدبية ، وخسر سيد فزيكا آخر صديق كان يعطف عليه فى مجموعة الزملاء القدامى .. بعد انقطاع صلة فزيكا بآخر خيط كان يربطه بالزملاء السابقين لجأ إلى مهنة أخرى ربما لم يفكر فيها من قبل إلا لحظة تأكده بأنه فقد كل شىء . كان يقف على باب المؤسسات الصحفية التى يعمل بها زملاؤه السابقون ينتظرهم ويطلب منهم أن يشتروا قصصه وينشروها بمعرفتهم باعتبار أن هذا واجب تفرضه عليهم الزمالة القديمة ـــ ثم تطور الأمر بعد ذلك فأصبح يقف على الأبواب يوم القبض فقط . وأعطوه مرة ثم انقطعوا بعد ذلك فعاد فى الشهر التالى وفى يده شومة وقام بتهويش البعض مرة وضرب فى المليان مرة أخرى . واضطر رفقاء الماضى لإبلاغ الشرطة وعاد فزيكا إلى السجن من جديد ولكن ليس من أجل رفع مستوى الفقراء وشيوع الرخاء والسعادة على الجميع هذه المرة كانت التهمة هى البلطجة . وتردد فزيكا على السجون ذهابا وإيابا عدة مرات ثم شعر فى النهاية بأنه لا يستطيع أن يحتمل كل المشوار ، فالوضع مختلف كثيرا عن السجن فى الفترة الماضية فقد حاول الاتصال بأحد رفاق السجن ولكنه فشل .

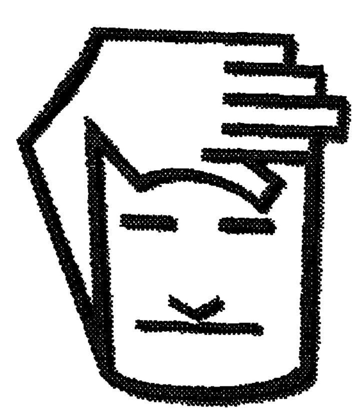
لقد تبرجزوا جميعا وانتقلوا إلى طبقة أخرى هم ينعمون الآن بالاستقرار والأمان يشربون أفخر أنواع الشراب ويأكلون أفخر أنواع المشويات ويدخنون السجائر الأمريكية التى يعود ربحها إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . لقد خانه الزملاء وتركوه وحيدا فى العراء .

وإذا كان قد فشل فى أن يكون له مكان بينهم وفشل فى أن يحتفظ لقدمه بموضع فى عالم الأدب ، فهو يستطيع أن يجد له دورا متفردا وهو كشف هؤلاء العملاء والخونة وفضحهم أمام محكمة التاريخ . وعندما اكتشف فزيكا هذا الدور الفريد لنفسه أطلق ذقنه ومزق ماتبقى من ملابسه التى امتلأت بالرقع والثقوب وعاد إلى شومته القديمة قبض عليها بأصابعه بما تبقى له من قوة وكتب منشورات بخط يده فضح فيها خيانة الزملاء الذين أصبحوا يأكلون عند الكبابجى ويشربون الشاى فى قهوة المعلم أمين ويشترون القمصان الجاهزة من عمر افندى ويعيشون عيشة أمراء الهند فى العهد القديم . وبعضهم يفطر صنفين وثلاثة فول وطعمية وجبنة ، وهناك معلومات تشير لأن بعضهم يأكل عسل نحل فى الصباح ، كل منشور كان يتضمن عددا من الفضائح من نوع أكل الفول والطعمية معا فى وقت واحد .

ومن يومها نزل فزيكا إلى الشارع يرتدى بنطلونه القديم وقميصه المهلهل ويخفى عينيه بنظارة سوداء والشومة تحت إبطه بينما أصابعه توزع المنشورات الثورية ضد رفاق الأمس .

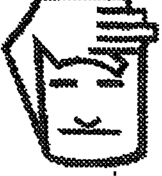
وتستطيع أن تراه حتى اليوم يقطع الشارع ذهابا وإيابا يوزع المنشورات والشتائم ، وأحيانا يهجم على بعض الجالسين فى المقاهى يطلب سيجارة وأحيانا ساندويتش ، وهو يختار الذين يطلب منهم ويشترط أن يكونوا من عامة الشعب أما المثقفون الذين خذلوه والرفاق الذين تخلوا عنه فهو لايطلب منهم شيئا لا ينتظر منهم أى شىء ، فليس بينه وبينهم إلا الثورة على الادعاءات الكاذبة والدعاوى الزائفة وإذا كان هناك هدف فهو الحرص على الواقعية الاشتراكية التى هو نفسه رمزها والتطبيق العملى على أنها الطريق الوحيد والصحيح !





١٢ العمـــدة

●● لا أحـد يستطيع أن يحدد مـا الـذى سيحـدث فى السجن فى اللحظة التـالية. فـالأمور عـادة لا تستقـر على حال. وقد يقع ما ليس على البـال فتتحول حياة النزلاء إلى جحيم. وفى ذلك الصباح كان كل شىء يسير على مايرام، الـورش شغالـة والإدارة مسترخيـة فى مكاتبهـا، وبعض النزلاء يلعبـون فى حوش الرياضـة، وعساكر الحراسـة فوق السـور يتبادلـون الشتـائم مع بعض النـزلاء، والأثـريـاء من النـزلاء يتمشـون كالعـادة فى الحـوش الكبير تحت شمس ينـاير الضعيفـة. فى الوقت نفسـه كـان الشـاويش المكلف بإدارة المطبخ يشرف على اللمسات الأخـيرة لإعداد وجبة العدس بعد أن اقتربت عقارب السـاعة من الواحـدة بعد الظهـــر. وبينما شـــاويـش المطبخ يصرخ فى النـــزلاء الطبـاخين، وصل حضرة الصـول مبعـوثـا من البيـه المأمـور بأمـر عاجـــل بوقـــف عمليـــة إنضـاج العـدس، لأن البيـه أمـر بـذبح بقـرة من أبقـــار مزرعـــة الســجن وتوزيـــع لحمهـــا مطبـوخـا على النـزلاء من بـاب الترفيـه ●●





وصفق النـزلاء العاملـون فى المطبخ للخبر السعيـد، وسرت مـوجـة من الفـــرح بين النـزلاء فى العنــابـر وفى الـورش. فالبقـرة هـذه المرة بلدى من المزرعـة وليست لحمة مجمـدة من المتعهد، وهى طازجة أيضـا لأن البيه المأمور ذبحها لمناسبة لابد سعيدة وإن كـان النزلاء لم يعـرفوا حقيقتهـا بعد. وبلغـت فرحـة النزلاء العـاملين بـا لمطبخ حـدا جعلهم يحملـــون الإنـاء الضخم الـذى ينضجون فيـه العدس ويلقـون بالطبيخ فى المراحيض.
فهـذا العدس الـذى كـانوا ينضجـونـه مـرت عليه سنـوات طويلة فى المخزن، وهـم اضطروا إلى طبخه رغـم أنهم شاهدوا السـوس يسعى داخل الصفيحة التى وصلتهم من المخـزن، سوس على دود على ذباب على بقايـا صراصير، ولذلـك ولأنـهم يعرفـون سر العدس، فقـد عملوا حســابهم وقـامـوا بسلخ وتتبيل عـدة فئـران غيطى فى حجم القطـة ولفوها بأوراق شـجر عريضـــة ووضـعوها فى الفرن. والفئران الغيطى أنظف فى رأيهم من السوس والدود وبقـايا الصراصير. ثم انهمكوا بعد ذلك فى تقطيع البقـــرة واحتفظـوا لأنفسـهم بقطعـة كبيرة مـن الفخـذ وأعدوا منهـا ورقة لحمـة بالبصل والثـوم والطماطم والفلفل الأسود والملح. وقطعوا للشـــاويش خمسة كيلو من بيت الكلاوى لـزوم عشاء العيال فى البيت، وأذاعوا فى السجن كلــه أن اللحم الطيب سيكون معدا للتـوزيع فى الخامســة وأن التمام سيتأخـر نصــف ســاعـة لكى يتم التـــوزيع على الجميع قبل إغــلاق الزنــازين. وبينما الجميع يترقبـون

وصول اللحم البلدى الطيب عاد العمـدة من المزرعة. والعمدة هو لقب أطلقـه النزلاء على فـلاح مسجون تأبيـدة فى جـريمة ثأر. ولأنـه رجل طيب ومؤمن ويعرف الله، فقد كان الجميع يقبلون حكمه فى المنازعات التى تنشأ بين النـزلاء لسبب أو لآخـر. وكـان العمـــدة يتـــولى مع الشـاويش الحلـوانى مهمـــة الإشراف على عمل النـزلاء الفـلاحين فى المزرعة، ولذلك كان غالبا يعـود إلى السـجن بحزمة جرجير أو عدد من حبات الليمـون، وربطة فجل أو بعض ثمار التـوت، أو أى صنف آخر مما تنتجه المزرعـة التى تبلغ مساحتها خمسة أفـدنة بجوار السـجن. وعاد العمدة فى ذلك المساء ومعه فجـل كثير وكرات وخيارتان. وسأله النزيل بدوى وهو يقطع الحوش داخلا إلى العنبر .

ـ دا النهاردة لحمة يا عمدة. جايب الحاجات دى ليه ؟

ورد العمدة فى هدوء :

ـ أنا رجل مسلم ما كلش الميتة.

ـ ميتة !؟

هكذا صرخ بدوى فى الحوش ثم عاد يسأله .

ـ البقرة دى ميتة يا عمدة ؟

ـ من امبارح ، وعشـــان كده اتأخـرنـا سـاعـة امبارح فى المزرعـة، والشاويـش الحلوانى خاف يبلـغ ليلة امبارح عشـان السين والجيم، وكان عاوز يلحق الحلزونة عشان يسافر لعياله فى منوف .

ـ يا نهار أزرق

هكذا صاح بدوى بصوت مرتفع سمعه كل من فى الحوش، وجذبت الصرخة انتبـاه النزلاء فهرعوا إلى حيث يقف بـدوى والعمدة، ولم تمر لحظات حتى كان الخبر فى كل زنزانـة وفى كل موقـع عمل. وصاح نزيل كان يعمل مأمورا للضرائب :

ـ يا خبر اسود، هيأكلونا لحمة ميتة ؟!

ورد عليه اليانكى فى سخرية :

ـ يا عم ارم اللحمة وكل الخضار .

وقال نزيل آخر :

ـ يعنى الخضار اللى كويس، ما هو ميت راخر !

اشتد الزحام بشدة حول العمدة، والكل يسأله عن حقيقة الأمر. وحكى العمدة للناس الحقيقة دون زيادة أو نقصان :

ـ حقيقة ربنا البقرة دى كانت عيانة من مدة، وطلبنا الدكتور البيطرى يشوفها ما حدش سأل فينا، وبعدين اشتد عليها المرض، وبقت كلها جروح ودمامل وهزلت وضلوعها بانت. وامبارح وقعت على الأرض وفرفرت شوية وراحت طبة ساكتة. الشاويش الحلوانى قال.. خلاص، اكفوا ع الخبر ماجور لحد بكرة الصبح، حاكم الحلزونة كان فاضل عليها ربع ساعة، ولو مالحقهاش هيضطر يبات فى السجن. النهاردة الصبح راح بلغ البيه الوكيل ، والبيه الوكيل كلم ناس فى المصلحة ، وبعدين جابوا الواد نصر الجزار من التأديب سلخها وقطع رأسها وقطعها، والبيه الوكيل قال فرقوها على المساجين «ترفيه» وخلوهم يدعوا لنا فى الأيام المفترجة دى !

وسرعان ما ظهرت بوادر انقسام داخل السجن، بعض الملتحين طالبوا بأبلاغ النيابة، والمعلم بدوى ومعه بعض المجرمين أصحاب التأبيدة هددوا بعدم دخول الزنازين حتى يحضر مسئول من المصلحة. ولكن الجميع اتفقوا على عدم دخول الزنازين والبقاء فى الحوش وعندما اشتد الضجيج جاء وكيل السجن إلى الحوش وتساءل عن سر الاجتماع في الحوش. فتصدى له المعلم بدوى وأخبره بنبأ البقرة الميتة، فلزم الوكيل الصمت وراح يتفرس فى وجوه النزلاء، وعندما تأكد أن الصدور تغلى بالحقد، وكان هناك ما ينذر بالشر، رسم على شفتيه ابتسامة باهتة وقال :

- ومين اللى قال لكم الكلام الفارغ ده ؟

وانبرى له العمدة ووقال له فى لهجة واثقة :

- دا كلام مضبوط يا سعادة الوكيل وانت عارف كده .

كان الوكيل المنقـول حديثا من عمله السابق كـرئيس مباحث لأحد مراكز الصعيد، بعد اتهامـه بقتل أحد المتهمين أثناء التحقيق معه. كان المتهم الشـاب الذى لم يتجـاوز الخامسـة والثلاثين قـد ألقى القبض عليه فى قضية سطـو مسلح ولمـا لم تكن هنـاك أية أدلـة تدين الشاب المتهم، فقد حـاول إجباره على الاعتراف، ولكن كل محاولات الضـابط فشلت فى حمل الشاب على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها، وهداه تفكيره إلى طريقة جهنمية. أجبر المتهم على ارتداء فانلة مبللة با لمـاء فلما جفت كررها عدة مرات على مدى أيـام، أصيب المتهم بعدها بالتهاب رئوى، ولم يلبث فى محبسـه إلا فترة قصيرة غـادر بعـدهـا الحيـاة، وأدانت النيابـة الضابط وأحالتـه إلى المحكمة، ونقلته الـوزارة من المباحث إلى مصلحة السجون .

خاف الضـابط من عواقـب انفجار الموقف فى السجن ، ولـو حدث هـذا الذى يخشـاه فسيكـون مصيره الفصل بـالتأكيد. ولـذلك بـذل مجهـودا كبيرا لكى يضع أعصـابه فى ثـلاجـة. وقـال للعمدة بلهجـة ودودة :

- مش عيب يا عمدة تبقى راجل تعرف ربنا وتقول كلام زى ده ؟

ورد العمدة بهدوء شديد :

- أنا عشـان عارف ربنـا قلت الحقيقة، واللى انت عملتـه دا غلط.

ومسح الضابط بعينيه وجوه النزلاء المتجمهرين وقال :

- طيب.. إيه رأيكم بقى، أنا حـكون أول واحد يأكل من اللحمة دى عشان أثبت لكم إن الراجل العمدة دا بيقول كلام مش مضبوط .

وطلب الضابط من الشـاويش الحلوانى أن يحضر له أحد المقـاعد

ليجلس عليه فى الحوش وترابيـزة، وطلب من المعلم البدوى أن يخطف رجله إلى المطبخ ليحضر لــه قطعة لحم وشويـة مرق لكى يأكلهـا أمام الجميع. ونظر المســاجين للعمدة يحاولـون اكتشاف الحقيقـة. وأعاد العمدة على مســامع الجميع ماسبق أن أكـده لهم، وقال وهـو يستعيذ بالله .

ـــ البقـــرة ميتـــة من امبـــارح واللى يقـــول لكم كـــلام غير ده ما تصدقهوش !

نظر الضـابط إلى جموع النزلاء وقال :

ـ لو كلت من اللحمة تصدقونى ؟!

وهتف الجميع فى صوت واحد :

ـ نعم .. بس تأكل منها قدامنا

كان الشـــاويش الحلوانـــى قد جاء بـــالكرسى والترابيـــزة، فجلس الضابط وسط الحوش وحـوله النـزلاء، وكان المعلم بدوى الـذى كلفه الضـــابط بإحضار اللحـــم قد عـــاد ليبلغ الضـــابط أن اللحمة عجـــوزة وتحتاج إلى ساعة أخرى حتى تنضج، ونظر الضابط فى الساعة وقال :

ـ ع العمـــوم أنا النوبتجى النهـــاردة، وهنفضل كلنا فى الحوش لحد ما تستوى اللحمة وإن شا الله نقعد للصبح .

وصفق المســـاجين بشدة، فهى فـرصـــة لا تعوض لقضـــاء الليل أو جـزء منـــه فى الهواء الطلق، فمن الغريـــب أن يكون الليل ممنـــوعـــا على المساجين، بينما النهـــار والشمس حق من حقوقهـــم. وتطوع بعضـــهم فأحضر عدة الشاى من الزنزانـــة، وعملوا واحد شاى مضبوط لحضرة الضابط. وراح الضـابط يمزح مع زعماء السجن.. المعلم بدوى والمعلم أحمد . كـــان بعضـــهم قتلـــة وبعضـــهم تجار مخدرات، وقـــال الحاج عكاشة :

ـ انت أصلك يا بيه مش ابن المصلحة، والسجون دى ما يعرفهاش

إلا الضباط أولادهـا، وانت سعادتك جـاى من المباحث، وممكـن قوى الصولات والشاويشية يعملوها وتخيل عليك .

ورد الضابط معاتبا :

ـ يعنى انت رأيك يا حاج عكاشة إن انا أهبل وعبيط .

ـ لأ العفو يا بيه، سعـادتك سيد الناس، لكن كل صنعة ولها أسرار ما يعرفهاش إلا أولاد الكار، والسجون صنعة !

ـ يعنى انت مـش مصدقنى أما أقـولك إن البقرة مـدبوحـة قدامى ودمها طرطش على .

وانحنى الضابط يبحث عن آثار الدم على بنطلونه، ولما لم يعثر على أثر للدم قال :

ـ أنا أصل عندى دوا بيضيع البقع على طول !

وقال العمدة فى صوت مسموع :

ـ أستغفر الله العظيم .

وتملك الغيظ من الضابط فقال موجها حديثه للعمدة .

ـ انت كان لك مقام كبير قـوى عندى، لكن بعد اللى حصل الليلادى أنـا هعاملك ميرى. أنـا هـاكل اللحمـة قدام الجميع وبعـدين هيكـون حسابك عسير على الكلام اللى قلته .

ورد الحاج قائلا :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

راح الضابط يمزح مع الجميع ويوزع النكـات هنا وهناك. وعندما وصلت سلطـانية المرق وبها قطع اللحم كـانت السـاعة قـد تجاوزت الثامنـة مساء. وران الصمت على الجميـع وركزوا أنظارهـم على البيه الضابط والسلطانية التى وضعت أمـامه على الترابيزة. ومرت لحظات كأنها الدهـر كله والضابط ممسـك بالملعقة دون أن يتـذوق شيئا من محتويات السلطانية. ونادى الضـابط على العمدة وقال له على مشهد

من جميع النزلاء :

ـ برضه لسه بتقول إن البقرة ميتة ؟

ولم يزد العمدة على القول :

ـ ربنا يلطف بنا جميعا .

والتفت الضابط إلى النزلاء وقال لهم :

ـ عشان تعرفوا ان العمدة كداب أنا هاكل اللحمة الميتة .

ثم انحنى على السلطانية وهات يا شفط ويا شرب من المرق، ثم أمسك بقطعة اللحم بين أصابعه ومزقها بأسنانه وهات يا زلط، بعدها تعالت الهتافات بحياة الضابط. ثم بدأ توزيع اللحم على الجميع فى الحوش وفى الهواء الطلق. وراح الجميع يأكلون بشراهة، وعندما انتهت الوليمة نفخ الصول فى صفارته ودخل النزلاء زنازينهم، ولكن الضابط اصطحب معه العمدة حيث حرر له محضرا بتهمة تحريض النزلاء ضد الإدارة، ثم سحبه من يده وأودعه زنزانة فى التأديب. كانت هذه هى المرة الأولى التى يدخل فيها العمدة زنازين التأديب، بعد ستة عشر عاما من دخوله السجن، كان مثالا على الطاعة والنظام يمارس مهنته كفلاح فى مزرعة السجن، يخرج من السجن من الصباح الباكر ولا يعود إلا ساعة التمام. وبالرغم من استحقاقه للافراج منذ عام، إلا أن مصلحة السجون أخطأت فى تقدير مدة عقوبته. فجريمته كانت القتل للثأر وليست مقترنة بالسرقة. ومن حقه الإفراج بعد مرور خمسة عشر عاما. ولكنهم يماطلون بدون سبب. يالها من ليلة سوداء مرت على العمدة وهو جائع وبردان. لم يأكل شيئا من البقرة الميتة، والضابط صادر ما معه من فجل وكرات وخيار قبل أن يلقى به فى زنزانة التأديب. هذا الضابط عديم الذمة قاتل المتهم البرىء يكذب على المساجين ويأكل الميتة التى حرم الله أكلها. وأغلب النزلاء حثالة لا دين لهم ولا ملة ولا يهمهم إلا حشر المعدة وقضاء المدة على أى نحو .

وحـاول العمدة النـوم .. ولكن كيف يتسلل النوم إلى عيني انسـان مظلوم يشعـر بالجوع والبرد؟ إنه لم يشعـر فى حياته بأنـه مسجون. كان فـلاحا قبل دخـوله السجن وظل فلاحـا أثناء سجنـه. ولم يندم العمدة على شيء فعله فى حياتـه. حتى الجريمة الكبرى التـى ارتكبها بقتل الرجل الـذى كان وراء مقتل عمـه، كان يستحق ما هـو أكثر من القتل، بعد مقتل عمـه بأشهر قليلة راح الرجل يفخـر بما فعله، بل راح يصف القتيل أثنـاء عملية القتل، مع أنـه لم يحضر العملية، فقـد كان محرضا ولم يكن قاتلا، حيث أنه أجبن من أن يقتل.

ولكن بعض الأغبيـاء من النـاس تحكم على نفسهـا بالموت، وهـذا الضابط الكذاب واحد منهم كذب على النزلاء وخدعهم فأكلوا الميتة. ثم عاقب العمـدة بدخول التأديب، مـع أن التأديب ليس عقوبة بـالنسبة لـرجل مثل العمدة. ولكن العقـاب الحقيقى سيأتى بعد ذلك، سيحـرم من العمل فى المزرعة، وإذا كان سعيد الحظ، سيلحق بعمل آخر، ولكن المؤكد أنه سيجرى تخزينه داخل العنبر .

إنها جريمة قتل أخرى سيرتكبها هذا الضابط الغشاش والضحية هذه المرة هـو العمدة نفسه. هل يستطيع العمـدة أن يلزم الزنـزانة لا يبرحها عدة أعوام؟ بالتأكيد سيموت فى العام الأول من الحبسة .

وكم مضى من العمر يـا عمدة؟ يـاه.. خمس وستون سنة، يـاقوة اللـه. إنها سن منـاسبـة للـرحيـل قبل أن تهجم الأمـراض وتفـرض الشيخوخة قـوانينها على الانسـان. وهذا الضـابط لا يحتمل إلا ضربة واحدة فى صدره من نصلة ملوثـة. يأخذ الثأر للقتيل الشاب الذى قتله بالفانلات المبللة، وينتقم لنفسه أيضا فهو سيموت غيظا على كل حال. ومـد العمدة يـده يتحسس النصلة التى اختـارها لأداء المهمـة. ولكن العمـدة وجد نفســه يستيقظ فجأة على أصـوات غـريبة صـادرة من داخل العنـابر. وأصـوات حـركة سيـارات كثيرة تـدخل من البوابـة

وتخرج منهـا. لابـد حدث شيء فى السـجن، زيـارة من رتبـة كبيرة فى المصلحة، أو وفد من الوفـود الكثيرة التى تتردد على السجون لتشاهد التطوير الذى دخل على السجون المصرية، زيارات ليس من ورائها أى جـدوى، ولكنها تضيف إلى متـاعب النزلاء متـاعب جديـدة. وفجأة.. سمع العمـدة طرقـات شـديدة على بـاب الزنـزانـة، وصوت المفتـاح الضـخم وهـو يخترق فتحة البـاب، فوجد ضـابطا آخـر هو الضـابط محسن ومعه الشاويش مرسى الذى قال للعمدة :

ـ ياللا يا عمدة فرج ربنا وعفوه طالك .

ولم يفهم العمدة شيئا فتساءل :

ـ إيه الحكاية يا سعادة البيه ؟

ـ قوم انهض يا عمدة، روح العنبر بسرعة خد حاجاتك بسرعة .

ـ ترحيل واللا حاجة تانية .

ـ وقال الضابط وهو يغادر المكان ..

ـ إفراج يا عمدة .

حتى الضابط محسن السرساوى الطيب ابن الناس الطيبين يسخر من العمـدة، ولكن هذا السلـوك ليس من طبع الضـابط محسن.. فما الذى جرى؟

عندما غادر العمدة مكان التأديب ووصل إلى مكاتب الإدارة، شاهد عددا كبيرا من الضباط الكبار والبيـه المأمور نفسه وسيارات إسعاف وسيـارات بوكس وحـركة نشيطـة من جانب الصـولات والعساكـر. وعنـدمـا عبر الباب إلى حـوش السـجن التقى بأحـد النـزلاء القـدامى فسـأله عن سبب هذه الضجة .

ـ إيه الحكاية يا عم عنتر ..؟

ـ يوه .. انت فين ياعمدة ؟ السجن كله حولوه ع المستشفيات .

ـ ليه ؟

ـ مـاعرفش ، إسهـال وترجيع طـول الليل، والناس تصرخ وتلطم ما حدش سأل فيهم. لكن لما البيه الوكيل جـاتله الحالة الدنيا انقلبت، وبعـدين العسـاكـر كمان حصل لهم نفس الشيء، وجت العـربيـات ونقلوا الكل ع المستشفى.

ـ وانت ما حصلكش حاجة ؟

ـ لأ، ربك كبير، امبارح كنت عيان حتى مـا خرجتش ساعة القعدة اللى كـانت فى الحوش، كلت شويـة عسل اسود بلقمـة ونمت، يا قـوة الله.. يمهل ولا يهمل.. فـرجه قريب وعدلـه سريع، كم تمنى العمدة أن يموت الـوكيل وكان الجزاء العادل لـرجل لا يعرف ربنـا.. لم العمدة كل متعلقاته وأسرع إلى مكـاتب الإدارة، تلقـاه المأمور بشوشـا.. وقال له :

ـ خلاص يا عمدة الرحلة انتهت .. مبروك .

ـ الله يبارك فيك يا باشا .

ـ على رأى المثل .. أنفاس معدودة فى أماكن محدودة .

ـ إيه الحكاية يا سعادة الباشا ؟

ـ إفراج يا عمدة.. لك أمانات عندنا ؟

ـ منين يا باشا .. آدى الله وآدى حكمته .

ضرب المأمور يده فى جيبه وأخرج ورقة بجنيه ومد يده للعمدة :

ـ خلى دا معاك، تحتاج سجاير أو أى حاجة .

ـ يا بيه خيرك سابق .

ألح المأمـور فمد العمـدة يـده وتناول الجنيـه، وخـرج من بوابـة السجن. وصاح شـاويش البوابة.. مع السـلامة، أوعى نشـوفك تانى هنا !..



١٣

تعــــرف الحاج عطوة

●● تعــرف وهــدان أبــو سريع من غير مؤاخذة ؟

ـ مش واخد بالى فى الحقيقة .

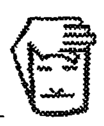
ـ دا كان فتــوة المدبح من غــير مؤاخــذة، وقتل فى يــوم تلاتين واحــد وشرحهم وعملهم كوستليتة، دا كان ابن عمى لزم .

ـ وحصل له إيه بعد كده ؟

ـ ولا حاجة ، اهتــدى وبقى يصــلى ويصوم، وراح يحج ومــات عنــد النبى ودفنــوه هناك .

ـ دا كــان لازم طيب ، هنيــا لــــه يا عـم ●●





ـ وتعرف ابراهيم عطوة ؟

ـ مش واخد بالى فى الحقيقة.

ـ دا كان ابن عمة والدى على طول، وكان فتوة المنايف من غير مؤاخذة ولما قامت الحرب ضد الانجليز أيام النحاس باشا بقى يأخذ التروسيكل بتاعه ويشيل مدفعه على كتفه، ويخش المعسكر الانجليزى يرمى قنبلتين كده وقنبلتين كده، وبعدين يرش اللى يقابله بالمدفع، قتل ييجى ألفين انجليزى فى شهر ولما غلب الانجليز منه تعرف عملوا إيه من غير مؤاخذة؟ ركبوا الدبابات وهدوا المنايف كلها ما خلوش راجل ولا مرة ولا عيل بيرضع من غير مؤاخذة. لكن شوف بقى حكمة ربنا، الوحيد اللى طلع منها زى الشعرة م العجين هو عمك ابراهيم عطوة .

ـ يا سلام دا حظه كويس قوى.

ـ شوف بقى حكمة ربنا، هرب من المنايف والضرب على ودنه وطلع على سكة مصر، وركب عربية نقل مع جدع سواق ابن حلال لما شافه عرفه، وقبل ما يخش بلبيس دخلت العربية فى شجرة انقلبت وولعت فيها النار، ماحطوش منطق لا هوه ولا السواق .

ـ يا سلام .. لكل أجل كتاب .

ـ اسم الله عليك، كل بنى آدم له ساعة، وممكن تفوت من النار، وتموت فى شبر ميه. ودايما ربك يضرب الأمثال فى عبيده زى ما حصل بالضبط مع على عزوز.. سمعت عنه ؟

ـ أعتقد إن أنا سمعت عنه .

ـ ما هو دا كان فتوة باب البحر، ودا يبقى أخو الجماعة بتوعى من غير مؤاخذة. تعرف إيه اللى حصل له ؟

ـ آه عرفت .

ـ عرفت إيه ...

ـ عرفت كل حاجة ، وعن إذنك عشان البيه المأمور طالبنى .. كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة للتخلص من المعلم رمضان طلبة نزيل عنبر ب بسجن القناطر ومسجون مؤبد فى تهمة لم يفصح عنها فى حديثه معى، هذا الحديث الذى تكرر كثيرا بمناسبة أحيانا وغالبا بدون أى مناسبة، حتى خيل للعبد لله أنه يتعقبنى ويترصد لى، خصوصا أثناء تواجدى فى حوش السجن، لدرجة أننى فكرت كثيرا فى عدم مغادرة العنبر حتى لا أقع فى الشبكة التى يجيد المعلم رمضان نصبها للعبد لله .

والمعلم رمضان والشهادة لله كان كلمنجيا من نوع خاص.

كان يبدأ حديثه دائما بسؤال :

ـ تعرف المعلم على عزوز ؟

سمعت عن ابراهيم عوض الله ؟

عرفت إيه اللى حصل لسليمان أبو اكتاف؟ وبالطبع لم أكن سمعت شيئا عن أحد من هؤلاء الذين يذكرهم المعلم رمضان، ولذلك كان دائما يجد من واجبه تعريفى بهؤلاء الأعلام الذين لا أعرفهم بسبب جهلى الشديد بتاريخ مصر الحافل بمثل هؤلاء الأبطال! ولكنى لحسن الحظ تمكنت من الإفلات من مصيدة عم رمضان بطريقة بسيطة للغاية. عندما يلقى على أسماع العبد لله بسؤاله الخالد :

ـ سمعت عن الحاج سعد برعى ؟

ـ كنت أبادره بالإجابة :

ـ وفيه حد ما سمعش عن الحاج سعد برعى ؟

يعنى عرفت الهوايل اللى هوه سواها .

ـ دانا أعرف عنه اللى انت ما تعرفوش، وانشاء الله أما أخلص من المشاكل اللى أنا فيها هقولك عنه اللى ودانك مش هتصدقوا .

ـ وتعرف إن المرحومة أمه تبقى خالتى ؟

ـ لأ أهى دى جديدة ، وعلى كل حال هوه راجل جدع ويشرف !

بعد هذه الواقعة لم يعد عم رمضان يلقى على العبد لله أسئلته التقليدية، ولكنه كان يلح على العبد لله فى أن أحكى له جانبا من بطولات الحاج سعد برعى .

فى بعض المرات كنت أجد سعادة فى سرد بعض الخرافات على مسامعه، ومن الغريب أنه كان يستمع باهتمام إلى أكاذيبى التى نسجتها عن الحاج سعد برعى.

ـ تعرف يا عم رمضان الحاج برعى عمل إيه فى ثورة ١٩، دخل على المعسكر الانجليزى اللى كان فى قصر النيل، وقبض على القائد البريطانى من قفاه وطلع بيه على بيتهم فى سوق السلاح. وبعت.. جواب.. للانجليز قاللهم فيه، ترجعوا سعد باشا أرجع القائد بتاعكم، مايرجعش سعد هافتح كرش القائد واعمله كفتة للكلاب .

وكانت السعادة الغامرة ترتسم على وجه عم رمضان عقب كل حكاية من هذا النوع، ولكنه كان حريصا فى كل مرة على توجيه سؤال واحد ومحدد ·

ـ تعرف ان المرحومة أمه تبقى خالتى !؟

ويبدو أن المرض الذى أصاب عم رمضان قد انتقل إلى العبد لله بالعدوى. فقد أصبحت أنا الذى أبحث عن عم رمضان لأحكى له جانبا من أمجاد عم سعد برعى، وبالفعل، أخذتنى الجلالة فرحت أحكى عن بطولاته فى ثورة ١٩، ثم تجاوزتها إلى بطولاته فى ثورة

عرابى، ثم انتقلت منها إلى سجله الخالد فى ثورة القاهرة ضد العسكر الفرنساوى بقيادة نابليون. وكان عم رمضان يبدو منسجما أشد الانسجام أثناء الحكاية، ولكنه لا ينسى مطلقا أن يلقى على أسماع العبد لله بسؤاله الخالد ·

ـ عارف إن المرحومة أمه تبقى خالتى ؟

أصبحت أكاذيبى لعم رمضان من هواياتى المفضلة لقضاء الوقت الممل الذى يمضى بطيئا فى السجن. ولكن سرعان ما أصبح عم رمضان أضحوكة بالنسبة لبعض المساجين الذين قطعوا المرحلة الثانوية فى الدراسة، وعلى أساس إن عم رمضان لا يفرق بين ثورة ١٩ وهوجة عرابى وثورة القاهرة ضد العسكر الفرنساوى. وبعدها أصبحت أنا الذى يبحث عنه فلا أجده. اختفى عم رمضان أياما فى زنزانته ثم نقلوه بعدها إلى المستشفى وعندما ذهبت لزيارته فى المستشفى لم يكن عم رمضان كعهدى به شديد الحفاوة شديد السعادة لزيارتى .

استقبلنى بوجه شاحب وابتسامة متكلفة وعندما عرضت عليه أن أقص عليه بعض الروايات عن نضال الحاج سعد برعى، امتقع وجهه وعلق قائلا :

ـ انت فاهم يا أستاذ إنى أنا حمار ؟ على العموم الله يسامحك .

حاولت أن أنفى عن نفسى هذا الاتهام، ولكنه اضطجع على سريره وقال·

ـ يا أستاذ أنا كنت عاوز أهون عليك الحبسة، لأنى شفتك مش مرتاح .

قلت مازحا :

ـ والحاج سعد برعى، هتنكر إن المرحومة أمه كانت خالتك

قال عم رمضان وهو يتأهب للنوم .

ـ تانى يا أستاذ، ربنا يسامحك .

ثم سحب البطانية على رأسه، وكان هذا إيذانا للعبد لله بمغادرة المكان .

هل صحيح كان عم رمضان يحاول التخفيف من وطأة السجن على العبد لله ؟

سألت ضابط العنبر عن تهمة العم رمضان، فأشار إلى لوحة معلقة فى حجرته وقال :

ـ هتلاقى تهمته فى تذكرته .

ألقيت نظرة على التذكرة لم يكن مدونا بها سوى عبارة غامضة (خطف أطفال وردهم بفدية) وهى تهمة خطيرة فى نظر الأمن العام. ولكن العبارة المدونة لم تشف غليل العبد لله. وإن كنت قد عرفت معلومة أخرى عن حياته، وهى أنه ارتكب عملية الخطف ثلاث مرات. فى المرة الأولى حكموا عليه بثلاث سنوات .

وفى الثانية صدر ضده حكم بسبع سنوات، وفى الثالثة صدر ضده حكم بالمؤبد. أما غير ذلك فلم يكن فى السجن من يستطيع أن يضيف شيئا آخر .

اشتد المرض على عم رمضان، وعندما زرته آخر مرة اكتفى بالنظر إلى وجهى، وعندما حاول الكلام لم يستطع النطق. وبعدها بثلاثة أيام مات عم رمضان. وفى مثل هذه الحالات يحاول السجن الاتصال بأهل السجين المتوفى ليتسلموا الجثة، ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك، فعندما دخل السجن لم يكن له عنوان ثابت، وبالرغم من السنين الطويلة التى قضاها فى السجن، إلا أنه لم يحدث فى أى وقت أن جاء أحد إلى السجن لزيارته، فلم يكن لعم رمضان أسرة ولا أقارب من أى نوع. ومن المؤكد أنه كان لقيطا وعاش فترة طفولته فى ملجأ.

ولعل ذلك هو السبب وراء زعمه الدائم بخيوط تربطه بالحاج برعى والحاج أبو سريع والحاج ابراهيم عطوة. كان يحكيها وهو

متأكد أنه يكذب.

وبعض الأكاذيب تجعل حياة الناس أجمل وأفضل. ارتاح عم رمضان بذهابه إلى قبره. الوحيد الذى عانى بعد وفاته هو العبد لله، فقد أدمنت رواية القصص المثيرة عن الحاج عطوة والحاج أبو سريع، وأحيانا كنت أسأل أول من ألقاه فى حوش السجن :

تعرف الحاج عطوة ؟

أغرب شىء أن عم سعفان الشهير باليانكى أجابنى قائلا :

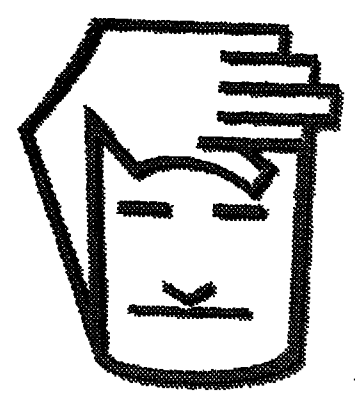
ـ ما اعرفوش ازاى، دا قريبى

قلت له على الفور :

ـ أمه تبقى خالتك ... مش كده ؟

ضحك اليانكى ضحكة عميقة وقال للعبد لله ·

ـ يا خويا اللهم صلٍّ على سيدنا النبى دا انت عارف كل حاجة !

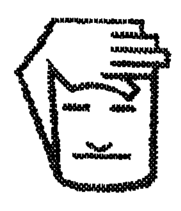


كلام يا كلام

البيض على الوتد

١٤

●● يا ميت حلاوة على الدنيا إذا أقبلت، على رأى المطرب أبو دراع، إذا أقبلت باض الحمار على الوتد، وإن أدبرت بال الحمار على الأسد. هذا هى الدنيا أقبلت يا كابتن. وأكل ومرعى وقلة صنعة، وهل الكورة صنعة؟ هؤلاء الخبر يدفعون مبالغ طائلة من أجل الكورة. مع أن الكورة مفروضة عليه، وهل يجيد الكابتن شيئا آخر، العيال الذين كانوا يسكنون فى الشارع الرئيسى بجوار حارتهم، والذين كانوا يتعلمون فى المدارس، وصار من بينهم الطبيب والضابط والمعلم والمهندس، كلهم يخطبون وده ويدعون صداقته، وأحدهم كان فى سيارته الملاكى مع زوجته وطفله الصغير، عندما لمحه فى السيارة لوح له بيده مرحبا، ثم ركن السيارة واندفع نحوه معانقا، ثم قدمه إلى زوجته الحسناء، وتوسل للكابتن أن يتفضل بزيارته، لعنة الله عليك هذا الشخص بالذات، كان ينظر نحوه شذرا ويحتقره احتقارا بالغا، وذات مرة أصيب حارس مرماهم وخرج من الملعب، فاستدعاه كابتن الفريق وطلب منه الوقوف فى حراسة المرمى، ولكن هذا الشخص المغرور طرده بقسوة ورفض أن يلعب فى فريق يضم مثل هذا الشخص المشبوه: ●●







انغمس الكابتن فى حياته الجديدة، حوله حلقة من كبار التجار والمعلمين وأشهر المهربين، وهو يدخن الحشيش ويستحلب الأفيون ويشم الهيرويين ويمضغ البانجو ويبلبع الحبوب وآخر ألسطة وانسجام. وما أحلى الفراشات اللاتى يرفرفن من حوله، زيزى وزيزيت وزوزو، فراشات لم يكن يحلم بمجرد النظر إليهن .

وما أكثر أصدقائه من أصحاب المناصب والمكاسب ورجال الأعمال، فيهم المتنفذ والقوى والمقتدر وصاحب النفوذ، إلا أن أقرب الأصدقاء إلى نفسه وأحبهم إليه هو الشيخ عزوز. والشيخ عزوز شيخ بالملابس فقط وليس بالعلم، وهو يقرأ القرآن أحيانا ويردد التواشيح فى المناسبات، كما أنه أحيانا يعزف على العود ويدق الطبلة، وعندما يتسلطن يرقص في جلسات الكابتن. وهو بالتأكيد أكثر المحيطين به إخلاصا، فهو حريص على تبخير الكابتن قبل كل مباراة، وعلى تغيير (الحجاب) الذي يتدلى من رقبة الكابتن، وأثناء المباراة يقرأله الشيخ عزوز عدية ياسين. وبالرغم من أن الشيخ عزوز طيب وابن ناس وفى حاله إلا أنه كان مستعدا للدخول فى معارك حامية ضد المشجعين الذين يهاجمون الكابتن. فالكابتن ليس له نظير بين كباتن الكورة الآن، وليس له نظير بين الكباتن فى أى عصر.

وكان الشيخ عزوز يقسم برأس جده أن مارادونا نفسه قال في مؤتمر صحفى أن الكابتن هو أعظم لاعب فى العالم! وكان الكابتن لا

يبخل على الشيخ عزوز ويغدق عليه بلا حساب. كما كان حريصا على استشارته فى كل أموره ثقة منه فى علمه، ولكن هذا الشيخ المزيف سقط من عين الكابتن نهائيا. والسبب أن الكابتل كان فى خلوة مع زيزى ذات عصرية، ولم يكن فى البيت معه إلا الشيخ عزوز، وقد تركه فى الصالة لترتيب القعدة وإعداد كل مستلزماتها. ولكن فجأة عندما غادر الكابتل غرفة النوم اكتشف أن الشيخ عزوز يقف خلف الباب مباشرة وعينه فى ثقب الباب. لم يتردد الكابتل فى صفع الشيخ عزوز على وجهه وعلى قفاه، وطرده من البيت شر طردة !

وستمضى حياة الكابتل آخر حلاوة وانسجام بالشيخ عزوز وبدونه. ولكن (قر) الناس يقصف الأعمار ويهد البنايات الشاهقة. وهناك ولد ضابط مباحث جديد لا يفهم شيئا ولايتفرج على كورة ولايشاهد التليفزيون، ولايعرف الفرق بين مارادونا والمكرونة. هذا الضابط الجاهل القفل الذى لايعرف ولايجيد أى شىء. جاء ذات مرة وهاجم قعدة الكابتل وأصر على اصطحاب الجميع إلى القسم. وعبثا حول إفهام الضابط أن ما يفعله هو ضد مصلحته. ولكنه أصر على تحرير محضر وحشر الجميع في الحجز. ونجح أحد التجار الذين كانوا معه فى الاتصال بأحد المتنفذين، فجاء الأمر بسرعة بالإفراج عن الجميع، وتقديم الاعتذار المناسب خصوصا للكابتل. ولكن المسألة لم تمر بهدوء، استدعاه رئيس النادى وعاتبه بشدة، وحذره فى الوقوع مرة أخرى فى قبضة الشرطة، وأمره بالكف عن ارتياد القعدات، والابتعاد عن هؤلاء الأصدقاء. مسكين رئيس النادى يعيش نائما على ودانه. إنه لا يدرى أن الكابتل كان مسطولا على سنجة عشرة عندما سجل ثلاثة أهداف فى مرمى فريق النجوم، وهى النتيجة التى رفعت النادى إلى قمة الدورى. وهو لايعرف أن هدف الترجيح الذى سجله الكابتن فيما يشبه المعجزة فى مرمى فريق الزهرة، تمكن من تسجيله

وهو فى قمة الونـونة، وكان على وشك أن يسقط على الأرض مغمى عليه من شـدة الانسطـال. لاشىء يجعل الكـورة طـوع قـدم الكـابتل إلا البلابيع والأنفـاس المعطرة. المهم. وعد الكابتل رئيس النـادى أنه لن يعود إليها مـرة أخرى.. ولكن كيف؟ استمر الكابتـل فيما اعتاد عليه. حتى جـاءت القـارعـة، ألقى القبـض عليـه بعض ضبـاط مكـافحـة المخـدرات وشحنوه مع الـذين كانـوا معه إلى الإدارة وكتبـوا المحضر وقدموه للنيـابة، وأفرجت النيابة عن الجميع بكفـالات إلا الكابتل، فقد عثروا معـه على طربـة حشيش ماركـة السفينة، وعشرات مـن حبوب الهلـوسـة. وقطعـة من الأفيـون الخام، واحتلت صـورة الكـابتل الصفحـات الأولى فى جميع الصحف، وخـاض البعض فى حيـاتـه ونشأتـه. ولكن مسـاعى بعـض المشجعين من كبـار القـوم، وبعض الضغوط القوية، دعت المحكمة إلى الإفـراج عن الكابتل لحين المحاكمة. وكان الكابتل قد قرر فى التحقيقـات أن الكميات المضبوطة معه تخصه للمزاج، ولكن النيابة اتهمته بأنه يحرزها للاتجار.

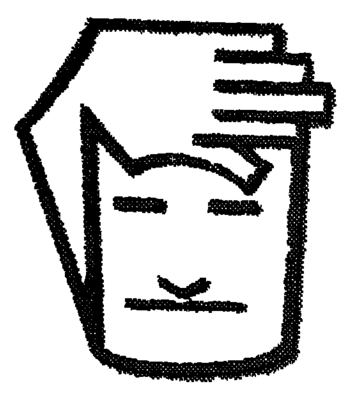
وبـالرغم مـن الإفراج عن الكـابتل إلا أنـه شعـر بالإحبـاط وبأن الضربة نالت منه بالفعل. واضطرب الكابتل فى الملعب فلم يعد كما كان من قبل، وضربت معه لخمة فلم يعد يستطيع تسجيل الأهداف. ومرت عليه فترة قضـاها على دكة الاحتيـاطى، وانكمش دخله فلم يعـد قادرا على مـواجهة نفقـات حيـاته الجديـدة. وضربت فى مخه العبـارة التى استخـدمتها النيـابة واتهمتـه بأنـه يحرز المخدرات بقصـد الاتجار. ووسـوس له الشيطـان ولماذا لا تـدخل سوق التجـارة، تكسب بعض المال وتـوفر مـزاجك من الصنف. ودخل الكابتل عـالم الاحتراف، ولما تدحـرج فى الكورة أمعن فى مهنته الجديـدة، وجاءت الضربة القـاضية عنـدما قبضـوا عليـه متلبسـا بتهريب شحنـة كبيرة من العـريش إلى القـاهرة.. وحـاول الإنكار، واتهم رجـال المبـاحث بأنهم يترصدونـه

ويستهـدفون القضــاء عليـه. ولكن شمس الكابتـل كانت قـد آلت إلى المغيب. وجـد الكابتن نفســه فى السجن. لقـد أدبرت الحيـاة، وإن هى أدبرت بــال الحمار على الأسد.. حكمة محمــد أبو دراع الخالــدة يالها من أيام سوداء تخلى فيها الجميع عن الكابتل. حتى المأمور الذى كان يحرص دائما على توصيل الكابتل إلى سيارتــه، يتعمد إذلاله، وكم مرة صافح المأمــور قفاه بكف يده. حتى المســاجين من مشجعى النوادى المنافسة كانــوا يحاولون الدخول فى معارك ضده ويتعمــدون إهانته. حتى مباحث السجن كانوا يختلقون المناسبات لكى يفتشوه بحثا عن المخدرات. لم يقف إلى جـانبه إلا أخوه الأصغر، كـان يتصدى لأعدائه من المســاجين، أمــا الإدارة فلم يكن باستطــاعــة شقيقــه الوقــوف فى وجهها. حتى النادى عـديم الوفاء لم يحاول الاتصـال بــه مرة واحدة، نسيه المشجعــون الذيــن كانوا يهتفــون باسمــه ويصفقون لــه حتى تدمى أيــاديهم. حتى مدير مصلحــة السجون الذى كـان يقف خارج مكتبه لاستقبــاله جــاء فى زيارة للسجن فلم يهتم ولم يستجـب لطلبه بــالسماح لــه بمقــابلتــه. وفكـر الكـابتل فى الانتحــار ولكنــه جبــان لا يستطيع الإقــدام على أمر مثــل هذا. يــالها من أيــام سوداء كــالحة كالعمل الردى، وما أشبه حاله بحال الفأر الذى وقع فى المصيدة، ومن يجرؤ على فتح المصيدة ليطلق سراح الكابتــن من هذا القفص الحديد. نسيــه النــادى ونسيــه النــاس وتجاهلــه المشجعــون واشتــد ضغط السجانة، وتضاعفت «رزالة» المساجين.

وذات صباح.. وبعــد أن خرج من دورة الميــاه وجد خنــاقة فى دور أربعــة شقيقــه أحــد طرفيهــا. كــان السجين الــذى يشتبك مع أخيــه شخصيــة مجرمــة معــروفة فى السجن، وكــان يضرب أخــاه بقســوة شديــدة فى بطنه وفى صــدره، حتى تكاد عظــامه أن تتكسر تحت وطأة الضربات. وهــرع الكابتل إلى حيث الخنــاقة المشتعلة. وســدد لكمة إلى

المجرم المعـروف ولكنها كـانت اللكمة الأولى والأخيرة، تـرنح بعـدها الكـابتل تحت وطأة الضربـات وسقـط شبـه مغمى عليـه على صـدر المجـرم. اشتعل حماس شقيقه وازداد خـوفه على الكـابتل الذى كـان مـوضـع فخـره وزهـوه وعلى الفـور استل (نصلـة) حـادة من بين مـلابسه ورفعهـا إلى أعلى وهوى بها على رقبـة المجرم، ولكن المجـرم كان حاذقا فى هذا اللون من العراك، تفادى الضربة، فهوت النصلة على صدر الكـابتل وفى موضـع القلـب مباشرة. وسقط الكابتـل على أرضية السجن ميتـا بـدون حراك. وذهب شقيقـه والمجـرم معـا إلى زنزانـة التأديب، ونقلـوا الكابتل إلى مشرحـة السجن. وبعد ثـلاثة أيـام داخل المشرحة كانت الفئـران قد أكلت أصابعه وأنفـه وجزءا من لحم وجهه. ولما كان بلا أهل وبلا أصدقاء، فقـد ألقوا به فى عربة السجن الضخمة وذهبوا بـه إلى مقابـر الصدقـة، وانتهت قصة الكابتـل، وكما جاء من تحت الأرض، ذهب إلى تحت الأرض. ولم يبق منـه إلا عدة قصـاصات من ورق الجرائد تحمل صـورة الكـابتل ومقـالات كتبهـا بعض الريـاضيين والنقاد، وتصريح للشيخ عـزوز بالبنط العـريض، نهاية الكابتل كـانت مؤكـدة، بعد أن حـاد عن طريق الصـواب وتفرغ لعمل الخبائث !!

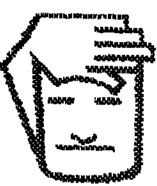




تمام يا أفندم

١٥ الكابتن

●● الحكومة صعبة وإيدها ناشفة وضربتها والقبر.. وهي مثل المرأة اللعوب. ساعة معاك وساعة ضدك.. وسعيد الحظ هو الذي يكفيه ربه شر الحكومة في جميع الأحوال.. لأن شرها كبير وهي ضدك، وشرها كبير وهي معك! وليس مثل الكابتن من يستطيع أن يبرهن على هذه الحقيقة، وليس مثل الكابتن من ذاق شر الحكومة في الحالتين.. في البداية.. تركته أمه مع أربعة أطفال هم إخوته. ومات أبوه الذي كان يعمل خفيرا في مصنع الخواجا جان ماروجيان ولم يحتمل فمات هو الآخر على فراش قذر في مستشفى حكومي ليس له صفات المستشفيات إلا اليافطة المرفوعة عند الباب. ووجد الكابتن نفسه وهو في العاشرة من عمره ضيفا في مبنى حكومي يسمونه الملجأ، وفي الملجأ تمنى الكابتن أن يصبح مجرما شديد البأس لينتقم من صنوف العذاب التي عانى منها داخل الملجأ. لو حقق الله أمنيته فسينسف الملجأ من أساسه، ثم يقتل مدير الملجأ والمشرفين والبواب والطباخ أيضا. ومع أن مهمة الطباخ تنحصر في إعداد الطعام للنزلاء. إلا أنه كان يقضي ربع الوقت في الطبخ وثلاثة أرباع الوقت في ضرب النزلاء لسبب أو بدون سبب، ربما للتسلية، وربما لقتل الوقت، وربما احتجاجا على العذاب الذي يلقاه في الحياة! ●●



المهم أن عــذاب الملجأ تـوقف بهروب الكــابتل مع بعض زمــلائه ، كان قـد بلغ الخامســة عشرة ، وعندمــا هرب خارج الأســوار لم يكن قد تعلم شيئا داخل الملجأ إلا تدخين أعقاب الســجاير ونصب الفخاخ لاصــطياد صغار الطيور . ولم تكن حياته خارج الملجأ أفضل من داخله . جــاع أكثر وتعرى أكثــر ، والمكسب الوحيــد هو إحساسه بأنه حــر يستطيع أن يفعل ما يريد فى أى وقت يريد ، لا مــواعيد محددة ولا سلوكيات معينــة ولا إطفاء للأنــوار ، فالشــارع لا ينطفىء فيه النــور ليلا أو نهارا .. كان ينام فى أرض فضاء تنمو فيهــا بعض الأعشاب ، وفى البداية كــان ينام وحده ، ولــذلك اضطر إلى إشعــال نار على مقـربــة منه لكى يحمى نفســه من الزواحــف والحشرات .. ويبدو أن النار المشتعلــة جذبت أنظــار بعض الصياع ، فجــاءوا واحدا وراء الآخر ، حتى تحولت الخرابة فى النهــاية إلى مجتمع يضج بــالحياة .. وفى البــداية حــرص على أن تكون هنــاك مســافة بينــه وبين الآخــرين ، ولكن الضياع يجمع بين الضــائعين .. ووجد الكابتل نفسه دون رغبة منه واحدا من شلة الخرابة ، وشاركهم الطعــام وتــدخين السجــائر وشرب بعـض أنــواع السبرتــو المخلــوط بأصنــاف أخـرى لا داعى للســؤال عن أصلهــا .. كــان بعض رفــاق الخرابة يحمــل نقودا والبعض الآخــر تظهر معــه ساعــات ونظارات ، ولكنها لا تستمــر معهم طويــلا ، ولم يكلف نفســه سؤال الرفــاق عن مصدر مــا يحملون من نقود أو ســاعات .. وذات مساء وكـوز الشاى

على النـار المشتعلة وبعض نـزلاء الخرابـة يلتفـون حول النـار هبط عليهم بعض الضيوف ، أصواتهم خشنة وكفوف أيديهم ثقيلة وأخذوا العـاطل على الباطل وشحنـوهم فى سيـارة ، ووجـد الكابتل نفســه فى الحجـز متهما بسرقة ســوبر مـاركت .. ودخل الكـابتن فى سين وجيم ولم يستطع أن يثبت أنــه يعيش مستقـلا عن الآخرين ، ولـذلك وجـد نفسه فى السجن لمدة عـام .. وعندمـا خرج الكابتـل لم يكن يعرف من الحياة ، إلا الخرابـة والشارع المجاور .. ولكنــه اكتشف عند وصــوله للخرابـة أن الدنيـا تغيرت ، وجد ملعبا لكـرة القدم ، وأجـوالا خشبية وشباكـا حولها ، ورايـات فى الأركان ، ولكنــه لم يهتم فلجأ إلى مكـانه القديم وأشعل النار ونام . ويبدو أنه كان شديد التعب فلم يستيقظ إلا وحجر كبير يصطدم برأسه ، ثم اكتشف أن الحجـر هو كورة أنبوبة ، ثم اضطـر إلى النهـوض والابتعـاد عـن حـدود الملعب .. كـان الملعب مشغـولا طـول النهـار ، تشغلــه فـرق من كل الأصنـاف ، فـرق من الشباب بملابس الكورة ، وفرق مــن الصبيان بملابس النوم ، ولعيبة بأحذية ولعيبة حفاة ، وحكام بصفافير وحكام يستخدمون أصابعهم لإطلاق الصفـارة ، بعض الفرق كانت تـوزع برتقالا وبعضهـا يوزع سجاير ، وبعضهـا يدخل فى خناقة حاميـة عقب انتهاء المباراة .. ذات صباح وكـان يشاهد مبـاراة بين فريقين يلعبـون بالفانلـة واللباس ، استدعاه أحدهم وأمره أن يخلع جلبابــه ويقف حارسا للمرمى بعد أن أصيب الحارس الأصلى واضطر للخـروج من الملعب .. ووقف الكابتل دون أن تكون لديه أية فكـرة عن مهمته ، ولكنه فى أول مرة تسلم فيها الكـورة أخذهـا بقـدمــه وسرح بها متجاوزا كل الخصـوم وفـات من حـارس المرمى الآخر وركن الكـورة فى الشبكة ، وانهال عليــه الجميع بالأحضـان والقبلات ، ثم أخـذوه معهم قلب هجوم للفـريق ، وأطلقوا عليه لقبه الذى سيلازمــه إلى النهاية .. الكابتل ! وذاع صيت الكابتل فى

خـرابة شمايل ، وانتقل من فـرقة إلى فـرقة ، وأصبح يلعب بمـلابس الكورة ، وصـار له دخل معقـول يغنيه عن سـؤال اللئيم .. وذات يوم وهو جالس فى الخرابة يعد لنفسه كوب شاى مضبوط هبط عليه رجل طيب وعرض عليه اللعب فى صفوف فريـق شركة السكر مقابل وظيفة براتب مـائة جنيه فى الشهر وبـدون عمل محدد إلا الاشتراك مع فريق الشركة فى مباريـات الدوى . وانفتحت ليلة القدر أمـام الكابتل وصار فـرخة بكشك فى الشركـة ، واصطحبـه مديـر الشركة ذات صبـاح إلى المحـافظة وحصل لـه على شقة تمليك .. وداعـا لأيام الفقـر والنحس والضياع .. الكـابتل صـار له حيثيـة فى المدينة ، النـاس على القهاوى يقفـون احترامـا للكابتـل ، وحضرة الصول نفســه عنـدمـا رآه داخل القسم ضرب له تعظيم سلام .

وفى كل صبـاح تمر عليه خـادمة تنظف الشقـة وتغسل الهدوم .. وصورتـه تظهر على صفحـات مجلة الشركـة ، ومعه دفتر تـوفير من ثلاثـة أصفار . الله يرحمه ويحسن إليـه ، أبوه الغلبان لـو عاش حتى رآه فى هذا الـوضع الممتاز ، ولـو امتد العمـر بأمه فعاشـت حتى رأته والنـاس تهتف باسمـه وتحملـه على الأعناق ، ولكن كل شىء قسمـة ونصيب ، وتجرى يا ابن آدم جـرى الوحـوش وغير رزقك ما تحوش ، وسبحانـه رب العباد يسبب الأسبـاب ، ويضـع سره فى أضعف خلقه ، ومن يدرى .. لولا الكورة لكان الكابتل الآن خلف الأسوار .

ولأن الكـابتل ذاق التشرد والجوع ، فقـد حـرص دائما على تـوفير بعض النقود ، وحتى لا يعـود إلى النوم فى الخرابة إذا هبت الـرياح بما لا يشتهى الكابتل . والغـريب أن الذى كان يخشاه حـدث بأسرع مما كان يتوقع .. فى البداية سمع كلامـا يتناثر هنا وهناك .. الشركة تنوى بيع الكابتل لنادى رمسيس ، الكـابتل يباع ؟ وهل صار البنى آدم مثل الحمار وفحل الجاموس ؟ ولكن .. يا خبر بفلـوس بكره يبقى ببلاش ..

استدعته إدارة الشركة وأبلغته أنه سينتقل إلى نادى النجوم مقابل ٥٠ ألف جنيه ، وسيكون نصيبـه من الصفقة ١٥ ألف جنيه ، وسيحصل النـادى على ٣٥ ألف جنيه ، وشعـر الكـابتل بأن قلبـه يرفـرف وعلى وشك أن يشق صدره ويحلق فى السماء .

١٥ ألف جنيه للكابتل .. لقد حرم نفسه من أشياء كثيرة لكى يدخر ١٥٠٠ جنيـه تكون عـونا لـه فى مواجهـة الزمن .. ولكن .. مـا مصير الشقة ! هكذا سأل الكابتن مديـر الشركة ، واطمأن عندما أخبره المدير أن الشقـة من أملاك الكـابتل ، إذا أراد أن يحتفظ بها فليفعل وإذا أراد أن يبيعها فهذا حقه .

يا قوة الله ، نادى رمسيس ليس من النوادى، إنه قطعة من الجنة .. وهؤلاء الأعضـاء لا يمكن أن يكونـوا من صنف البنى آدمين .. وأولئك الستات أشبـه بورد قـاعد على الكراسـى ، والسنـدوتشات هنـا حلوة قـوى ، واللحمـة طـريـة وحتـى الكـازوزة طعمهـا مختلف .. وهنـا سيتقاضـى الكابتل ألفين جنيه كل شهـر ، والنادى يتفاوض معه الآن ليسلم لهم شقتــه ليشتروا لـه شقـة أخـــرى فى القـاهـــرة وفى حى المهندسـين ، وهو لا يعرف أين يقع حـى المهندسين هذا ، ولكن لابد أن كل من يسكن هنـاك مهنـدس ، وحتى أصحـاب الـدكـاكين لابـد من المهندسـين .

وفى أول مبـــاراة مع نـادى رمسيس ، رزع الكـــابتل كـــورة من منتصف الملعب ، لم يشـــاهـدهـا حـــارس المرمى إلا وهـى تتلعبط فى الشبكة.. وقبـل نهاية المبـاراة بدقائق أخـذ الكابتـل الكورة وهـات يا ترقيـص ويا تغزيـل حتى حارس المرمى نفســه طرحه أيضـا قبل أن يركـن الكورة فى الزاويـة اليمنى .. ولم يخرج من النـادى ليلتها إلا فى منتصف الليل ، ولم ينم طول الليل عنـدما شـاهد صورتـه على صدر صحيفة (الأيام) ليته كان يجيد القراءة والكتابة ليعرف ماذا يقولون

عنه فى هذه الأوراق .. خلال الأسبوع التالى كـان لدى الكابتل هدايا لا حصر لها .. أحدهم أهـداة ساعة دهب بالشىء الفلانى .. وأحدهم أعطـاه باكـو بألف جنيه .. وبعضـهم قـدم بدلتين واحـدة فيهم بتلمع كأنها مصنوعـة من خيوط الفضة .. الفلوس زى الـرز الآن ، والهدايا بـالكوم وشقـة المهنـدسين أصبحت حقيقيـة ، وحتى البواب ينـادى الكابتل بلقبه الجديد .. ياباشمهندس !

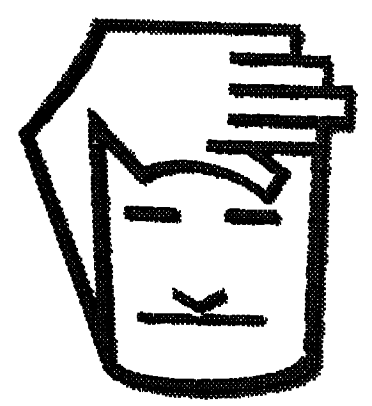
ولكن كله كوم وما حدث للكابتل ذات صباح وهو يجلس مسترخيا على أحد المقـاعد المتنـاثرة فى الحديقـة .. كوم آخر .. أقبلـت عليه بنت شكلهـا زى الغجريـة ، عيـونها واسعة وشعـرهـا سايب على كتفيهـا وفستانها يظهر أكثـر مما يخفى ، وعندما تجلس تـرفع ثوبها إلى أعلى فتظهـر أوراكها ، وصـافحت الكـابتل ثم طبعت على خديـه قبلتين .. يادى الفضايح يا ناس ، ولكنه عندما اختلس النظر فيما حوله لم يجد أحدا ينظر إليه ، الكل مشغول بنفسـه وبمن معه ، وعندما دعته البنت على الغـداء نظر فى سـاعته ، وطلـب منها التمهل حتى يبـدأ المطعم فى العمل ، ولكنهـا جذبتـه من يـده ، لأنهما سيـذهبان للغـداء فى المطعم الصينى .. حلـوة دى .. وهل هنـاك مطعـم صينى ومطعم أمـريكى ؟ وانشرح قلب الكـابتل لأن الأكل الصينى مش بطال ، وحـراق زى أكل بلدنـا . وبعد الغـداء وجد نفسـه فى شقة البنت الغجـرية ، لا .. ليست شقة ، ولكنها تسكـن فى صـالون حلاقـة ، هنا مرايات وسـتـائر ملونة ومـزيكة تخرج من الحيطـان ، ثم جاءت بـزجـاجة وكـاسات وعلبـة سجـاير من كل الأصنـاف ، علب من النـوع الذى يجلبـه البعض من بورسعيـد . ولم يخرج من صـالون البنـت الغجرية إلا فى مسـاء اليوم التـالى .. خرج بعـد أن لفت البنت حـول رقبتـه سلسلة ذهبيـة تحمل اسمـه وخرطـوشتين سجـايـر ، وشىء ملفـوف فى ورق سوليفـان ، أوصته بأن يكون حريصا على تناوله فى إفطاره ، لأنه يقوى الساقين ، ويجعله أقدر على تسجيل الأهداف .

يا سلام يـا ناس .. إذا أقبلت باض الحمام على الـوتد ، وإن أدبرت شخ الحمار على الأسد ! والحمد لله لأنها أقبلت وستبقى فى حالة إقبال على الدوام . المهم أن العـلاقة بينه وبين البنت أصبحت أكثـر تطورا .. أغلب أيـام الأسبوع يقضيهـا عنـدها .. ولكـن بعد ذلك صـار ينضم إليهما آخرون .. ذات سهـرة جاء عدد من أصـدقائهـا ، أحدهـم رئيس المباحث . ولم يصدق الكابتل أن الـذى يجلس معه هو رئيس المباحث ولكنه تأكـد من ذلك عندما زاره فى مكتبـه .. مخبرين إيه وعساكـر إيه ومتهمين إيـه ، أتخن شنب فيهـم يقف مـرتعشـا أمـام البيـه رئيس المباحث ، ويا سلام على الـدنيا لما تضحك للبنى آدم .. رئيس المباحث نفسه خـرج لتوصيل الكـابتل حتى الشـارع ، وأصر على أن يكون فى شرف مـرافقتـه حتى بـاب السيـارة . ولما اكتشف أنـه بـلا سيـارة استـدعى سيارتـه بالسـواق الشـاويش لتوصيلـه .. أعجب شىء أن العساكر فى الشارع كانـوا يضربون تعظيم سلام للكابتل وهو يخترق شوارع القاهرة بالسيارة .. البنت الغجريـة حلوة وطيبة وإيدها فرطة وفتحت له أبوابا كثيرة ، وقادتـه إلى عالم المزاج الأعلى .. الكابتل جرب الحشيش وجـرب الأفيون ولكـن هذا المسحـوق الـذى يشبه السكـر لا يعلى عليه .. شمـة واحدة وكل شىء آخـر مزاج .. فى أول مـرة كان عليه أن يلعب مباراة فى اليوم التالى .. كـان المزاج لا يزال يداعب خلايا مخه.. لم يشعر بشـىء وهو فى الملعب ، ولكنـه عندما استـلم الكورة تحول إلى شيطـان ولم يترك الكورة إلا وهى داخـل الشبكة . النـاس الذين شاهدوا المباراة يؤكـدون أن الكابتل ممسوس ، وأنه فى الحقيقة عفريـت على هيئة إنسـان وذات مساء فى حفلة عنـد البنت الغجـرية ، دست إحـداهن ورقة فى يـده ، وعندمـا ألقى عليها نظـرة اكتشف أنها رقم تليفون . وتردد عـدة أيام ثم أقدم على طلب الرقـم ، وجاءه صوت نـاعـم جميل وصريح أيضـا ، قـالت للكـابتـل ، مثلك لا يصلح للخصخصـة، ولكن مثلك ينبغى أن يكون (قطـاع عـام) لأنك فريـد

عصرك ، أنت لست مثل الآخرين وحرام عليك أن تنقطع لواحدة فقط ، مع أن الدنيا كلها تفتح ذراعيها لاحتضانك . ودعته إلى منزلها وذهب . يا قـدرة الله . بيت البنت الغجرية مجرد صـالة فى بيت الست .. جمال إيـه وغنى إيـه ، كما أن يـدها أكثـر سخـاء من الأخـرى ، أخيرا حقق الكابتن حلمه ، سلمته السيدة الجديدة مفتـاح سيارة جديدة باسمه . أين أنت يا ناظـر الملجأ يا جحش لكى ترى الكابتن فى ثـوبه الجديد ؟ ولكن الدنيا لا تترك راكبـا إلى الأبد ، ولا مركوبا إلى مـا لا نـهاية . جاءه شـاويش ذات مسـاء ومعـه خطـــاب من السجن ، والخطـاب يحمل استغـاثة من نـزيل يعانـى بشدة ، ولم يكن هـذا النزيل إلا شقيقـه ، الوحيـد الذى بقى من أشقائه على قيـد الحياة . وخطف الكـابتن رجله إلى مـدير المبـاحث . ولكنه اكتشف أن المسألـة أكبر من طاقـة مديـر المباحث ، وعندما فاتح الست ، اتصلت تليفونيـا وأرسلته لمقابلة مدير السجون ، واكتشف هناك أن شقيقه خبير تـزوير ، وأنه محكوم عليه بالسجن لمدة ١٨ عاما ، سيقضى منهـا ٦ أعوام فقط خلف الأسوار .. واحتفل مديـر السجون بـالكابتن ، وقضى الـوقت كله معـه يتحدث حـول الأهداف التـى أحرزهـا الكـابتن فى مبـاراته الأخيرة . ومنحـه تصريحا بزيارة شقيقـه ، وتحدث مع مأمور السجن وأوصى بشقيق الكابتن وحـوله إلى لجنة طبية ، ووعـد الكابتن بتدبير طريقـة لشقيقه ليقضى فترة العقوبـة فى المستشفى ، وعندما غـادر مكتب المدير أصر الأخير على أن يصحبـه إلى الخارج ، وطلب منه أن يحضر إلى مكتبـه فى أى وقت إذا دعت الضرورة إلى ذلك :

يالـه من وقت عصيب عنـدما وقع بصره لأول مـرة على شقيقه فى مكتب المأمور .. جلس معه ساعة كاملـة ، وسلمه ما معه من مأكولات وسجـايـر ودس فى يـده مبلغـا من المال ، ومنحـه شمـة واحـدة من المسحوق الـذى يشبه السكر . ووعـده بزيارتـه مرة على الأقل فى كل شهر ، وأعطاه أرقام تليفوناته ليتحدث معه إذا حدث ما يستدعى ذلك، وعندما غادر السجن كان البيه المأمور فى وداعه حتى باب السيارة.

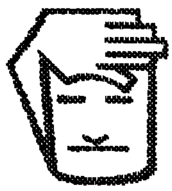




[illegible]

١٦ الشيخ فتحى الحـــرامى

●● قبل دخولى سجن القناطر كنت أتصور أن السجن هـو المكـان الوحيـد الـذى تتحقق فيـه المساواة بين الجميع. فعقوبة السجن معناها النزول بسكان الزنازين الى أحط مستوى اجتماعى يمكن النزول إليه فالطعام هدفه الحفاظ على الحياة فقط والملابس هدفها ستر العورات ، وطابور الشمس ليس للمتعة ولكن حماية للسجناء من الأمراض ، ولكنى بعد دخـول سجن القناطر اكتشفت أن السجن جزء من الحياة ، وما يدور خـارج الأسـوار يحدث مثلـه تمامـا داخلها ، هنـاك المسجون الغنى ، والمسجـون الفقير والمسجـون الضائع والمسجون صاحب النفوذ ، وعرفت منذ اليوم الأول فى السجن أن باستطاعة القادرين استئجار من يقـوم بخـدمتهم ولـذلك استأجـرت سجينـا لغسل الأوانى وعمل الشـاى ونقـل جـردل البـول إلى دورة الميـاه ، واستحضـار ميـاه الشرب من حنفيـة المستشفى وإحضـار أرغفـة الخبـز من الفـرن ●●







● الشيخ فتحى الحرامى ●

وجاءت قرعتى مع خادم يطلق لحيته بشكل مبالغ فيه ، ويمسك بين أصابعه بمسبحة طويلة ، وهو دائم الركوع والسجود فى أوقات الصلاة وفى غيرها ، كما أنه كان حريصا على صوم رمضان والأيام الستة البيض ، أما فى الأيام العادية فكان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع وفى السجن يطلقون على الخادم الأجير كلمة النوبتشى ، وبعد مراقبة دقيقة للشيخ فتحى .. هذا هو اسمه ، اكتشفت أنه صادق فيما يبدو عليه من تدين وتمسك بأصول الدين .. وخيل إلى أن جريمته ربما كانت القتل من أجل الثأر أو من أجل الشرف ، ولكن أدهشنى أنه جاء إلى السجن فى جريمة سرقة وأنه مسجل خطر سرقات ، كان الشيخ فتحى يحكى بصراحة متناهية قصة حياته السابقة ، كان مجرد حرامى وسخ يسرق الغسيل من فوق السطوح ، ويسرق الفراخ السارحة فى الحارة ، ويسرق الأقراط الذهبية من أذن البنات ، وسجن عدة مرات سجينا بسيطا وعلى مدد تتراوح بين ثلاثة أشهر وسنة ، وأخيرا صدر ضده حكم سبع سنوات نظرا لتكرار جرائمه وتطور سرقاته التى بدأت بالفراخ وانتهت بسرقة خزينة مكتب البريد !

عند دخول فتحى السجن فى المرة الأخيرة فكر بشكل جاد فى الانتحار ، فسبع سنوات كفيلة بقصم ظهر جمل ، وفتحى له تجارب سابقة مع السجن ، ويعرف تماما قسوة السجن خصوصا إذا كان

السجين من الفقراء .. ولكن حظ فتحى الحسن أنـه وجد فى السجن ما جعله يعـدل عن فكرة الانتحار . فـاتحه أحدهم فى خدمـة رجل عجوز يحتاج إلى مساعـدة فى الذهاب إلى دورة المياه ، ويعد لـه كوب الشاى ، ويرافقه فى طـابور الشمس لأنه يعانى من روماتيـزم حاد فى مفاصل ساقيه. كان العرض مغريـا لفتحى لأن الأجر الذى عرضوه عشر علب سجـاير فى الشهـر وهى بالنسبـة لفتحى ثروة كبيرة خصـوصا أنـه ضمن الطعـام والشاى مع مخدومـه العجـوز. وتعجب فتحى عندمـا دخل زنزانـة الرجل الذى سيتـولى خدمته خلال الفترة المقبلـة. كانت تـدل على مدى الـرفاهيـة التى كـان يعيشها الـرجل خارج الأسـوار. وتصـور فتحى أنه تـاجر حشيـش من المعدودين، وتمنى فتحى لـو وجد لنفسه مكانا إلى جانب الحاج رفاعى بعد خروجه من السجن. إنه لا شك فى حاجة إلى رجل ميت القلـب مثل فتحى، يخوض بحر الأخطار دون أن يرمش له جفن. وليس هناك نسبـة بين الأخطار التى يواجهها الحرامى الغلبان، وتلك التى يواجههـا مهربو الحشيش. لأن الحرامى الغلبان يمارس عملـه بين جماهير أكثر منه غلبا، ونهار أبـوه أزرق لو انكشف أمره فى حـارة أغلب سكانها صياع وأرزقية على بـاب الكريم، وليلـه أسـود من الخروب إذا عكمـوه فى أتـوبيس أو فى قطـار. وبعـد أسابيع من العمل عنـد الحاج رفاعى أدرك فتحى أنه عثر على ضـالته أخيرا، فالطعـام أكثر من فاخر، ويجلبـه الحاج رفاعى من الخارج كل يوم، والشاى متوفر والسكر يكفى لعـدة شهور، وخراطيش السجاير من الأرض إلى السقـف ومع ذلك لا يقـربها الحاج رفـاعى، لأنها للشاويشيـة والعساكر والحلاق والغسـال والفران، وأيضـا لشراء ما يعرضـه المساجين من سلع داخل السجن ويحتاج إليـه الحاج رفاعى ولكن الـذى أدهش فتحى أنـه عـرف أن الحاج رفـاعى ليس من تجار الصنف. وقيل له إن تهمته سياسية، وإنه دخل السجن فى عام ١٩٦٥

لأسباب سياسية، فالرجل يعمل بالسياسة وهدفه خدمة الوطن والناس، ولكنه اختلف مع الحكومة فدخل السجن، وعانى الحاج رفاعى فى سجنه كما لم يحدث لأحد من قبل. ولكن شاءت إرادة الله أن يرفع عنه معاناته، فمات الحاكم وجاء حاكم جديد، فخفت عن الحاج رفاعى القيود، وأمر بمعاملة الحاج وزملائه بالحسنى وتلبية رغباتهم، فخرج أكثرهم إلى المستشفيات، وأفرج عن الذين أمضوا نصف المدة، وعاش الذين بقوا فى سجن القناطر عيشة السلاطين. لحظة دخول العبدلله السجن كان الحاج رفاعى قد غادره إلى منزله. وبقى فتحى لقضاء مدة العقوبة، ولكنه كان قد تغير على نحو لم يكن يتوقعه أحد ولا فتحى نفسه. فقد كان فتحى تحت تأثير الحاج رفاعى يواظب على الصلاة، ويحضر صلاة الجمعة ويحضر أيضا دروس الوعظ التى كان يشارك فيها الحاج رفاعى نفسه. وشيئا فشيئا اندمج فتحى مع الجماعة وأطلق لحيته وواظب على الصلاة والصيام، وأمعن فى الطريق لدرجة أنه كان يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ويصوم رجب كله، ولم تنقطع صلة فتحى بالحاج رفاعى، إذ استمر الحاج رفاعى فى إمداد فتحى بين الحين والآخر ببعض النقود، وكان يرسل له فى بعض الزيارات من يحمل له الأطعمة والسجاير وكميات السكر والشاى وبعض الحلوى وما يحتاجه الحاج فتحى من ملابس فى بداية فصل الصيف وفصل الشتاء. وبالرغم من عدم احتياج الحاج فتحى إلا أنه قبل العمل كنوبتشى مع العبدلله عندما عرف أن تهمتى سياسية كالحاج رفاعى. صحيح أن فتحى فشل فى الحصول على جواب حاسم من الحاج رفاعى عندما سأله عن السبب فى سجنه، مع أنه رجل طيب ويعرف الله ويمشى على طريقه. كل ما قاله الحاج رفاعى لفتحى : إنهم سجنوه لأنه يعبد الله ويؤدى واجبه كمسلم ويتطلع إلى عالم تسوده الطمأنينة والأمان.

ولم يعلق فتحي على جواب الحاج رفاعي، فهو يعلم بتجربته أن الحكومة ظالمة، وأنها أحيانا تسجن الأبرياء. وهو نفسه تعامل مع كل الحكومات التي تولت السلطة في قسم روض الفرج ضابط مباحث يذهب وضابط مباحث يأتي. ولكن سلوك الجميع واحد، والظلم هو شعار الجميع .

— تصدق حضرتك. وأنا في السجن هنا جاتلي الحكومة لحد هنا، عارف البيه ضابط المباحث عاوز إيه؟ عاوزني أعترف بعشرين سرقة حصلت في القسم بتاعه عشان ما يتحاسبش على التقصير .

وأنت مالكش دعوة بالسرقات دي ؟

— ولا أعرف عنها أي حاجة .

وعملت إيه ؟

— اعترفت له، عشان يستفيد هوه، وأنا كمان مش هيحصلي حاجة لأن أي حكم آخده على سرقة تاريخها قبل سجني يخش في السبع سنين، هوه القانون كده من غير مؤاخذة .

لكن ليه تعترف بجريمة أنت ما عملتهاش ؟

— طيب وأعمل إيه؟ إذا كانت الحكومة بذات نفسها جت لحد السجن. والضابط قعد معايا في أودة الوكيل.. زميله وصاحبه أنا قلت لنفسي البيه الحكومة في قسم روض الفرج يحفظ جميلي، ويمكن يعاملني كويس بعد كده، والبيه الوكيل كمان يرضى عني عشان جاملت صاحبه. وصمت فتحي قليلا ثم قال :

— تعرف يا أستاذ.. فيه ناس هنا رفضت تعترف، اللي حصل لهم في السجن ربنا ما يوريه لحد. ضرب وجلد ونوم على البلاط في زنزانة التأديب سكت فتحي لحظة وسألني فجأة :

— لكن أنت جابوك السجن ليه؟ مع أنك ما بتصليش بانتظام وما بتصومش الاثنين والخميس ؟

قلت لفتحي بصراحة :

الحقيقة يا فتحي احنا جينا نستولى على الحكومة، لكن أعداءنا سبقونا وإستولوا عليها وسجنونا وسألني فتحي مندهشا .

— وانتو بقى الحكومة بتاعتكم فى قسم إيه، قصر النيل واللا فى الجيزة. اكتشفت فى تلك اللحظة أن الحكومة التى يقصدها فتحي هى : ضابط المباحث. فتحي لا يعنيه وزير المالية أو وزير الصناعة. كما أنه لا يعرف وزير الداخلية. وقد تذهب حكومة قاسية وتأتى حكومة معتدلة، ولكن فتحي لا يشعر بأى فرق فضباط المباحث لهم سياسة واحدة لا يؤثر فيها الزمان وهذه الحكومة التى يتعامل معها فتحي لا أمل فى إصلاحها. وليس هناك أمل فى عقد هدنة معها.. وحاول فتحي أن يعرف منى معنى محاولتنا الاستيلاء على الحكومة. هل نقتحم قسم البوليس ونحتل مكتب ضابط المباحث وندير العمل عوضا عنه. وحاولت أن أشرح له الأمر ولكننى فشلت، فلم يكن فتحي على استعداد ليصدقنى أو يصدق غيرى بأن ضابط المباحث ليس هو الحكومة، وأن الفرق كبير بين الاثنين .

— طيب تصدق بالله يا أستاذ، أتخن تخين فى روض الفرج لما يشوف ظابط المباحث يقف على رجليه يعظم. حتى المعلم عوضين المرعب اللى بيهز الدنيا كلها بيبقى زى القطة قدام البيه ظابط المباحث.

وصمت بعض الوقت ونظر نحوى نظرة طويلة ثم قال :

— طيب وحضرتك مين اللى جابك لحد السجن هنا؟ مش البيه ظابط المباحث. أنا شفتك وأنت داخل والحكومة معاك وسلموك ع السركى وروحوا همه. مش كده بذمتك .

وهززت رأسى بالموافقة، وبدا على فتحي الرضا لأنه استطاع فى النهاية اقناعى بوجهة نظره التى هى الحقيقة الوحيدة وما عداها أكاذيب خدمنى فتحي سبعة عشر شهرا وفى غاية الانضباط. وكان

يـؤدى واجبـه دون حاجـة إلى تعليمات من جـانبى. يعـد الشـاى فى الأوقات التى يشعر فيهـا أننى محتاج للشاى. ويبحث عنى فى كل ركن يحتمل وجـودى فيـه. فى المستشفى فى الحوش فى المدرسـة فى الملعب، وغـالبا يبحث عنى عنـدما ينتهـى من إعداد وجبـة الغداء. وفى شـهـر رمضان كان مسمـوحا بفتح الزنازين إلى ما بعد وجبـة الافطار. وكان فتحى الصائم يعد لنا وجبـة الافطار، ويحرص على تدبير المواد الأولية اللازمـة لطبق السلطة. ولا يعوقـه شىء عن تدبير ما نحتـاج إليه من خضراوات، كـان يجلبه غـالبـا من مزرعـة السجن، وكـانت علاقتـه بالحرس على مايرام، بـاعتباره من المسلمين الطيبين الذين يرضـى عن أمثالهم رب العبـاد. وكان الحراس يصطفـون خلفه فى صـلاة الظهر والعصر، وكان الشيـخ فتحى يؤذن للصـلاة بطريقـة تشبه الأذان فى ريف مصر، وكان الحراس يستمتعون بصـوته المتحشرج الذى هو فى نظرهم علامة التقوى والإيمان.

وعندمـا حانت لحظة الإفـراج عن العبدلله، تـركت لفتحى ما تبقى عنـدى من سجـايـر وشاى وسكـر وبعض الملابس وبطـانيـة ملكى فاخرة وحذاء وبعض الملابس الداخليـة والجوارب، كانت كلها جديدة لم استعملها فى أى وقت. وشكرنى فتحى وهو يـودعنى طالبا لى حياة جديـدة آمنة وعـلاقة حسنـة مع البيه ظـابط المباحـث فلا أعـود مرة أخرى إلى هنا.

أما ربنـا يفك سجنك أبقى فوت علىّ وربنـا يكرمك بشغلـة شريفة ويتوب عليك من السرقة والسجون.

وقال فتحى

— سرقـة تانى مش هيحصل ، أنـا ربنـا تاب علىّ من السكـة دى وهـاعمل اللى يـرضيه. والحاج رفـاعى كـان وعدنـى بشغلة شريفـة، وهافوت عليه الأول، إذا ربنـا وفقنى هابقى أجيلك عشان أسلم عليك.

وإذا ماحصلش هاجيلك عشان تدور لى على شغلانة إن شا الله فى مسجد أهلى أو فى دكانة أو مكتبة أو أى حاجة شريفة تبعدنى عن الطريق اللى كنت ماشى فيه .

ومر عام كامل قبل أن أرى وجه فتحى مرة أخرى، جاءنى فى ثياب بيضاء نظيفة، وإن كان جلبابه أقصر من المألوف. ويلف رأسه بشال أبيض، كان يحلق شاربه ويرسل ذقنه بطريقة مهذبة تلفت إليه الأنظار .

وبادرنى فتحى قائلا :

— الحمد لله اللى جمعنا على خير، أنا جى أسلم عليك بس، الحاج رفاعى ربنا يخليه شاف لى شغلة حلوة قوى، وادانى اجازة لمدة شهرين أشوف فيها حالى وأدبر أمورى، وادانى قرشين أأجر مطرح بعيد عن روض الفرج، وبالفعل لقيت سكن كويس مع ناس كويسين نواحى البدرشين. وبينى وبينك أنا طول النهار فى الجامع بأصلى وأحفظ كتاب الله. ثم تنهد ونفخ نفخة شديدة وقال :

ياسلام.. دا الاستقامة دى حلوة قوى، دا الواحد كان مخبوط فى عقله وكان عايش زى الحيوان .

عندما استأذن فتحى فى الانصراف، حاولت أن أدس فى يده ببعض الأوراق المالية، ولكنه رفض بشدة. فلما أصررت قبلها .

بس عشان حضرتك ما تزعلش منى، أنا مش محتاج والحمد لله، والحاج رفاعى ما بيقصرش .

اختفى فتحى طويلا، ثم عاد لزيارتى قبل أيام من مغادرتى مصر إلى منفاى الاختيارى فى عام ١٩٧٤. ولم يكن وحده، ولكن كان بصحبته شخص آخر يرتدى نفس ملابسه ويطلق ذقنه بنفس طريقة فتحى. وتصورت أنه جاء بصديقه بحثا له عن وظيفة. ولكنه قدمه لى باعتباره شريك الزنزانة التى كان يقيم فيها بسجن القناطر .

بس أنت حضرتك مـا شفتوش، أصلهم أفرجـوا عنه بعـد وصولك السجن بأسبوع وراخـر كان نوبتشى عنـد الحاج زيدان، راجل طيب زى الحاج رفاعى بـالظبط وهمه الاثنين كانوا أصحـاب واتمسكوا مع بعض واتسجنوا مع بعض. راخر كان آخر إيمان وصلاح، وتقوى .

وأشار إلى أن زميلـه انصلح حاله على يد الحاج زيـدان، الناس دى ربنا خـالقهم عشان صـلاح الدين والـدنيا. حـاولت تقديم مســاعدة للشيخ فتحى أو زميله ولكنه رفض. وقال فى سعادة واضحة :

كفـايـة نعرف حضرتك ونشـوفك، دا نـاس كثير تعـرف حضرتك بيقولوا بس لو ربنا يشرح صدره للإسلام .

نظرت لفتحى نظرة غاضبة وقلت له :

وأنا مش مسلم يا فتحى ؟

ورد على الفور :

لا.. أنا أشهد أنك مسلـم كويس وتعرف ربنا، لكن همه بيقـولوا لو قلمه يخدم الإسلام .

يعنى ايه قلمه يخدم الإسلام يا فتحى .

صمت عدة لحظات ثم قال :

والله أنا سمعتهم بيقولوا كده .

همه مين يا فتحى اللى بيقولوا كده .

الاخـوة اللى معانـا، أصل أنت ما تعـرفش إيه اللى حصل ـــ الحاج رفاعى والحاج زيدان ونـاس ثانية جمعوا نـاس كثير زى حالاتى كده من اللى كانـوا ماشيين فى سكة الشيطان. تعرف يـا أستاذ لقيت بيجى عشرة من اللى كانـوا فى سجن القناطر إيشى حراميـة وإيشى نشالين وإيشى بلطجية ، وجمعونا كلنـا فى البلد دى ، أى والله وعاملين مزرعة حلوة قوى ، أرض صلحوها فى الجبل اللى عنـد سقارة وبنزرع دلوقت أحسن زراعـة ، وكل واحد بيشتغل شغلتـه وبقية الـوقت فى الجامع ،

دروس دين ورياضة وحاجة حلوة قوي .

مش قادر أقولك احنا مبسوطين قد إيه ؟ وكفاية رضا ربنا علينا .

وبيني وبينك يا أستاذ الحكومة الموجودة اليومين دول كويسة ، مش زى الحكومة دوكها ، البيه ظابط المباحث ندهلنا عنده فى البدرشين ، وسقانا قهوة فى مكتبه ، أى والله ، أول مرة نشرب قهوة مع الحكومة وقال لنا أنا عارف انتومين وكنتم إيه قبل كده . لكن دلوقت أنا مبسوط منكم قوى ، السكة اللى انتو ماشيين فيها دلوقت هى السكة الصح .

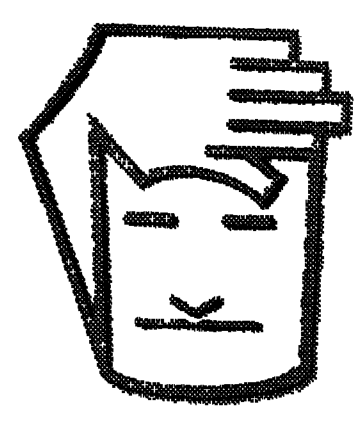
وربنا يوفقكم ويارىت تهدوا كل الناس اللى زيكو .

كان هذا اللقاء هو آخر عهدى بفتحى .. غادرت مصر فى رحلة . امتدت مائة شهر كاملة ، ثم عدت فى عام ١٩٨٢ ومرت أربعة عشر عاما طويلة دون أن يقع بصرى علّى فتحى ، ولم يحاول فتحى الاتصال بى ، وتصورت أنه إما غادر القاهرة وإما انتقل إلى رحاب الله.

ومنذ أسابيع قليلة وقع بصرى عليه ، صورته منشورة فى جميع الجرائد اليومية . فتحى بلحمه وشحمه ، مطلوب القبض عليه فى حادث سطو على محل مجوهرات فى الصعيد ، يا قوة الله ، الشيخ فتحى الحرامى عاد إلى مهنته القديمة ولكن فى ملابس جديدة ، وبعد أن هادنته الحكومة وشرب قهوة مع البيه ظابط المباحث ، ودعا له بالتوفيق فى هداية أمثاله من الحرامية والنشالين !

كم كنا فى منتهى السذاجة جميعا ، الحكومة والناس والعبد لله أيضا كان على رأس طابور المغفلين !

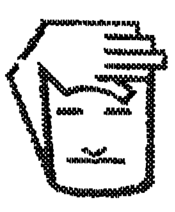




تتمة يا فنجان

١٧ من طقطق لسلامو عليكم

●● على مدى سنوات طويلة كان المعلم طقطق من الوجوه التي كانت في خيرة شرد ، يبيع الصنف في علبة صغيرة نص قرش وربع قرش ، وكانت الجنيهات القليلة التي يكسبها تكفيه وتكفي ابنته الصغيرة التي تركتها له أمها ورحلت في رحلة له وكان سعيدا بالعيشة التي يعيشها والتي أكملها في الصحراء على مشارف أرض النعاه . والتي كانت مكونة من حجرة متوسطة وحجرة صغيرة ومساحة ضيقة تكفي لتناول الطعام والفرجة على التلفزيون . ولم يحدث في حياة المعلم طقطق أنه اضطر إلى عرض بضاعته على أحد من الزبائن . ولكن الزبون هو الذي كان يسعى إليه وكانت بضاعته من صنفين . حشيش وأفيون . وكان لكل صنف اسم كودي ، الأفيون هو الزيتون .. والحشيش هو جبنة الرومي وكان الزبون الذي يحتاج الصنف الذي يريده . يدس النقود في يد المعلم طقطق وعلى الفور فإنه يحصل على ما يريد . وتوالت الأمور على هذا النحو ألف عام إذا حدث مكروه للمعلم طقطق ولكن معلوم أن الشيطان الذي كان السبب ثم حدث إذ صاح جاءه زبون ووقف بسيارته الملاكي على مقربة من الدكان ونقده من المعلم وألقى التحية وصاح ثم وقف صامتا . وبعد فترة صمت قصيرة اضطر المعلم إلى سؤال الرجل .. زيتون ولا جبنة ؟! وقال الرجل بهدوء .. لا ده ولا ده . وقال المعلم للرجل أمال سعادتك ؟ ولم يرد الرجل ولكنه رفع حقيبة كانت في يده ووضعها أمام المعلم وفحص المعلم الشنطة ثم أخرج ثم قال للأفندي لو شف الممنوع من غير مؤاخذة . وقال الأفندي في لهجة واثقة افتح الشنطة وأنت تعرف . فقال المعلم للأفندي ●●







ـ طيب مش الأول نتعرف على حضرتك .

ورد الأفندى على الفور .

ـ مش مهم تعرف أنا مين، المهم نشتغل سوا .

ثم قال بلهجة آمرة :

ـ افتح الشنطة واتفرج .

فتح المعلم (طقطق) الشنطة ويا لهول ما رأى. عشرات من طرب الحشيش ملفوفة بأناقة ومرصوصة بعناية ورائحتها النفاذة تتصاعد فى الجو. والمفاجأة عقدت لسان المعلم ولم يستطع أن يصلب طوله فجلس على المقعد الوحيد المتهالك المركون داخل الدكان. ماهذا الذى يراه؟ هل هى ورطة؟ هل هو كمين؟ ولزم الصمت فترة راح يلتقط فيها أنفاسه بصعوبة، ثم نطق عدة كلمات بصوت خافت للأفندى :

ـ طيب مش من غير مؤاخذة نعرف الحكاية إيه ؟

وقال الأفندى :

ـ ولا حكاية ولا رواية، بضاعة أنا جايبها لك، انت حتصرفها وتاخد حسنتك، وكل ما تخلص من شنطة هاجيبلك شنطة ثانية .

ـ لكن دى فلوس كتير قوى، وأنا من غير مؤاخذة بالعب فى أبونكلة.

ـ مفيس حاجة بتفضل على حالها، والصغير بيكبر يا معلم .

ـ لكن اشمعنى أنا ؟

ـ أنا درستك وعرفت عنك كل حاجة، وانت راجل طيب ومالكش دوسيه فى الحكومة .

- طيب وانت عرفت ازاى ؟

- أنا باعرف حاجات كثير قوى، وبعدين مالهاش لزوم الأسئلة الكتيرة دى. خلى علاقتنا فى حدود الشغل .

- طيب مش ممكن أعرف اسم سيادتك وبتشتغل إيه ؟

- ولازمته إيه، هوه أنا هاخد منك حاجة، أنا هاديك.. وبعدين عن إذنك أنا مستعجل .

نادى المعلم (طقطق) على الأفندى وتوسل إليه أن يتمهل قليلا، وعندما عاد الأفندى إلى مكانه الأول، قال له المعلم :

- طيب انت مش خايف أحسن أكلك أو انصب عليك ؟

وقال الأفندى بلا مبالاة وهو يستعد للانصراف :

- أنا ما حدش يقدر ياكلنى أو ينصب على، توكل على الله يا معلم، إن شاء الله هتشوفنى قريب لما تصرف البضاعة .

عندما اختفت السيارة بعيدا سارع المعلم (طقطق) بإغلاق الدكان، وأخذ الشنطة معه إلى داخل البيت، وانتابته رعشة شديدة عندما عاود فتح الشنطة، إنه لم يحلم فى حياته بأن يذهب فى تجارة الصنف إلى هذا الحد. بهذه الشنطة التى بين يديه قفز المعلم (طقطق) إلى مصاف كبار المعلمين، سار مثل المعلم قرقر والمعلم كتكت والمعلم طلبة، وهو وضع لايحتمله المعلم (طقطق) لأنه يعلم أن الحياة أخذ وعطاء، وعلى قدر ما تأخذ على قدر ما تعطى. والبحر الذى كان يعوم فيه ديته بسيطة، ستة أشهر سجن وأقصاها سنتان. أما هذا البحر الجديد الذى وجد نفسه فيه فديته تبدأ من المؤبد وتنتهى بالإعدام. والمعلم (طقطق) لايخاف المصير المنتظر، ولم يكن لديه مانع من الحياة خمس سنوات فقط فى العز والنعيم ثم يحدث بعد ذلك أى شىء. ولكن الشىء الوحيد الذى يقلقه هو ابنته، لقد أصبحت البنت على وش جواز، وماذا يكون مصيرها لو ذهب إلى السجن المؤبد، وتعلق فى حبال المشنقة. لا حول

ولاقوة إلا بالله، مصير أسود نهاية سيئة للعائلة الصغيرة التى حاول دائما حمايتها من شر الزمان. وفكر فى أن يرفض عرض الأفندى الغامض ويرد له الشنطة، ويتشبث بموقعه كتاجر قطاعى، لا يلفت نظر رجال المكافحة ولا تطارده أسراب المخبرين. ولكن.. من الذى يرفض ثروة هبطت عليه من السماء؟ ومن يستطيع مقاومة إغراء الصعود على سطح الدنيا بدلا من البقاء فى السرداب؟ وهل ترفض حلاوتهم ابنته أن تقب على وش الدنيا؟ هل ترفض أن يكون لها حشم وخدم وأن تعيش حياة البنى آدمين؟ لم يغمض له جفن طوال الليل، وكان بين الحين والآخر يقوم من مضجعه ليلقى نظرة على البنت حلاوتهم. وكان يسعده أنها فى عالم آخر لاتشعر بقلقه ولاتحس بالنار التى تأكل قلبه المذعور.

كان على المعلم (طقطق) أن يخرج من عزلته التى فرضها على نفسه على حافة الصحراء فى أرض النعام. أصبح لزاما عليه أن ينزل السوق لتصريف الصنف على من يستطيع دفع ثمنه. وبالفعل ذهب المعلم (طقطق) إلى الباطنية حى المخدرات، وفاتح المعلم درويش الذى يتعامل معه فى القطاعى. وهو معلم متوسط ولكنه يعرف أحوال السوق، وله علاقات بعدد من الحيتان الكبار. وحاول أن يعرف من المعلم درويش معلومات تفيده دون أن يكشف له عن سره، ولكنه لم ينجح فى الوصول معه إلى شىء.

ويبدو أن المعلم درويش حذر أكثر من اللازم، أو أنه لايعرف أى شىء. وأخيرا استقر رأى عم (طقطق) على أن يذهب إلى الباشا دون سابق معرفة وأن يعرض عليه الصنف وليكن بعد ذلك ما يكون. كان الباشا يتخذ من أحد كازينوهات شارع الهرم مكانا مختارا، يسهر فيه مع أصدقائه، ويعقد فيه الصفقات مع عملائه. وانبهر المعلم (طقطق) بمنظر الباشا، يا سلام باشا بحق وحقيق. أسطول سيارات

فى انتظـــــــاره، وطقم كامل من الالاضيش حوله. بعضـهم للحراسة وبعضـهم لوضـع كل ما يـدور فى عقل الباشا موضـع التنفيـذ. يا سلام يا ناس، هكذا تكون العيشة واللا بلاش. المائدة حافلة بكل الأصناف، والجميلات حوله كالفراشات. والباشا نفسه يهمس ولا يشخط يشير ولا يفصح، ويومىء ولا يأمر. ولاتعرف يســاره مادفعته يمينه لأنه لا يحاسب ولا يدفع، ولكن الذيـن حوله يقومون بـالعمل كله والحساب يجمع يـوم الحسـاب. وبـالـرغم من الهيل والهيلمان استطـاع المعلم (طقطق) أن يفـاتحه فى الأمر، كـان الباشــا يستمع بأذنه بينما عينـاه سارحتان فى تعاريج جسم الـراقصة التى تتلوى على المسرح. وعندما انتهى المعلم (طقطق) من عرضه، أشـار الباشا إلى أحد الحاضرين، ثم أشار للمعلم (طقطق) بـالذهاب معه. وركب الاثنــان معا انطلقت بهما السيارة إلى أرض النعام. ولعب الفار فى عب المعلم (طقطق) فلم يحدث بينه وبين البـاشا أى اتفاق، فقط إشــارة من إصبعه وغمـزة من عينه وسلام عليكم وعليكم السلام. ولكن.. هل يمكن لـرجل مثل الباشا أن ينصب عليه؟ هل يطمع رجل مثل الباشــا فى بضاعة (طقطق) الغلبان؟ ومن الـذى يستطيع الإجـابـة على هذا السـؤال؟ ومــا الـذى يستطيع (طقطق) أن يفعلــه بعد أن وقعت الفـاس فى الراس. نزل مــن السيارة الفاخـرة التى أقلته إلى أرض النعام، ودخل بيته وألقى نظـرة اطمئنان على حلاوتهم، وارتــاح قلبه عندمـا اكتشـف أنها تغط فى نوم عميق. ثم تناول الشنطة وسلمهـا للبيه وكيل الباشا، الـذى تناولها بعدم اهتمام ومضـى إلى حال سبيله دون أن يتبادل كلمة واحدة مع المعلم (طقطق) يـالها من مصيبة كبرى إذا انتهت المسألـة عند هـذا الحد؟ وما الـذى سوف يحدث له إذا عمل الباشا طناش وأكل الشنطة بما فيها من رزق وفير؟ ومــر أسبوع كأنــه الـدهر كلــه، وذات مسـاء والكلاب تعـوى

بجنون حــول البيت توقفت سيارة ونــزل أحدهم منها وطـرق الباب، وعندمــا فتح المعلم (طقطق) اكتشف أنه أمام البيه نفســه الذى استلم منــه الشنطة منـذ أيام. ولم يفتح الـرجل فمه بحـرف، مد يـده وسلم المعلم (طقطق) نفس الشنطة التى كانت تحتوى على الصنف. ياداهية دقى... هل لم يعجبهم الصنف؟ هل باظت الصفقـة؟ فتح الشنطة على عجل ليكتشف أن الصنف اختفى وحلـت محلـه رزم أوراق مـاليـة... ياقوة الله. أغلق الشنطة وركنها خلف الباب وجرى خلف البيه قبل أن ينطلق بالسيارة، وسأله وهو يرتعش :

ـ ماقدرش أشوف الباشا ؟

ونظر إليه البيه نظرات متفحصة وقال :

ـ حاضر، نقوله، ولما يحدد لك ميعاد هنيجى ناخدك .

ثم انطلقت العربة كالسهم، بينما تصــاعدت أصوات الكلاب داخل الصحـــراء. وطول الليل لم يغمض للمعلم جفن، انهمك فى عـد الأوراق المالية، ياقوة الله... مائة ألف جنيه بالتمام والكمال. ولكن هل هذا هو ثمنهــا الحقيقى؟ وهل يخفى جـزءا لنفسه أم يقـدمهـا كلـه للأفنـدى المجهـول؟ المهم أنــه فى الصباح تــرك النقـود كما هى فى الشنطـة ولم يدخل فى النــوم إلا والشمس تتسلق العلالى. وعندما جـاءت حلاوتهم لإيقاظـه كانت الساعــة تشير إلى الغروب. وقد تصـورت حلاوتهم أن والدهــا مريض، ولكنه نفى لها ذلك، وتعلل بأنــه مصاب ببرد خفيف، وأنه سيعــاود نشاطه فى اليــوم التالى. ولكن... هل يعاود فتح الـدكان مرة أخرى، ويصبر على «رزالات» الزبـائن، وسخافات اللى يسوا واللى مــا يســواش؟ طيب... ولــو قفل الدكــان.. هل يثير ذلك انتبـاه أحــد؟ المسألة فى حــاجة إلى تفكير، وأفضل شىء أن يهجر أرض النعــام كلها وينتقل إلى الحيــاة فى أحيــاء البنى آدمين. هذا أفضل مــن البقاء هنــا،

ولكنه لايستطيع الانتقال قبل إخطار الأفندى المجهول .

فى اليوم التالى مباشرة حضر الأفنـدى المجهول، وما أن وقع بصره على المعلم (طقطق) حتى سـأله :

ـ هيه .. كل شـىء تمام ؟

ومد المعلم يده بالشنطة ووضعهـا أمام الأفندى، الذى قام بفتحها ثم ألقى نظرة على مافى داخلها، نظرة خـاطفة مع ذلك تمكن من معرفة المبلغ الذى يرقد داخلها، ولم يعلق إلا بعبارات بسيطة :

ـــ ميت ألف بس، دا بقى حرامى البـاشـا ده، هـوه ضـحك عليك فى مبلغ زى ده، ولازم تقولله كده عشـان يعرف إنك فاهـم .

ثم مـد يده فـانتزع عشرة آلاف جنيـه ووضعها أمـام (طقطق) ثم أخذ الشنطة وسلمه شنطـة غيرها، شنطة لـها نفس المواصفات ونفس المقاس وبها نفس الصنـف. والله ابتسمت لك الحياة يـا عم (طقطق) وحظ بمب يـا حلاوتهم وربك عـالم بـالغلابـة، ولكن مـاذا لو تأخـر مندوب البـاشا فى الحضـور ؟ ولم يطل انتظاره فبعـد أقل من أسبوع حضر لـه مندوب البـاشا وحملـه حيث يوجـد ضمن شلة من النـاس الكبار، وفى هذه المرة كانت الجلسة فى عوامة على صفحة النيل. وسأله الباشا فى استنكار :

ـ هيه ، معاك تانى واللا شطبت ؟

ـ خير ربنا كتير يا باشا، بس السعر دا ما ينفعش .

ـ خلاص ، هنزودك خمسين ألف، بس يكون هوه نفس الصنف .

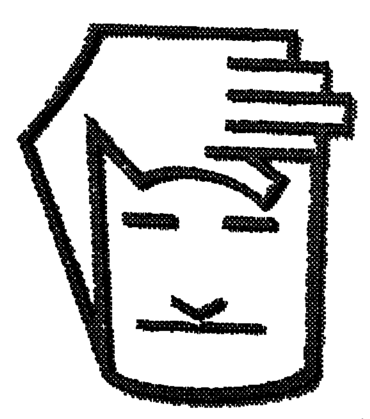
غادر المعلم (طقطق) العوامة د "البيه وكيل الباشا وسلمه الشنطة وبعد يومين عاد مندوب الباشـا ومعه الشنطة بالفلوس. وهكذا مضت الحياة بالمعلم (طقطق) والأفنـدى والباشا ومندوبـه، وفى عدة أسابيع كان المعلم قد جمع حوالى خمسين ألف جنيه، كان لا يتصور أن يراها

فى الأحلام. وذاع أمر المعلم (طقطق) فى السوق، واتصل به آخرون من كبار تجار السوق، وصار يسهر كثيرا فى مصر، يعود إلى أرض النعام فى الفجر، وفى كل يوم يسأل الله الستر، فهو بطبعه يحب العزلة، والاختفاء أفضل من الظهور، ولكن ما باليد حيلة، وكان عليه أن يجارى المرحلة الجديدة، فانتقل من أرض النعام إلى مدينة نصر، وفى مسكن واسع وحجراته كثيرة، وأصبح لديه ثلاجة وبوتاجاز وغسالة وخادمة ترعى شئونه وتلبى حاجات البيت. وأصبحت حلاوتهم بعد انتظام مواعيد الأكل والمعيشة فى مسكن صحى كالقمر المنير، ولابد سيأتى لها عدلها فى يوم من الأيام، وتغيرت أحوال المعلم (طقطق) كما عرف السهر فى الخارج، عرف السهر فى البيت، وصار يدعو المعلمين إلى منزله، وأصبحت حلاوتهم هى المشرفة على السهرات. وكان قلب المعلم يوجعه كلما ضبط عيون الضيوف تكاد تلتهم القوام الملفوف والوجه المضىء كالقمر ليلة التمام. وتمنى على الله أن يرزقها بابن الحلال بعيدا عن سوق المعلمين كم يسأل الله أن يرزقها بأفندى مستوظف يعيش بالحلال وفى الحلال، فهذه المهنة التى يعمل بها المعلم لا أمان لها ولا ضمان. وياما فى السجون معلمين كانت كلماتهم أوامر ورغباتهم قوانين، ثم خسروا كل شىء، وماجرى لأسرهم يحتاج إلى موال من مواويل محمد أبو دراع!

ياسلام يا معلم (طقطق) سترى الدنيا على حقيقتها الآن. دعاه المعلم عواد على رحلة فوق ظهر مركب تطوف بموانىء البحر الأبيض، سترسو فى تونس وفى طنجة وفى لشبونة وفى مرسيليا وفى بيريه باليونان وعلى الشاطىء التركى والشاطىء السورى ثم تعود إلى الاسكندرية فى أمان الله. ويا ميت فل على البحر المتوسط وعلى خواجاته. وهو معزوم على حساب المعلم عواد، ومع ذلك فالفلوس

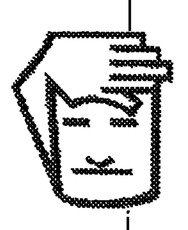
معـه كالـرز، وسيـدلع المعلم نفسه ليثـأر من سنوات الفقـر والغلب. ولكن حلاوتهم!؟ لايزعجه الآن إلا أمر حلاوتهم. ومع ذلك فقد صارت واحدة ست، وهى عاقلة وتستطيع أن تتصرف، وستقوم هى باستلام الشنطـة وسيحضر المنـدوب لاستلام الشنطـة منهـا، ودولاب العمل سيدور كما لو أن المعلم (طقطق) نفسه موجود فى مصر .

وهمس لحلاوتهم بنصـائحـه، وأوصـى الأفندى الغـامض عليهـا، وأوصى المنـدوبين الذين يتسلمـون الشنط، وأوصـى الست الشغالـة التى تـرعـى شئـون البيت، ثم ودع الجميع وركب البحـــر مع المعلم عواد، رحلة اكتشاف لذيذة للعالم الوردى .

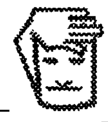


١٨ أبو شنطة !

●● يا سلام على عظيم صنع الله وعميق حكمته .. لم يتصور المعلم طقطق صورة البحر، كما يراها الآن ، كان يتصور أنه أكبر من نهر النيل ربما عشر مرات أو عشرين مرة ، يا قوة الله !! إنه أكبر من مصر كلها ، ربما أكبر من مصر وما جاورها من بلاد .. ومن لطف الله أن البحر لا يطغى على البر، ولو فعل لابتلع الأرض والناس وانتهت الحياة ●●







بالتأكيد سيطغى البحـر يوم القيامة على البر فيهلك الحرث والنسل ، ثم ينفخ فى الصو ويحشر الناس حشرا أمام رب العرش سبحانه !

عند هـذه النقطة انتابت المعلم طقطق رعشة شـديدة وارتفعت درجة حرارته وتصبب العرق من جبينه .

يـا لطيـف بعبـادك يـا الله .. وبسمل المعلم طقطق وحـوقل وتوسـل بالأنبيـاء والأوليـاء أن يغفـر الله له مـا تقـدم من ذنبه وما تأخر .. والحمد لله لأن المعلم طقطق لم يغضب الله قط ، ولم يمارس إلا ما يرضى الله ورسولـه .. بعض الناس يقولون إن الاتجار فى الصنف حـرام ، وهو الأمر غير الصحيح على الإطلاق ، لأن التجـارة حلال ، وسيدنا عثمان كـان يعمل بالتجـارة ، وعبد الـرحمن بن عـوف كان شهبنـدر تجار زمـانـه.. والشيخ سعـد قطب بنفسـه أكـد للمعلم طقطق أن الصنف نفسه ليس من المحرمات ، لأنه لا يخامر العقل ولا يذهب به ، والدليل على ذلك أن الشيخ سعد قطب نفسه يتعاطاه ..

ومن هـو الشيخ سعـد قطب ؟ الرجل الطيـب الذى درس أصـول الدين واشتغل بالوعظ ويلتف حـوله الألوف من أهل الطريق ، والحمد لله لأن صفحة المعلم طقطق ليس بها ما يغضب الله ورسوله .

انتزعت المعلم طقطق من تأملاتـه أصابع المعلم عواد وهى تغوص فى لحم بطنـه .. نـاداه أكثـر من مـرة ولكن المعلم طقطق لم ينتبـه .. وعندما انتبه أشار له المعلم عواد إلى نقطة ناحية البحر .

كانت هناك أعداد هائلة من سبع البحـر تقدم استعراضا رياضيا

فى الماء .. ما أحلى الحياة يا معلم طقطق ، وما أكثر نعم الله على عبيده .. استغرقه المنظر فسرح فى عظمة خلق الله .. هذا القطيع من سباع البحر يبدو أنهم من عـائلة واحدة ، لابـد أن يكون سكان البحـر مثل سكان الأرض شعوبـا وقبائل . ومـا يراه الآن هو استعـراض تقوم بـه قبيلة واحدة قبيلة مثل حاشـد وبكيل وعنزه وشمر .. القبائل هى الأصل فى كل شىء .. هو نفسه المعلم طقطق أصله من جـزيرة العرب ، وهو من قبيلة يـافع التى سكنت الجيـزة فى بدايـة عهد أهل مصر بـالإسلام .. وأهله كانوا دائما فى عز دائم .

ولكن الحياة ليس لها أمـان ، أحيانا فى الطالع وأحيـانا فى النازل .. على كل حال .. أيام البؤس ولت ياعم طقطق ، والحياة ستعود الآن على قبائل يافع بالعز الذى كان !

ويـوم وبعض يوم مضى ورست السفينـة على البر فى مالطـا .: الله يرحم أيام زمان ، اضطر المعلم طقطق أيام الحرب العالمية إلى العمل فى (الأورنس) داخل معسكـرات الجيش الإنجليـزى ، الإنجليز كـانـوا يعاملون النـاس معاملة طيبة ، ولكن أحـدهم كان أغبر أشعث ، ضيق الصدر ، وكـان يعامل الناس بغلظـة وبوقاحـة ، وكان يجيد العـربية ويشتم العمال بها ، وكـان يهوى الأذيـــة فيـوقع عليهم الغـرامـات والخصومات وأحيـانا كان يعتدى عليهم ضربـا باليد ، ثم علم المعلم طقطق أن الرجل (الغلس) ليس إنجليـزيا ولكنه من مالطـا . إذن هذه هى مـالطـا بلـد الـرجـل الشر ، ولعل المعـــلم طقطق عـرف الآن سر غلاسته .

فهذه أرض الحجر ، حجر ناشف حـاشف والزرع قليل والمساحة أقل والـرزق محدود . المبانى هنـا مثل مبانى شـارع محمد على أيـام زمان .. بـواكى وحوارى معلقـة ، والميادين تشبـه ميدان العتبـة أيام زمان ، لم يهزه إلا منظر البحر ومراكب الصيـادين ، وبعد ليلة واحدة أبحـرت السفينة إلى تـونس الخضرا . تـونس بلـد عربى .. هكـذا فهم

المعلم طقطق ، يعنى إيـه بلد عـربى ؟ يعنى زى مصر تماما .. النـاس تتكلم اللغة العـربية وتكتب بـالعربية ، ولـديهم مشايخ ومسـاجد .. وبعض ركاب السفينـة يؤكـدون أن فى تونس أزهـر شريف مثل أزهر القاهـرة ، يا قدرة الله جل شأنـه ..هذه أول أرض عربيـة خارج مصر يقع عليهـا عين المعلم طقطق ، وهذه مينـاء مثل الإسكندريـة ، ينطبق عليهـا المثل القائل .. الماء والخضرة والـوجـه الحسن .. وجوه ستـات تـونس حلــوة وقـوامهم ملفـوف.. واللهجـة حلــوة زى الحمصيـة والسمسمية .. والمزاج واحـد هنا وهنـاك ، الشيشة والكبـاب والشاى بـالنعناع وأغـانى أم كلثوم وعبـد الوهــاب ، والسيما هى هى .. كمال الشنـاوى وأنـور وجدى ومحمـود يس والست سعـاد حسنى وليلى علوى وفردوس محمد ونجمة إبراهيم .

ياميت حـلاوة على تونس يا ناس .. لو ضرب الحظ معـاك يا معلم طقطق وبنيت لنفسك بيت هنـا على شاطىء البحر فى تـونس ، ولبست الجلابية والعبـاية التونسية ، وجلست على الشــاطىء ودلدلت رجليك فى ماء البحر والشيشة بين أصابعك .

ليت المركب انكسرت على شاطىء تونس لكى يبقى المعلم طقطق فى تـونس إلى ماشـاء الله . ولكنهم أيام ثـلاثـة فقط ، ثم أطلقت الباخـرة صفارتها وتوغلت فى البحر الواسع الغويط .

قضى المعلم طقطق وقتـا طـويــلا فى البحـر قبل أن تلقى المركب مراسيهـا على شاطىء طنجـة . هذه أرض عربيـة أيضا ، بـلاد العرب حلوة وجميلـة والعرب طيبين وحلوين ، وطنجـة جوها حلـو وشاطىء البحر عريض وطويل ، ولكن المنظـر مش ولابد .. ستات زلط ملط على الشــاطىء .. استغفـر الله وأعـوذ بـالله من كل شيطـان رجيم .. أغلق المعلم طقطق عينيه وأشـاح بوجهه نـاحية البحـر .. ولكن المعلم عواد أقنع المعلم طقطق بأن النظـر ليس محرما ، لأن صنف الستـات الزلط الملط من غير العـــرب ، والتمتع بهم ليس حـــرامـــا لأن الله خلقهم

للاستمتاع .. صحيح .. رحمة ربنا واسعة وفضله على العباد ليس له حدود ، وصنعة ربنا فى الستات دليل على عظمة الخالق ، الخصر المخنوق والصدر الناهد والعنق الذى مثل سن الفيل ..

الله يـرحمها ويحسن إليهـا أم العيال كـانت مثل سيد قشطـة ، إذا مشت .. يا أرض انهدى ما عليكى قدى ، وإذا جلست كأنها قبة سيدى الشيخ عطـوة ، وإذا نامت كأنها جثـة مضـى على طلـوع الروح منهـا عشرة أيام .

ولكنهـا والحق يقـال كانت ســت طيبة ، عـاشت ع الحلـوة والمرة وتحملت نصيبها من الشقاء والعذاب ..

يا لها من أيام ربنا ما يعيدها بحق جاه المصطفى ..

وانتبه المعلم طقطق على السفينة ترسو على جبل طارق . الله يرحم العرب الشجعان الـذين فتحوا هذه الأرض بسواعدهم وأقـاموا عليها أجمل وأعظم حضارة عرفها البشر فى العصر الوسيط .

جبل طـارق جبل فعــلا ولكنــه جبل ولا كل الجبـال ، اشمعن جبل المقطم عندنا لا يبخ إلا ترابا وغبارا ودقشوم من كل الأحجام ..

الجبل هنا مزروع وعلى قمته أشجار وبيوت وقرود أيضا .

والناس هنـا خواجـات ، ولكنهم بعكس الخواجات الابتســامة على الشفاه ، والـدلع فى الحركات ، يقولـون إنهم عرب أيضا ولكن الـزمان مال بهم فمالـوا مع الزمان ، والله يـرحمه الحاج مصطفى بتاع عـزبة النخل ، قال يوما ما ، مل مع الـريح لو مالت وإلا فاحتمل ! وقليل من النـاس هـم من الصنف الـذى يحتمل ، أمـــا الأغلبيـة العظمـى فـلا يحتملون .

المعلم طقطق نفســه احتمل مـــا لا يستطيعــه البشر عنـدمـا مـال الزمان.. ولكن فى المقـابل .. الله يكافئ الذين يحتملون ، وفـرجه قريب ونعمتـه خير تعويض لهؤلاء الـذين يحتملـون .. يـا ترى البنت بنتـه عاملـة إيه دلـوقت مع الناس الغيـلان الذين بيتعاملـه معاهـا .. ربنا

يعينها على اللى هيـه فيه ! لكن البنـت جدعـة وبنت أبوهـا وربنا كبير وستار وعالم بعبيده الطيبين .

ويا ميت حلاوة على اللى حب ولا طالشـى ، أهى دى الجنة يا ناس ولا حدش واخـد باله ، مارسيليـا .. الفرنساوى .. إيه النضـافة دى ؟ وإيـه الحلاوة دى ؟ وإيه الـدنيـا دى ؟ العبـد اللى ربنا راضى عليـه يعيش فى البلد دى .. لو الود ودك يا طقطق تعيش هنا على آخر العمر .. ونتأهل بـواحدة مـن بنات البلـد دى ، وتشـوفلك مصلية على حـرف البحـر ، ولو جـوزة نضيفة وتعميرة حلـوة ، تبقى ضمنتهـا يا حـاج طقطق دنيا واخرة .. يا سلام ع الراجل المعلم عواد يسوى تقله دهب ، راجل فهيم صحيح ويعرف ربـه ويعرف حقه فى دنياته .. تـاجر ألفى بصحيح ومرزق والناشفة تصبح فى إيـده خضرة ، وربنا يديله على قد نيتـه . الفلوس عنـده كـالـرز ، والرزق جـارى زى حنفيـة الحريق ، ودولابه شغال على ودنـه ، وعنده تفانين حلوة قـوى .. جاءه فى المساء واقترح عليه البقاء فترة من الوقت فى البلد الحلوة دى .

— طيب والمركب يا عواد ؟

— المركب مش مشكلة ، اللى خلقها خلق غيرها .

— والتذكرة اللى معانا يا عواد ؟

— التذاكر كتير ، واللى هنخسره شىء بسيط ، إيه رأيك ؟

— إن كان على الفلوس فى ستين داهية ، بس أنا قلقان ع البنت .

— يا راجل وحد الله ، بنتك راجل ، والناس اللى معاها طيبين .

— وهنقعد كتير يا عواد ؟

— نقعد لنا كام أسبوع .

— مفيش مانع ، وعلى رأى المثل .. زى ما ترسى دقلها !

مضت الأيام بالمعلم طقطق على شاطىء البحـر فى مرسيليا، حكمة الله أن فى مـرسيليـا حـوارى ولا حوارى مصر .. الفـرق الـوحيـد أن حـوارى مرسيليـا نضيفة ، لا زبـالـة ولا مجارى .. والدكـاكين تبيع

الجبنـــــة ولكن ولا أى جبنة فى أى أرض .. جبنة رومى ولا جبنة زمان وجبنة حلوم ولا جبنــة ستى هدية يرحمهــا الله . والعيش الفينو يؤكل حــاف ، إنــه عيش ولحمــة ، عيش بغموس .. حكمــة الله .. وكلــه كــوم والنسوان هنا كوم آخـر .. والأكادة كل شـىء عادى وكل شـىء مباح .. المرة من دول تقـولها أنت حلـوة تشكـرك تحسس عليهــا تشكـرك .. تطلبها للونســة تشكرك ، تطلبها للفراش والهراش جـوزها يشكرك .. والمعلم عواد نــاصح وابن حنت ، لا يعود فى المساء إلا ومعــه عدة نتف من اللى قلبك يحبهــا .. الشىء المدهـش أن فـرنســا تعـرف الصنف ، ولكنه صنف من النـوع الفشنك ، وهو مغــربى درجة تــانية ،.الصنف اللبنــانى لا يعلى عليــه . مصر محظـوظـــة لأن الصنف اللبنــانى هــو المفضل عنـد المصريين .. ولكن يــا تـرى البنت بتعمل إيــه دلـوقت فى السوق ، ما ينهش قلب المعلم طقطق أن تليفون البيت لا يرد .. لابد أن العطب أصاب التليفون .. ولكن المعلم عواد مطمئن ويطمئنه بين الحين والآخر .

مرت أســابيع طويلــة قبل أن يعود المعلم طقطق للبحــر ، لم يعرف لماذا اختــار المعلم عـواد السفـر على هذه المركب بــالــذات ، مـركب فى طريقهــا للإسكندرية ولكن عن طـريق برشلونة وجبل طــارق وطنجة وتونس ثم الإسكـندرية فى نهاية الأمر .. وشـهر بطـوله والمعلم طقطق يجوب البحــر الأبيض ، رحلــة مملــة لأنها مكــررة .. والمعلم طقطق لا تحتمل صـحته كل هذا الإرهاق .

وفى تونس لم يغــادر السفينة ، شعر كأنــه خارج لتوه من معــركة مع عدة فتوات .. حرقان فى الصدر وصداع فى الرأس وزغللة فى العينين . وشعر وهو على سريره فى السفينــة والموج يتلاعب بها فى طريقها إلى الإسكندرية أنه لن يكتب لــه الوصول إلى هناك .. وتمنى المعلم طقطق أن ينفخ الله فى صورته حتى يصل إلى بيته ويرى ابنته ويطمئن عليها ،

ثم بعد ذلك فليكن ما يكون.. ومـر وقت طويل قبل أن تستقر السفينة على رصيف ميناء الإسكندرية .

أخيرا .. ها هـو البيت بعد طـول غياب ، ورن المعلم طقطـق جرس الباب ، ولكن حتـى الجرس أصيب بالخرس ، واستعان بنجـار ليفتح الباب ، ليفاجأ المعلم طقطق بأن الشقة خـالية من السكان وعارية من الأثـاث ، أين البنت ؟ الله يخرب بيتك يـا معلم عـواد ، الـولـد وكيلـه الغنـدور العـايق أكل عقل البنت ، وبعـد أسبوعين تـزوجهـا واشتغل معها فى الصنف ، جاءها الرجل الغامض بالشنطة الممتلئة بالصنف ، وبعد أيام جاءها بالشنطة التانية ولكنه لم يجد الشنطة الأولى الممتلئة بالفلـوس ، واعتذرت البنت بأن الشنطة تـأخرت لأسباب خـارجة عن إرادتها ، ووعدت بأن تكون الشنطتان جـاهزتين بالفلوس فى الأسبوع القادم .. ولكن الرجل فوجىء عنـد عودته ، أن الجميع هجروا البيت .. لا نـاس ولا شنط فلوس ، والـرجل الغامض صـاحب الشنطة لا أحـد يجرؤ على النصب عليه .. ومـن يفعل ذلك تخترق صدره رصـاصـة فى الظـلام ، أو تطيح به سيـارة مسرعـة فى شارع قليل الحركـة .. ولكن البنت والولد الذى تزوجها فص ملح وداب .. وتصور الرجل الغامض أن المعلم طقطق شريك فى العمليـة القـذرة ، لأنه هـو الآخـر فص ملح وداب .

ولكن الرجل الغامض من طبعه عدم التسرع فى اتخاذ القرار ، بقدر ما هو شـديد الحزم قدر ما هو طـويل النفس والصبر .. انتظر الرجل الغامض حتى عاد المعلم طقطق من رحلة الأحـلام .. وعندما اجتمع به فى منـزلـه جلـوسا على البـلاط ، كـان المعلم طقطق بحـالـة لا يمكن وصفها، كان شديد السعادة لأنه على حد قوله :

ـــ أنا شفت يـا أستاذ اللى ماحـدش شافه قبل كـده . اللى صعبوا علىّ أهلنا اللى مـاتوا قبل كـده . أهم دول عاشـوا وماتـوا ما شـافوش

حاجـة أبدا ! وفى الـوقت نفسـه كان المعلم طقطق شـديد الغم وشـديد القلق .

— لكن نقول إيـه يا أستاذ ، النـاس ما بتسبش النـاس فى حالها . وأدى أنت زى مـا أنت شـايف ، أنـا جيت لقيت الحال اتشقلب ، البنت زى ما يكـون عفاريت خطفوهـا ، وأنا خايف ليكـون الواد اللى ضحك عليهـا قتلها ورمـاهـا فى أى خـرابة . وبعـدين الفـار بيلعب فى عبى ، وخـايف ليكون المعلم عـوّاد لـه ضلع فى الملعوب ده . حـاكم دا راجل راسه توزن بلد . لكن أقول إيه وأعيـد إيه ؟ بقول الغايب حجته معاه .

لم يعلق الرجل الغامض على الأمر إلا بكلمات قليلة :

— شوف يـا معلم ... الشغلة بتـاعتنا دى شغلـة وسخة لكن اللى بيشتغلوها لازم يكونوا زى الجنيه الدهب ، لأن الغلطة بتكلف كتير !

— وحضرتك خدت علىّ أى ملحوظة ؟

— لسة .. مش هيبان دلوقت .

— إن شاء الله مش هتسمع عنى إلا كل خير .

— إن شاء الله .. المهم دلوقت ، ناوى تشتغل ولا خلاص ؟

— أنـا تحت أمرك ، ومن إيـدك دى لإ يـدك دى ، وربنا يعلم أنـا مكسوف منك أد إيه !

— شغلتنـا دى مـا تحبش الكـلام ، دى شغلـة هـات وخـد ، وع العموم الشنطة أهه ، وهافوت عليك بعد أسبوع .

عندما رأيت المعلم طقطق فى سجـن القناطر ، كان قد مـر عليه أحد عشر عاما فى السجن ، كـان آخر عهده بالحياة خارج الأسـوار هو هذا اللقاء الـذى تم بينه وبين الرجل الغامض ، كـان اللقاء فى العصر ، وفى المساء هجموا على البيت وعثروا على الشنطة ، و ...

— من يومها يا أستاذ ما شفتش الأسفلت .

— طيب ومين الراجل دا يا معلم ؟

— لو كنت حضرتك تعرف يبقى أنا أعرف .

— وما حاولتش تسأل ؟

— واسأل ليـه ؟ والـرزق بعتوا لى ربنـام السماء ، والـرزق يحب الخفية .

— وبنتك .. مفيش أخبار عنها ؟

— ربك أعلم بيها .

— وعايش إزاى فى السجن ؟

— ربك بيدبرها .

— عاوز تقوللى ما حدش سأل عنك أبدا .

— المعلم عواد بعت لى جـوابات وزارنى مـرة وحط لى فلوس فى الأمانات ، بس دا أول سنة ، وبعدين أدى وش الضيف .

— وما سمعتش أى حاجة عن بنتك ؟

— إذا كان حضرتك سمعت يبقى سمعت أنا راخر .

— غريبة !!

— ولا غريبة ولا حاجة .. كل شىء فى الدنيا دى بحساب ، الطلوع فوق بحسـاب ، النزول لـه حساب ، مش مولـد وصاحبـه غايب زى الناس مـا هى فاهمة ، وبعـدين أنا اللى استـاهل ، مـاكنت قاعـد كافى خيرى شرى فى الحتة اللى كنت مرزوع فيها وبنتى معـايا وقافل بابى علىّ وحامد شاكر ربنا ، لكن تقول إيه للطمع .

— وعندك كام سنة دلوقت يا معلم ؟

— ٦٢ سنة من غير مؤاخذة .

— وهتطلع امتى م السجن ؟

— الأصول بتاعة ربنا اطلع دلوقت . عشان أنا قضيت ثلاث أربع المدة ، وسلوكى فى السجن آخر تمام .

— وليه ما طلعتش ؟

— قدمت مظلمة للباشا مدير السجون ، لكن ما حدش سأل فيه.

— ليه ؟

— أبخات بقى يا بيه .. وبعدين بقى .. ربنا ينتقم م الظالم .

ولـزم المعلم طقطق الصمت ، وراح ينكش فى أسنـانه بعـود نجيل أخضر انتزعه من أرضية حديقة السجن .. وقطعت عليه صمته قائلا:

— ومين اللى ظلمك يا معلم ؟

وكأنما لسعته بجمرة نار ، فانتفض صارخا .

—و النبى يا أستاذ ما تقلب علىّ المواجع .. ربنا يسترك .

— فيه حاجة إنت مخبيها عنى يا معلم .. إيه هيه ؟

— ربنا يخليك تسكت .. أنامش ناقص .

— وخايف من إيه يا معلم طقطق ؟ هيجرالك إيه أكتر م اللى جرالك

— ممكن يجرالى حاجات كتير قوى ، أنت باين على نياتك .

دار هـــذا الحوار بينى وبين المعلـم طقطق ذات نهار فى حـــوش السجن، وكـان الجو شتـاء وفى عـام ١٩٧٣ . وعنـدمـا جـاء الصيف واقترب مـوعـد الافـراج عـن العبـد لله . جمعتنى مستشفى ا لسجن بالمعلم طقطق . وذات مســاء انتابتــه نوبة كحـة شديـدة كادت تقطع شعيرات صدره . واعتقـد أنه كـان يبصق دما عقـب كل نوبـة سعال شديدة ، واستـدعيت له طبيب السجن الذى أعطاه مهـدئا ، ويبدو أنه أعطاه جرعة منومة أيضا ، وسـألنى المعلم طقطق فجأة :

— أنت خارج امتى ؟

— بعد أسبوع إن شاء الله .

مال برأسه ناحيتى وقال .

— أنا كنت عاوز أقولك حاجة .

— أتفضل .

— عارف الراجل بتاع الشنطة إياها ؟

ماله

— أنا شفته كتير .

— منين ؟

— فى الجرايد وفى التليفزيون .

— صحيح .

— زى . ما بقولك

— مين هوه .

— كفاية كده يا أستاذ أنا مش ناقص .

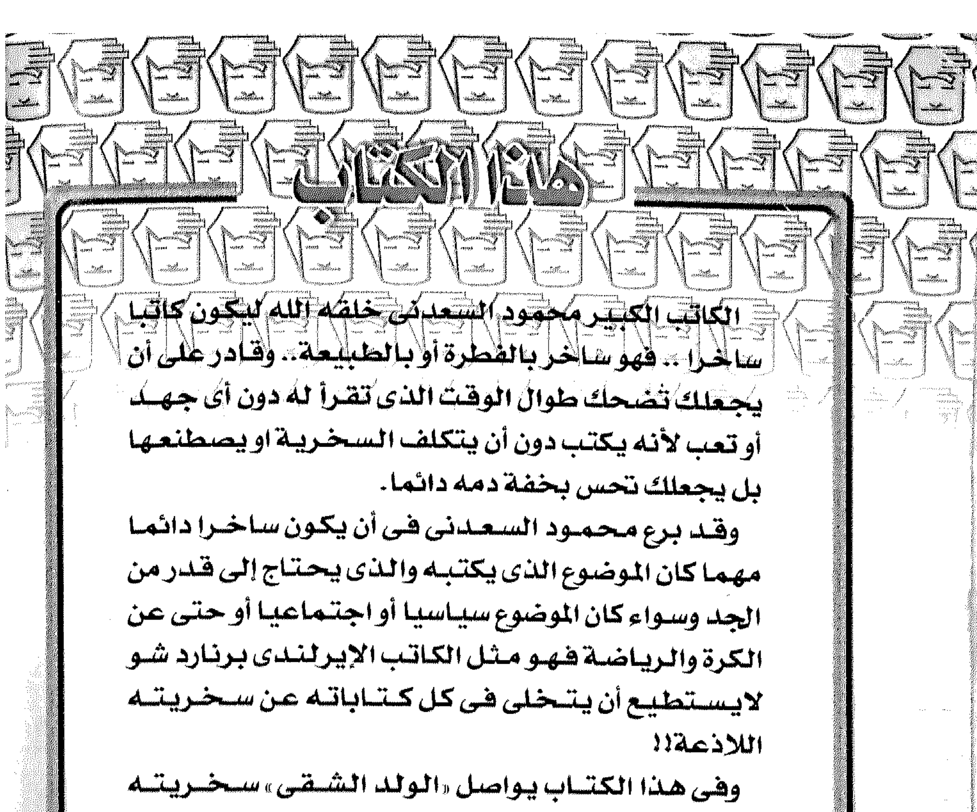
ثم انتـابته نـوبة سعـال جديـدة ، وعنـدما تخلص منهـا كان قـد استسلم للنـوم ولم ألتق بـه بعـد ذلك ، وعرفـت بعد عـدة أشهـر من الإفراج عنى أن المعلـم طقطق مات فى السجن بعـد أن أنشب السرطان أظافـره فى رئتيه ، ومات الـرجل ودفن ومعه سره ، والـرجل الغامض أبو شنطة ربما لحق به ، ربما لا يزال على قيـد الحياة . ربك وحده هو الذى يعرف السر .. وما أغرب الحياة !

الفهـــرس

صفحة

رقم الايداع ٧٧٣٤ / ٩٧
الترقيم الدولى I. S. B. N.
977 - 08 - 0645 - 5





هذا الكتاب

الكاتب الكبير محمود السعدنى خلقه الله ليكون كاتبا ساخرا .. فهو ساخر بالفطرة أو بالطبيعة.. وقادر على أن يجعلك تضحك طوال الوقت الذى تقرأ له دون أى جهد أو تعب لأنه يكتب دون أن يتكلف السخرية او يصطنعها بل يجعلك تحس بخفة دمه دائما.

وقد برع محمود السعدنى فى أن يكون ساخرا دائما مهما كان الموضوع الذى يكتبه والذى يحتاج إلى قدر من الجد وسواء كان الموضوع سياسيا أو اجتماعيا أو حتى عن الكرة والرياضة فهو مثل الكاتب الإيرلندى برنارد شو لايستطيع أن يتخلى فى كل كتاباته عن سخريته اللاذعة!!

وفى هذا الكتاب يواصل «الولد الشقى» سخريته اللاذعة وذكرياته المريرة.. والولد الشقى هو الاسم الذى اختاره محمود السعدنى لنفسه ليكتب ذكرياته وسيرته الذاتية أو عن رحلاته أو عن المقالب التى دبرها ووقع ضحيتها الناس الطيبون!!

«وتمام يا فندم» كتاب جديد من كتب الولد الشقى محمود السعدنى.

نبيل أباظة

الثمن ٥ جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم